رواية

أين رأسي؟

ابتسام شاكوش

الألوكة

جائزة الألوكة
مسابقة الإبداع الروائي

أين رأسي

ابتسام شاكوش

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

الأفق الشرقي يتوهَّج بلون الحريق، السماء ترمي قميصَ الرماد على مهل، تُفسح المكان للشمس المتسلِّقة من خلف الجبل البعيد، تستقبلها بمهرجان الزُّرقة الندية.. أمام باب بيتنا كتلةٌ كبيرة من الأجساد البشرية، بل كتلتان تبدوان متلاصقتين، تصدُر عن أولاهما أصواتٌ خشنة تسبِّح الله وتكبِّر وتتشهَّد، وعن الأخرى يصدُر عويلٌ ونواح، يطغى على صياح الدِّيَكَة الصادر من ظُلمة الزرائب في فِناء الدُّور القريبة، يفصل بين الكتلتين نعشٌ خشبيٌّ باهت اللون، تعلوه جُثَّة ملفوفة بأكفانها البيضاء لا يظهر منها سوى الوجه.

إنه وجه أبي!

في الليلة الفائتة مات، كان في الحقل وحيدًا كالعادة، يسقي القُطن، حين لدغته أفعى كبيرة صفراء، صرخ مستنجدًا، هُرع بعض الجيران من الحقول المجاورة، قتلوا الأفعى وحملوه إلى

البيت، جاشت القرية برجالها، بحثوا عن سيارة تنقله إلى المستشفى، إلا أن السمَّ تمكَّن منه قبل أيَّة محاولة لإسعافه، وفارق الحياة.

جُثَّة أبي تنام على نعشها الخشبيِّ مكشوفةَ الوجه، تتزاحم أمي وأمه وأخواته وبناتهن لتقبيله قبلة الوداع، بقيتُ واقفة على مبعدة، لا أرى موجبًا لهذا الوداع، حاولت معرفة حقيقة مشاعري تجاهه في ليلته الأخيرة بيننا، لم أجد في نفسي حزنًا لفراقه، كما لم أجد يومًا فرحةً للقائه!

هكذا عاش أبي، دائمَ الغياب عنا، فلا تراه إلا هائمًا في الحقول، أو مستلقيًا بصمت على سريره داخلَ غرفته، يُنصت لثرثرة أمي ولا يُجيب، ها هو ذا الآن يستلقي على سرير مشابه لسريره، بصمته ذاته، ولكن خارج غرفته؛ حيث اصطَفَّ رجال القرية وقوفًا خلف إمام المسجد؛ ليُقيموا صلاة الجنازة، بعد ذلك غادر النعشُ البيت، يتبعه كلُّ رجال القرية، وكلُّ نسائها، ومن كان مستيقظًا من صبيانها، ودخلت البيت أبحث عن شيء أتسلَّى به ريثما يعودون.

مات أبي، موته وحياته سِيَّان، بل ربما أفرحَ موتُه أمي، فسارعت إلى استئجار منزل في المدينة؛ لتُمضيَ فيه عِدَّتها الشرعية، اعترض أعمامي، فالعِدَّة يجب أن تُقضى في بيت الزوجية، دافعت عن نفسها بأنها امرأةٌ غريبة، لا محرمَ لها هنا

في القرية، ستسكن هناك قريبًا من إخوتها؛ لتكونَ في حمايتهم، نقلت أضابيرنا من مدرسة القرية إلى المدينة، وانتهى كلُّ شيء كأنه حلم.

ما كان أبي مؤمنًا بضرورة تعليم البنات، ولا معارضًا، لكنه أرسلني إلى المدرسة مستجيبًا لرغبة أمي، ما تحدَّى من أجل تعليمي إخوته - كما تقول أمي - لا، ما كان أبي قادرًا على تحدِّي أحد، بل كان طفلاً وديعًا مطيعًا لكلِّ من يأمره، مرارًا وعد إخوته بمنعي من الذَّهاب إلى المدرسة، وبعددها نكث بوعده، ما كان قادرًا على الصمود أمام جبروت أمي، ولا أمام دموعي.

ما كنا قبل موت أبي أحسنَ حالاً مما صرنا بعده، فما كان أبي يشكِّلُ في حياتنا محطَّةً للراحة، أو محطَّةً للأمان، كم تمنَّيت لو يسمعني مرة واحدة! لو يحدِّثني فأستمع إليه! بل كان يسمعني إذ أخلو به مُنتهزةً غيابَ أمي في زياراتها التي لا تنتهي، أحدِّثه عن أحلامي.. تمنَّيت لو يتفاعل مرة مع ما أحكيه له، لكنه كان يستمع إليَّ وهو مُستلقٍ على سريره يُحَملق في السقف، في حين يدور عقله في متاهات تنأى به عني وعن همومي، يستعيدني الكلامَ مرة تلو مرة، متعلِّلاً بضعف سمعه، وأنا أعلم - ويعلم أني أعلم - أنه لا يقول الحقيقة، بل يتخذها ذريعةً يهرب بها من كلِّ سؤال وجواب.

تمنيت أن أتعرَّف الحياةَ ممن خَبَرَها وعاش تقلُّبَ فصولها، فلا أجد سوى صمت أبي، وانشغال أمي، أشعر بروحي كتلةً من اللهَب، طموحي كبيرٌ لا يتسع له الجوُّ الذي يحتويني، ولا تُطاول حواشيه قدرتي على التخيُّل، أشعر أنني أمام جدار من جهلي، يرتفع حتى يُلامسَ الشمس، تفصلني عنه خطوتان أو ثلاث، كلما تقدَّمتُ خطوة عمياء، مشى الجدار معي خطوة بالاتجاه ذاته، وبالمقاس ذاته، وتبقى المسافةُ بيني وبين المعرفة ثابتةً لا تنقص، وتزحف أمنيَّاتي في استيضاح شيء عن الحياة داخل العشيرة، الحياةُ خارجها ذليلةٌ أمام مِكنسة الفشل، ثم ترمي في مهَبِّ عواصفَ تُديرها أمي وتدور بها، ما كان أبي في حياته سوى حبل غسيل، سلكٍ مربوط بين عمودين ثابتين، هما حقله حيث يعمل، ومخدع أمي، يمرُّ به الناس فلا يلحَظون له جسدًا ولا ظلًّا، إلا حين تنشر عليه أمي مُلاءات غضبها السوداء، يتطاول حينها وتشسَعُ نهاياته حتى تسدَّ أفقَ الرؤية وتحاصرَ الجميع - أبناءه وإخوته - في ظلال نزَوات تُلبسه إياها، وتقعد من المشهد مقعدَ المتفرِّج، الهازئ حينًا، الشامت المتشفِّي أحيانًا، وما تلبث أن تَلُمَّ ما نشرت عليه، فتعودَ للسلك كتلته اللامرئية، وتمشي الأمور بنا كما تشاء أمي.

وكثيرًا ما تطويه فتجعل منه سوطًا، تضرب به من تشاء من أهله وجيرانه، ويعود إليها، دائمًا يعود إليها كما يعود القطار

إلى محطَّته، عاجزًا عن الخروج عن مَسار سكَّته الحديدية قِيدَ أُنملة.

لِمَ لا أنطِقُ بالحقيقة؟

لماذا أتجنَّى على تاريخي وأُخفي بعض حقائقه؟

مُلاءات الغضب التي كانت تنشرها أمي على هيكل أبي كانت في معظمها بعضًا من غضَباتي، كانت أمي تلبَسُ كلَّ أفراحي ونزَواتي، تدافع عنها كأنها شيء يخصُّها وحدَها، تتحمَّل عداوةَ الجميع؛ دفاعًا عن هفوة مني، تتباهى بي بين أقرانها، تتصدَّر سهرات النساء التي تُقام في بيتنا وما أكثرها! لتفخرَ أن ابنتها - قاصدة إياي - تختلف بذكائها عن كلِّ من عرفتهُنَّ من البنات، وهي متفوِّقة في الدرس على الصبيان، وتصرِّح بأن جمال ابنتها لم يُخلَق مثله في القرية.. وأنا في كلِّ المجالس ملتصقةٌ بأمي، مؤمنة إيمانًا لا يشوبه شكٌّ بكلِّ ما تقول، معجبة بها وبإدارتها لدفَّة الحديث في كلِّ مكان تجلس فيه، متخطِّيةً رقاب النساء والرجال؛ لتحكيَ وحدها، ويُنصتَ الجميع إلى حديثها، راضين أو كارهين.. أترك المجلسَ وأركض إلى المرآة أسألها، أتأمَّل في صفحتها وجهي، صحيح كلام أمي، ما أجملَني! أنظر إلى أصابع يديَّ التي ترفعها في وجه جاراتها لتقول: انظُرنَ إلى أقلام الفضَّة، أقارنها بأيدي الفلاحات من جاراتنا، فأجد هذا الوصفَ قاصرًا عن إعطاء يديَّ حقَّها، تقول وتقول، وأنا أصدِّق

كلَّ ما تقول.

في بداية الصيف تقدَّمتُ لامتحان الشهادة الإعدادية، قبل ذلك بشهر كامل اشتغلت بالخياطة لإنجاز أثوابي الجديدة، لكلِّ يوم من أيام الامتحان ثوبٌ جديد، أمي تُنفق عليَّ كلَّ ما تدَّخره من نقود، وأنا أشعر بأني أستحقُّ أضعافَ ذلك، أوَ لستُ الجميلةَ الذكية؟ كنت أرتدي كلَّ ثوب؛ لأعرضَهُ على أمي، وأسمعَ منها كلامًا يمنحني الثقةَ بنفسي، وبجمال ثوبي ومُلاءمته لجسدي، أسمع منها الكثيرَ من المديح لقامتي وتناسُق أعضائي، وعن انعكاس لون الثوب على بشَرة وجهي، وأهيم عشقًا بنفسي!

نجحت في الامتحان، صدرت نتائجه بعد انتقالنا للعيش في حلب، تمنَّيتُ لو كنا في القرية؛ لأرى ظلالَ الغَيرة والحسد على كلِّ الوجوه، فأنا أولُ فتاة من قريتنا تحصل على الشهادة الإعدادية، نجحت، لكني ما كنت في عمر أقراني، بل أسبقُهم بأعوام أربعة، تأخَّر أبي في إرسالي إلى المدرسة متأرجحًا بين رغبة أمي في تعليمي، وقوانين القرية التي تقضي بأن البنت مخلوقةٌ لبيتها وزوجها.

حملت أوراقي، ومضيت مسرعةً إلى المدرسة الثانوية، لكن الخيبة كانت بانتظاري هناك، مديرةُ المدرسة فحصت أوراقي، ثم أعادتها إلى مُصنِّفها وناولتني إياها، وقالت: إن المدرسة لا

تقبلني تلميذةً نظامية؛ بسبب سنوات عمري، وأن القوانين واضحةٌ وصارمة، اضطربت، ارتجفت ألمًا وغضبًا، لا أعلم أيَّ شعور اعتراني آنذاك، لأول مرة في حياتي أراني مرفوضة، وأرى جمالي وذكائي لا يشفعان لي، غرقتُ في نوبة من البكاء المجنون، صرخت المديرة فلم أسكت، نادت المستخدمَ فجاءها يسعى، أمرته بإخراجي من غرفتها.

رجل أربعينيٌّ أنيق، كان يجلس على كرسيٍّ إلى جانب المديرة، التقت نظرتي بنظرته، أشار إليَّ بيده مهدِّئًا، ثم بعينه غامزًا أن: اخرجي وانتظريني...

أخذت مُصنَّف أوراقي من يد المديرة وخرجت إلى باحة المدرسة أغالب شهَقاتي، لحقَ بي الأستاذ محرز، قادني إلى غرفة ملحقة بالإدارة، أغلق الباب وراح يواسيني، بل يؤنِّبني على قلَّة عقلي، ويؤنِّبني مرة أخرى؛ إذ أسمح للبكاء بتشويه جمال عينيَّ الساحرتين، ثم ضحك مني:

- أنت حمقاء، تبكين من أجل المدرسة؟

- وماذا أفعل؟ هل أعود للبيت، فأتزوَّج، وأصير امرأة مثلَ كل النساء بلا حاضر ولا مستقبل؟

- ومن قال هذا؟

- ماذا إذًا؟

- سترافقينني الآن إلى مقرِّ حزبنا، تقدِّمين طلبَ انتساب، سنوافق عليه فورًا، ونسلِّمك رئاسة الرابطة النسائية.

- ماذا يعني هذا؟

- يعني بدلاً من إضاعة سنواتك هنا تلميذةً في المدرسة، تتخرَّجين بعدها وتبحثين عن عمل وظيفي، تصيرين موظفةً منذ الآن، تأمرين وتنهَين، وتقبضين مرتَّبًا محترمًا في بداية كلِّ شهر.

- والدرس؟ هل أبقى على الشهادة الإعدادية؟

- هذا يتعلَّق بإرادتك، إذا كنت تريدين الارتقاء في الشهادات، ادرُسي منهاج الشهادة الثانوية العامَّة، وتقدَّمي لامتحانها مع التلاميذ الأحرار، سنجنِّد لك كبار المعلِّمين من حزبنا؛ ليشرحوا لك ما يعسُر عليك فهمُه، أأنت موافقة؟

عاصفةٌ من الأمل عصفت بي، فرحٌ ما عرفت مثله من قبلُ غمر قلبي، هل أضحك؟ هل أرقص؟ ما حصلت عليه الآنَ يفوق أحلام أيَّة فتاة مثلي، ويسألني: أأنت موافقة؟ وهل أملك الاعتراض؟ بسط راحةَ يده أمامي على طريقة الرجال، سارعتُ بوضع راحتي فوقها معلنةً قَبولي لكل ما عَرَضَه، شدَّ على يدي بقبضة قوية كما يفعل الرجال مع الرجال، وقال: هيا.

انطلقنا.

اصطحبَني إلى مقرِّ الحزب، أجلسني قُربه في سيارته، اقترح

عليَّ جولةً في شوارع حلب فوافقته، ظلَّ يحدِّثني طَوالَ الطريق عن الأمجاد التي تنتظرني، والعزِّ الذي خُلقت لأجله وخُلق لأجلي.. كان يقول، وأنا أسمع، الفرح ضبابٌ شفيف يغلِّفُ كامل إحساسي، ويحجُب عن عينيَّ امتدادَ الطريق، رَكَنَ سيارته في زاوية من شارع عريض، وأشار بيده وانحناءة رأسه: تفضَّلي يا آنسة، تمامًا مثلما يفعلون في الأفلام الأجنبية، نزل، دار حول السيارة، فتح لي الباب وانحنى مرة أخرى.

رحنا نمشي في الشارع، عشراتُ العيون تنظر إلينا باهتمام، يتجاوز الاهتمامَ بشكلي، والذي ألفته، كانت النظراتُ تحمل من المعاني ما لا يتوافق مع الإعجاب والانبهار الذي توقَّعتُه، شعرت أن فيها شيئًا من الرِّثاء، من الشفقة، لكني ما أتعبت نفسي باستكشاف كُنْهها، تركنا الشارع العريض، ودخلنا بين الحارات الضيِّقة، زُقاق يؤدِّي إلى زُقاق، وحارة إلى حارة، حتى توقَّف فتوقَّفت.

دخلنا منزلاً في بناء مظلم، على بابه لوحةٌ معدنيَّة بمساحة الكف، كُتب عليها (مكتب حزب التقدُّم والحرِّية)، أرضه الإسمنتيَّة الخشنة كسرها مرور السنين وتوالي الأقدام، جُدرانه الكالحة لا تعكس الضوء المنتشر بكسل من مصابيحَ كهربائية تتدلَّى مشنوقةً بأسلاكها من السقف! وقفتُ مدَّة حتى تلاءم بصري مع ظُلمة المكان بعد السير طويلاً في الأزقَّة المشمسة،

قام جميع من في غرفة الإدارة لاستقبالنا، مصافحين مرحِّبين، ظننت هذا الاهتمام خاصًّا بالأستاذ محرز، فمكانتُه التي أهَّلته للجلوس إلى جانب مديرة المدرسة الثانوية لا بدَّ أن تعادلَها مكانتُه هنا، وربما تزيد عليها، قدَّمني للجميع بأنني الوجهُ الذي يبحثون عنه منذ مدَّة طويلة لقيادة المنظَّمة النسائية، أجلسني رئيسُ الحزب على كرسيٍّ بجانب كرسيِّه، وأمر الأستاذَ محرزًا بإتمام الإجراءات، وإحضار كلِّ ما يلزم من أوراق رسميَّة؛ لأباشرَ عملي منذ صباح الغد.

غادرَنا الأستاذ محرز، لا أعرف إلى أين؟ وبقيتُ إلى جانب رئيس الحزب، يسألني وأجيب، وما لبث أن أثنى على جمالي وذكائي، وامتدح مطوَّلاً تمرُّدي على قيود المجتمع، وإصراري على التحرُّر من حياة الحريم، التي ظنَّ أني أرفضها، وقال: هذا ما نبحث عنه، عليك الآن بنشر أفكارك ومساعدة كلِّ فتاة مظلومة على أن تتمثَّلَ أفكارك وتنهجَ نهجك، فهذا البلد المتخلِّف لا يحتاج لنهوضه إلى مزيد من الأولاد، ولكن يحتاج إلى عقول مفكِّرة نيِّرة، وأنت تحملين في رأسك الجميل هذا أنضجَها وأكملَها.

بعد ذلك صمت، وانشغل بأوراق أمامه، شعرتُ بالملل، سألته إن كنت أستطيع الذهابَ إلى بيتي، قام مُصافحًا مودِّعًا، وطلب منِّي الحضور في الصباح لتسلُّم مهامِّ وظيفتي الجديدة.

سألت نفسي: لمن أزُفُّ البُشرى؟ إلى أين أذهب؟ ليس سوى أمي من يفرح بكلِّ إنجازاتي، خرجت من البناء إلى الزُّقاق المشمس، شعرت بأني أطيرُ من فرحي، تلفَّتُّ حولي، شعرت بأني أضعت الجهات الأربع، في القرية يتمُّ تحديد مكان كلِّ شيء حسب الجهة التي يقع فيها، غديرُ الماء غربَ القرية، البيدر شرقيَّها، المدرسة إلى الشمال من بيت المختار، أما هنا... تلفتُّ في كل الجهات فلم أتبيَّن شيئًا، حين جئت برفقة الأستاذ محرز ما كنت أنظر إلى دربي، بل كمَن يحلِّق في الخيال وأنا أستمع إلى كلامه الذي أسكرني.

دخلت أولَ دُكَّان، سألت البائع العجوز عن اسم الحيِّ الذي أقف فيه، قال: إنه سوق النحَّاسين، أصَختُ السمع، فالتقطت أذناي طرَقاتٍ سريعةً خفيفة غامضة، ضحكت في سرِّي لمثَل يردِّده جدِّي، ثم سألت البائع عن طريق يوصلني إلى الشارع العريض، أشار بيده: امشي إلى الأمام، ثم انعطفي يمينًا مئة متر، ثم انعطفي يمينًا مرة أخرى.

ما زال مُصنَّف أوراقي معي، أخرجت قلمًا ورسمت الزُّقاق، سجَّلت على الرسم كلَّ لوحة إعلانية رأيتها، ثم رسمت الزُّقاق الذي يليه، والذي تلاه حتى وصلت إلى رسم الشارع، استوقفتُ سيارة أجرة ومضيت إلى أمي.

فرحت أمي بما أنجزتُ أضعافَ فرحي، بكت من حرارة

الموقف، كما لم تبكِ عند موت أبي، قالت: إن أمنيَّاتها تحقَّقت بأسرعَ مما كانت تأمُل، ولولا خشيتُها مَلامةَ الجيران - وهي ما تزال في عِدَّتها الشرعية - لأطلقت الزغاريد، وملأت بها آذانَ كلِّ من في الحارة، لكنها لم تترك المناسبة تمرُّ سُدًى، أرسلت أختي الصغيرةَ فضة؛ لتطرقَ كلَّ باب من ذلك الشارع في حيِّ الصاخور الذي نسكنه، تدعو نساءه لحاجة تريدها منهنَّ أمي، سارعت الجارات؛ استجابةً لنداء أرملة حزينة، فما وَجَدنَ للحزن موضعًا، ألبستني أمي ثوبًا طويلاً مُزركَشًا كأثواب العرائس، وغطَّت وجهي بطبقات من المساحيق والألوان، أجلستني في صدر الغرفة الكبيرة، وراحت توزِّع عليهنَّ الحلوى، وتتلقَّى التهنئات.

شعرتُ أني محورُ الكون في ذلك اليوم العظيم، قلت في نفسي: ما أسخفَ أن تصيرَ الفتاة عروسًا ليلة واحدة، تُرمى بعدها إلى بيت لا تجد فيه سوى العمل والمسؤولية، تضيع بين صراخ الأطفال وأوساخهم، والبحث عن رضا زوج لا يرضى! أنا منذ اليوم عروسٌ أبدية، بل ملكة، آمُر وأنهى، تسري أوامري على الرجال والنساء، لا على أطفال أربِّيهم حتى يكبَروا، ثم يغادروا بيتي وينسَوني.

دخلت مكتبي صباح اليوم التالي، وهو غرفةٌ في مقرِّ الحزب، على بابها لافتةٌ معدنيَّة صغيرة، تشير إلى الرابطة

النسائية التي أرأسُها، داخل الغرفة طاولةٌ لا تقلُّ اتساعًا عن طاولة مديرة المدرسة، تُحيط بها كراسيُّ مغلَّفة بالجلد الأحمر، وأمامي على الطاولة لوحةٌ تُدير ظهرها لي، ووجهُها للداخلين إلى الغرفة، تحمل عبارةً مكتوبة بخطٍّ كبير أنيق، تتضمَّن اسمي ومنصبي، أكلُّ هذا من أجلي أنا؟ ما أسعدَني اليوم! تبعني الأستاذ محرز، تفقَّد الوضع، اقترح إزالةَ الستائر التي تغطِّي النوافذ وتبديلها بأخرى تغطِّي كامل الجدران، وإضافة مصابيح (نيون) جديدة؛ لتطرُدَ من حولي كلَّ ظلام، وعدت لأسألَ نفسي: كلُّ هذا لي أنا؟ ما أسعدَني! كلُّ ما حولي يدعوني لأطيرَ وأحلِّقَ فوق الأرض والناس والمناصب.

الأستاذ محرز، الذي أهابُهُ لقوة شخصيَّته وجرأته، وأناقته وسعَة معلوماته، صار يعاملني كأنه تابعٌ من أتباعي، يخاطبني بصوت خفيض، يقدِّم إليَّ كل صباح ورقةَ عمل اليوم، ويساعدني في إنجاز كلِّ المهمَّات. رئيس الحزب يزورني في مكتبي، يجلس على كرسيٍّ من الكراسي، وأظلُّ أمامه متصدِّرةً وراء مكتبي، كلُّ شيء طَوعَ يدي، بل طوع بناني.

مُوتي قهرًا يا آنسة منيرة، وظَلِّي غارقةً بين صخب تلميذاتك ومشاكل المعلِّمات العاملات في مدرستك، لن تُطاولي مكانتي مهما تطاولت، ظَلِّي حيث أنت، وقولي لبنات القرى باشمئزاز مثلما قلت لي: مدارسكم لا تتقيَّد بشرط السنِّ، أما هنا، فلا

تسمح القوانينُ باستقبالك في مدارسنا... حسنًا فعلت يا آنسة منيرة، حين طبَّقت عليَّ قانونك، ودفعت بي؛ لأرقى بمنصبي هذا فوقك وفوق مدرستك، إنها حسنةٌ قدَّمَتها لي شفتاك المرسومتان بلون أحمر تجاوزته (الموضة)، دون أن تدري، لو كنت تعلمين أني سأصيرُ إلى هنا، لما قلت لي ما قلت، إنها غلطتُك فتحمَّلي نتائجها.

أول هدية قدَّمها ليَ الأستاذ محرز كانت «كاترين»، امرأة خمسينيَّة متسربلة بالسواد، ذات ساقين مكشوفتين في الصيف، وكذلك في الشتاء، شعرُها الرماديُّ معقوص بشكل كرة صغيرة تستقرُّ فوق (نقرتها)، قال لي: هذه خادمتك ومساعدتك، ستُعدُّ الشاي والقهوة لك ولضيوفك، وتعلِّمُك كلَّ ما تجهلين من شؤون الحياة العصرية، فأنت شابَّةٌ غريرة، وهي عجوز مُحنَّكة.

بدأت كاترين بشَعري، لم تُعجبها الجديلة الطويلة المستلقية بين كتفيَّ، قالت: هذه التسريحة خاصَّة بالفلاحات، أو التلميذات الصغيرات، كدتُ أذوب بين يديها من شدَّة خجلي، أكره أن ينعتَني أحد بالفلاحة، أريد أن أنسى أنني مولودةٌ في القرية، أو أن لي قريةً في هذا العالم أنتمي إليها، قادتني كاترين إلى دار لتزيين النساء، طلبت من العاملة هناك قصَّ شعري وفق أحدث (موضة)، اعترضتُ، أنا لا أحبُّ الشعر القصير، بل أعتزُّ بشعري الطويل، وأمي تتباهى بشعري بين صويحباتها،

ضحكت المزيِّنة: لن يصيرَ شعرك قصيرًا، بل مدرَّجًا، اصبري وسوف ترَين.

آلات تُصدر أزيزًا مزعجًا، وأخرى تنفُث هواء حارًّا، وأخرى، وأخرى... لأول مرة أرى مثلَ هذه الآلات، لكني نظرتُ في المرآة حين انتهى كلُّ شيء، فأنكرتُ نفسي، لقد تحوَّلت إلى مثل الصور التي أراها على أغلفة المجلات! لم تتوقَّف كاترين عند شعري، بل امتدَّت إرشاداتها لتشملَني من قمَّة رأسي حتى كعب حذائي، رافقتني في جولة على الأسواق، لفتت انتباهي إلى الأشياء التي يليق بالآنسات استعمالها، وتلك التي تخصُّ الفلاحات، فالجمال يختلف هنا عنه هناك في القرية، هنا، في المدن الكبرى، وفي المناصب الرفيعة، ينظرون إلى الأناقة في اللباس والحركة، في الكلام والسكوت، الأناقة هنا تعادل الجمال، وربَّما تفوقه أهميَّة.

قصفت كاترين أشواكَ رعونتي، تعهَّدتني بالتعليم والتقليم، حتى صرتُ أسيل غُنجًا حين أتكلَّم، وأوشكُ على الرقص حين أمشي أو ألتفت، بعدها جاء الأستاذ محرز، أشعل دَخينةً (سيجارة) وناولني إياها، دهشت، قالت كاترين: إن (السيجارة) في المنصب الرفيع هي من متمِّمات الأناقة، سيجارة أو اثنتان في اليوم لا تضرُّ بالصحَّة، ولا تعمل إدمانًا، ليس من الضروريِّ أن أصبحَ مدخِّنة، أطلق من حَنجرتي سُعالاً جافًّا مثل عمِّي

مطيري، وأطعتُ على غير قناعة!

حاجز من الغربة نما بيني وبين أمي، تغيَّرت ظروفُ حياتي، وأمي فلاحةٌ (بسيطة)، لا تقدر على مواكبة تطوُّراتي، أمي لا تعرف شيئًا عن السياسة والأحزاب، لا تفهم تعاليمَ حزبنا، ولا تُعجبها توجيهات كاترين، لكنها تتقبَّلها؛ لأنها تصدُر من ابنتها الأثيرة إلى نفسها، كثيرًا ما تسألني عن شكل مكتبي، عن معنى كلمة (رفيق) في الحزب، عن أشياءَ كلُّها صارت بديهيَّة عندي، لكنها تسأل عنها وتعيد السؤال، حتى سئمتُ من كثرة الإجابات، فصرت أُهمل أسئلتها ولا أردُّ عليها، ففهمت من تلقاء نفسها أنها لن تُحيطَ علمًا بي وبتطوُّراتي، فكفَّت عن السؤال.

برَّ الأستاذ محرز بوعده، راح يأتيني كلَّ صباح بمجموعة من الصُّحف والمجلات، يضعها على مكتبي، يساعدني في قراءتها، ويشرح لي ما عَجَزتُ عن فهمه، ثم يُحضر الكرَّاسات التي تضمُّ بين دَفَّاتها قوانين الحزب وتعاليمه؛ ليشرحَها لي فقرة إثر فقرة.. اعترضتُ، ما كان هذا نصَّ اتفاقنا، ففي صدري غضبٌ من الآنسة منيرة لم تنطفئ نيرانُه بعد، أريد أن أحصلَ على الشهادة الثانوية؛ لأقلعَ بها عينها، ضحك الأستاذ حتى القهقهة؛ مما زاد في غضبي، هل يسخرُ مني، أو يعدُّني فتاةً قادمة من قرية نائية كما عدَّتني؟!

لا، كل هذا ما كان في حسابه، ضحك؛ لأني أتعلَّق بقشور الأشياء، وأغفُل عن جوهرها، إن التثقيف السياسيَّ - هكذا قال - أهمُّ بكثير من الشهادة الدراسية، لكني أريد الشهادة، وبإصرار، قال: إن الوقت طويلٌ أمامي ومتسع للدرس والتحصيل، أمامي سنتان كاملتان، وفي السنة الثالثة تسمح لي قوانينُ وزارة التربية بالتقدُّم لامتحان الشهادة الثانوية مع التلاميذ الأحرار، في هذه المدَّة يجب عليَّ تثقيف نفسي؛ لأكونَ جديرةً بمنصبي، وجديرة بانتمائي لهذا الحزب الذي يمدُّ فروعه وجذوره في كلِّ المجتمعات الإنسانية في العالم العربي.

جميل كلامه هذا، أخذت منه كُرَّاساته، اصطحبتها إلى البيت، سهرتُ الليالِيَ في حفظها واستظهارها حرفيًّا، أعترف بأنها مادَّةٌ عسيرة على الهضم، لكني حفظتها عن ظهر قلب، في وقت قياسيٍّ أثار دهشةَ الجميع، وانصرفت بعد ذلك إلى الصحف والمجلات، إلى الروايات التي يختارونها لي ودواوين الشعر.

سنتان ما أطولَهما! بل ما أقصرَهما! عدت فيهما إلى التحليق في آفاق نفسي، أنا الجميلة، أقنعوني بهذا فتشرَّبتُه حتى نِقْيِ عظامي، لا، هم لم يتعبوا كثيرًا في إقناعي؛ لأني كنت أعرفُ ذلك من قبل، لكني فرحت بارتقائي من مستوى القرية إلى مستوى المدينة، يداي ما خُلقتا من أجل أعمال البيت

والحقول، حُقَّ لجمالي أن يقومَ عشراتُ الأشخاص على خدمتي، وخصري الرقيق هذا ما خُلق إلا ليتثنَّى فيُديرَ رؤوس الرجال، لا مكانَ في أفكاري للزواج والإنجاب، أمشي في الشارع، تُسعدني عشرات العيون الشَّرهة التي تُلاحقني، أجلس خلف مكتبي، لا عمل لي سوى تأمُّل يديَّ، وقراءة المجلات التي تعلِّمني كيف أعتني بجمالي، وأحافظ عليه.

في الغرفة الأخرى إلى جانبي عددٌ من الفتيات الشابَّات، يعملن في وظائفَ مختلفة، منها الديوان، ومنها المحاسبة، ومنها الآلة الكاتبة، وأكثرهنَّ تروح وتجيء بلا عمل يُوكَل إليها ولا مهمَّة، سوزان وسهام وفدوى وفاتن كلهنَّ نساء متمدِّنات متحضِّرات، قدَّمني لهنَّ الأستاذ محرز في الأسبوع الثاني لجلوسي على كرسيِّ المنصب، بعدما أخذ شكلي ولباسي قالبًا يليق بالمنصب: هذه هي الآنسة «وضحة»، رئيسة الرابطة النسائية الجديدة في حزبنا، قُمنَ من مجلسهنَّ، صافحنَني واحدة إثر واحدة، رحَّبنَ بي بحرارة واحتفاء أخجلني، وأنا الخَجْلى منذ بداية نهاري، وقُلنَ للأستاذ مجتمعات: لن يمرَّ تنصيبها هكذا، لا بدَّ من احتفال للتعارف بينها وبين أعضاء الحزب، وجرى الاتفاق بينهم على أن يكونَ الاحتفال في مطلع الأسبوع القادم.

عاد معي إلى مكتبي، ولحقت بنا الموظفات واحدة فواحدة،

تجلس الأولى ريثما تعرِّفُني بنفسها، وبالمهامِّ الموكلة إليها هنا، وتحكي نبذةً عن حياتها الشخصية، ثم تدخل الأخرى فتنصرف الأولى.. وهكذا، وجدت نفسي آلَفُ وجهَ سوزان أكثر من الأُخرَيات، بعينيها الزَّرقاوَين، ومرحها الدائم، بغرامها بكلِّ ما هو جديدٌ من الثياب والأغنيَّات والمجلات وأنواع السيارات، سوزان تفهم الحياةَ على النحو الذي أُريده وأتمنَّاه لنفسي، تُخاطب الرِّفاق في الحزب رافعةً الكلفة بينها وبينهم، كأنها طفلةٌ تلعب مع الأطفال، تحكي للجميع عن المسلسلات التي تشاهدها في التلفاز، تتكلَّم بإسهاب عن الحالات العاطفية، لا تعبأ بشيء، هذه الأحاديث ممنوعةٌ في بيئة القرية، تدخل في خانة العيب، لكن سوزان تسخر من كلِّ ما هو عيب، وهي طالبةٌ في الجامعة، تدرس بجدٍّ، تجعل كلَّ وقتها خارج الدَّوام الوظيفيِّ للدرس، تحلم بأن تتخرَّجَ في جامعتها؛ لتكونَ كما تريد، وماذا تريد؟ هذا سرٌّ تحتفظ به لنفسها ولا تبوح به.

أما سهام، فسمينةٌ ثقيلة، تجلس خلف الآلة الكاتبة طَوالَ النهار، تعمل أو لا تعمل، لكنها لا تغادر مقعدها، بليدةٌ كسول، لا تتوقَّف عن الأكل إلا لتشربَ القهوة والشاي، همُّها الوحيد أن تقبضَ مرتَّبها في نهاية الشهر؛ لتشتريَ المزيد من الأساور الذهبية التي تصلصل في يديها كالأجراس، وتحلم بشراء منزل لها؛ لتسكنَ فيه بعيدًا عن أمِّها وإخوتها، وتكيدَ به

زوجها ذا الأفكار الرجعيَّة المتخلِّفة، الذي طلَّقها ولم يندم.

ما أسعدَني في عملي هذا!

كلُّ شيء في خدمتي، أقرأ الصحف في الصباح، ثم قائمةَ أعمال اليوم، أستعرض المهمَّات الخارجية في المدارس، أو الدوائر الرسميَّة، أو مراكز نشاطنا في الريف، يتبارى رئيسُ حزبنا ورئيس البلدية، وتتدخَّل شعبة التجنيد والمالية والزراعة، كلٌّ يعرض نفسه مع سيارته لمرافقتي في مهمَّتي، يقدِّم لي مساعدته وحمايته وخدماته، أتدلَّل عليهم، وأختار السيارة الأجمل من بين سياراتهم، أصطحب واحدةً أو أكثر من الموظفات، يتبع المهمَّةَ في الغالب غداءٌ في أحد مطاعم المدينة، يتركون لي صدارةَ المائدة، ويأتي (النُّدُل) لينحنوا أمامي، ويهمسوا بتهذيب كبير عن أصناف الطعام التي أريد، فأريد، وأريد، وهم يدفعون ثمنَ ذلك كلِّه، لا يكلِّفونني قرشًا واحدًا، وأعود في المساء للبيت، لا يسألني أحدٌ أين أمضيت نهارك؟ ولا لماذا تأخَّرت؟

الكلُّ حريص على راحتي، ألستُ من يدفع النفقات؟ أمي انسحبت من حياتي، بعدما دخلتها كاترين، صارت كاترين بالنسبة لي هي الأمَّ التي أعتمد عليها في كلِّ ما يخصُّني من لباس وأناقة، وصارت أمِّي مع إخوتي الثلاثة يجلسون في غرفة واحدة، وفيها ينامون ويُذاكرون دروسهم، وأنفرد أنا بالغرفة

الأخرى؛ أنام، أقرأ، أشرب القهوة إذ يقدِّمونها لي وينصرفون، أو أهتمُّ بأناقتي وجمالي، وهذا يستهلك مني معظمَ وقتي، أمارس عشقي لنفسي على مهل.

شَعري وحدَه يحتاج مني إلى ساعات يوميًّا للعناية به، والتنقُّل بين مُستحضَرات لغسله، وأخرى لتقويته وتلميعه، أدواتٌ لتجعيده، وأخرى لتمليسه، كل هذا حسب تعليمات كاترين، التي حفظتُها عن ظهر قلب، ثم رحتُ أضيف لمسات من ابتكاري، تُعجب كاترين حينًا وتُغضبها أحيانًا، فأضطرُّ إلى حذفها؛ خشيةَ نعتي بالفلاحة!

الوشاح الذي جئت به من القرية ما عاد يناسبني، فهو كبيرٌ يحجب من شعري ما أتعب طَوالَ الليل في العناية به وإظهاره، أشارت أمي: لا... هذا كثير، لا أسمح لك بالخروج إلى الشارع سافرةَ الرأس! وقال الأستاذ محرز: خروجك إلى الشارع سافرةً سيوقعك في مشاكلَ مع أقاربك لا مسوِّغ لها، وسيحاربون حزبنا ونحن نسعى لجعله حزبًا جماهيريًّا يناسب كلَّ مذاهب الناس ومشاربهم.

أشارت كاترين إلى أشكال عديدة من أغطية الرأس، تأمَّلتُها، ثم رجعتُ بفكري إلى المنديل الذي رأيتُه على رأس الآنسة منيرة، مديرة المدرسة الثانوية، مربَّع من الحرير اللامع لا يتجاوز ضلعه نصفَ الذِّراع، أطويه فيصير مثلثًا متساويَ

الساقين، أربط طرفَيه تحت ذَقَني بنعومة، فيُظهر غُرَّتي وغَدائري المنسابة على ظهري كالأفاعي اللامعة، كما يكشف عن عنقي ونحري، نعم هذا أفضل من نزع الغطاء بالكامل، ثم إعلان الحرب على أقاربي في القرية وأتباعهم في المدينة، حرب لا تكافُؤَ بين طرفيها، ولا أضمن لنفسي النصرَ فيها، كما قال الأستاذ محرز.

شكلي الجديد أعجب أمي، أقرَّته وباركته، ما كانت أمي من بنات المدينة، لكن إخوتها غادروا قريتهم في شبابهم المبكِّر، ثم تزوَّجوا من بنات المدينة، وهي لا ترضى أن تكونَ هي وأولادُها أقلَّ تمدُّنًا من بيوت إخوتها، وصار لديها الآن ما تتباهى به عليهم وعلى أبنائهم، لديها بنتٌ جميلة، تحتلُّ - برغم صغر سنِّها - منصبًا رفيعًا يعجِزُ أكبرهم عن لمس أعتابه.

لها الحقُّ أمي، فلتفخَر بي ما تشاء، وأنا سأعطيها كلَّ ما تريد، فنحصل على التعادل في كلِّ مبارياتنا، أمي لا تحبُّ الريفَ وحياة الريف. وأنا مثلها، أكره هواء الريف المتجدِّد دومًا، الذي يجفِّف شعري وبشَرتي، فيؤثِّر تأثيرًا سيئًا على جمالي، وأمقُت منظر السهول المنبسطة على امتداد النظر، لا حياة فيها سوى ثوبٍ أخضرَ رقيق، تلبَسُه في ربيع كلِّ عام وتخلعه قبل بداية الصيف، ولا يبقى منه سوى رُقَع موزَّعة هنا وهناك، يكُدُّ أصحابُها طَوالَ العام مثلما كان يفعل أبي؛ ليجنوا

منها قُطنهم وقمحهم وأشياء أخرى لا تعنيني... أكره مجالسَهُم وأحاديثهم التي لا تتناول من شؤون الحياة إلا ما يخصُّهم، وما الذي يخصُّهم؟ ليس إلا الزواج والولادة والحرث والمطر وماء الري و... ما لي وهذه الأشياء؟

أحبُّ المدينة، بل أعشقها، هنا كلُّ شيء جميل، كلُّ شيء جاهز للاستهلاك، بلا عناء يحصُل المرء على كلِّ ما يريد، ما عليه سوى دفع النقود، والنقودُ تأتي غدقًا مع بداية كلِّ شهر، فما جدوى العناء؟ هذا في البيت، فما بالك بالمطاعم والمقاهي؟

قبل قدومي إلى هنا ما قرأتُ مجلَّة ولا جريدة، أما الآن، فقد صار للصُّحف مكان ثابت فوق مكتبي، وفي جدول أعمالي، أقرأ مع الأستاذ محرز الصفحات السياسية، يشرح لي منها ما لا أستطيع فهمَه، ثم نقرأ الصفحات الثقافية، ونتوقَّف مطوَّلاً عند صفحات الأبراج، وما الأبراج؟

هنا كلُّ شيء جميل، كلُّ شيء مدروس بعناية وأناقة، كلُّ شيء يبشِّر بالخير.. وهناك في القرية والحارة ليس سوى فناجين القهوة، تُقلَب لتقرأ بعض النسوة في خطوطها ما لا يتحقَّق أبدًا، وماذا في خُطوطها؟ ما قُرئ فنجاني مرة إلا جاءتني منه بشارةٌ بعريس جديد، وأنا لا أريد عريسًا، أريد مجدًا لا يحقِّقه أيُّ عريس، وهنا في صفحة الأبراج، أجد كلَّ يوم تعليمات

لتحرُّكاتي وعلاقاتي خلال يومي تكاد تعادل في دقَّتها ورقةَ العمل التي تُقدَّم لمكتبي.

في البداية أخبرني الأستاذ أن الأبراج تنقسم إلى نارية وهوائية، ومائية وترابية، وأن هنالك ناظمًا دقيقًا لعلاقات أتباع الأبراج وتحرُّكاتهم تحدِّدها النجوم، سألني عن برجي، وأنا لا أعرف لي برجًا، سألني عن تاريخ ميلادي، وبحساب سريع اكتشف أني من مواليد برج القوس، وهو برجٌ ناري، يتميَّز مواليده بالحركة الدائمة، والعاطفة المتأجِّجة، كما يمتازون بالشجاعة والتفاؤل وعشق الحرية، والحضور اللافت الطاغي. هذه الخصائصُ وجدتها تنطبق على شخصيَّتي إلا قليلاً، سألته عن برجه فقال: الميزان، بحثتُ عن خصائص برجه في المجلات والكتيِّبات التي أحضرها لي، فوجدته ينتمي للأبراج الهوائية، وهذا يعني أنه مثقَّف مفكِّر، ومتحدِّث لبق.

صفات أخرى وجدتها في برجي أو برجه لم ألتفت إليها؛ لأنها تُجانب الحقيقة، شرحت لي كاترين أن مواليد هذا البرج أو ذاك يتشابهون في صفات، ويختلفون في أخرى؛ لأن عددهم كبير جدًّا، ولا يعقل أن تنقسمَ البشرية إلى مجموعات تساوي عددَ الأبراج، ويكون أفرادها متطابقين تمامًا في كلِّ سماتهم وخصائصهم، مقنعٌ دائمًا كلام كاترين، يعني أن صفة السطحيَّة في التفكير، وحب الثرثرة، والسرعة في اتخاذ القرار لا تنطبق

عليَّ، ولكن تعني أشخاصًا آخرين، أراحني تفسيرُها، كما أراحتني توجيهاتها وإرشاداتها من قبل.

انقضت سنتي الأولى في العمل، أشعرُ بأني فراشةٌ ملوَّنة، تصفِّق بجناحيها في الهواء، فتخطَفُ القلوبَ والعقول والأبصار، صرت أفهم دقائقَ عملي، وأتقن التحرُّك في المجالات المفتوحة أمامي، ما عادت علاقاتي المهنية والثقافية مقتصرةً على من يُشاركونني العمل هنا، بل امتدَّت وتمدَّدت؛ لتشملَ شخصيات كبيرةً في المجلس البلديِّ والمحافظة، ما اختلفت معاملتُهم معي عن معاملة زملائي هنا في شيء، الكلُّ يهتمُّ بتفاصيلي الصغيرة، الكلُّ معجبٌ بجمالي وأناقتي، الكلُّ متطوِّع لمرافقتي في مهمَّاتي ومساعدتي في عملي، متطوِّع لتقديم كرسيٍّ لي في المطعم، ولحمل معطفي، والسير ورائي، لإيصالي بسيارته إلى مشارف حارتنا، الكلُّ يجمع على أنه لا يليق بي ركوبُ الحافلات العامَّة، وأنا الملكة التي لا يُنازعها عرشَها أحد، نافذة غرفتي تُطلُّ على مَخفِر الشرطة، أفتحها في أوقات الضجَر، وأراقب عملهم، أذهب إليهم بدافع الفُضول حين أرى حَراكًا يثير اهتمامي، يستقبلني رئيسُهم بصدر رحب، يقدِّم لي القهوةَ بيده، يُطلعني على تفاصيل ما أطلب من القضايا، ويودِّعني إلى الباب الخارجي.

في بداية السنة الثانية طالبتُ الأستاذ محرزًا بإنجاز وعده،

وبدأت التحضيرَ لدراسة الثانوية العامَّة، جاءني بمعلِّمين في جميع الاختصاصات، كلُّهم ينتمون إلى حزبنا، أعدُّوا لي جدولاً تتوزَّع عليه مهمَّاتي العملية ودروسهم، المعلمون كلُّهم انضمُّوا إلى قائمة (أتباعي)، ما كانت علاقتي معهم علاقةَ تلميذة مع أستاذ، بل علاقة فتاة جميلة مع متزلِّف طالب للرِّضا، لكنني كنت جادَّةً في طلب العلم، وما زال في نفسي بقيَّة من الحقد على الآنسة منيرة؛ لذلك لم ألتفت إلى تملُّقهم، بل تابعت التحصيل، وصرتُ أسهر الليلَ مثل أيِّ تلميذ يحضِّر لاختبار الثانوية العامة.

الفصل الثاني

زارني في مكتبي الدكتور فارس، هذا الرجلُ فارسٌ قديم من فرسان السياسة، لكنه الآن استقال من كلِّ شيء، أيامه يُمضيها بين مكتبته ومزرعته، يهتمُّ بكلِّ شجرة فيها، وكل حَفْنة تُراب كأيِّ فلاح عنيد، لا يُغادرها إلا لإلقاء محاضرة هنا أو هناك، داخل حلب وخارجها، الأيام الممطرة يُمضيها في المقاهي، يجلس وحيدًا قربَ النوافذ، يراقب حركةَ الداخلين والخارجين، يُنصت إلى أحاديث مَن حوله؛ ليطَّلعَ على آلامهم وآمالهم، ويتأمَّل الناسَ في الشارع.

مناصبُ كثيرةٌ شغلها هذا الرجل، من التدريس في الجامعة إلى عضوية البرلمان إلى مجلس الوزراء، ومناصب بين هذا وذاك لا أعلمها، لكنه محترمٌ من الجميع، وهو يمتُّ لأسرتنا بصلة بعيدة من القُربى، ولقب دكتور هذا لا أعرف في أيِّ مجال استحقَّه، فهو ليس طبيبًا، وقد درج الناس على منح الطبيب فقط

هذا اللقب.

جاءني بقامته الفارعة المنتصبة، ورأسه المكلَّل بثلج السنين، وقف أمامي يتأمَّلني بصمت، دعوته للجلوس فجلس، طلبت له القهوةَ فجاءت بسرعة، طال الصمت بيننا، وكلٌّ منا يتأمل الآخر دارسًا متفحِّصًا، نظافة ثيابه، أناقتها، نظافة أظافر يديه، لمعة حذائه، كلُّ هذه المحطَّات توقفت عندها، وسألت نفسي: هل هذا الرجلُ ينتمي بحقٍّ إلى قريتنا وعشيرتنا؟! لا أعرف ما الذي كان يدور في خَلَده أثناء صمته، كان يتأمَّلني، كثرٌ هم الرجال الذين وقفوا يتأمَّلونني بعيون جاحظة، لكنَّ عينَي الدكتور فارس كانتا خاليتين من البريق الذي يومض في عينَي رجل يتأمَّل جمالَ امرأة، كان ينظر إلى وجهي كمَن ينظر إلى شارع أو شجرة أو جدار!

شعرت بأني أقف أمام محقِّق بارع، يسبُرُ أغواري ويدفعني للاعتراف بما يريد، وما الذي يريدُه مني هذا الرجل؟ دعوت الله في سرِّي أن يُبعدَ عن باب مكتبي خطوات كلِّ الزملاء والزميلات، لا أريد أن يراني أحدٌ منهم أصارع خجلي أمام هذا الرجل، وأتلعثم بكلامي ناسيةً مكاني ومكانتي، فجأة قطع حبلَ الصمت، وقال: يا ابنتي... هذه الكلمةُ ما سمعتُها من رجل غيره، ولا سمعتها من أبي ذاته، نظرت إليه وقد اغرورقت عيناي بدمع مُنبجس من إحساسٍ لم أُدرك كُنْهَه، قال: أأنت

سعيدةٌ هنا؟ هززتُ رأسي بالإيجاب، وقد سدَّت حَنجَرتي غُصَّةُ البكاء، قال: انتبهي لنفسك، واعلمي أنهم لا يرفعونك هكذا؛ إلا لأنك شابَّة وضيئة، وشيء آخر أكثر أهمية؛ لأنك مطيعة، وحين تفقدين بعضًا من جمالك أو شبابك، أو تتمرَّدين على أوامرهم؛ لتُثبتي موقفك بينهم، سيستغنون عنك، ويرمون بك إلى حيثُ لا تعلمين ولا تتوقَّعين.

اجتاحني شعور بالمهانة، لماذا يتكلَّم هذا الرجل هكذا؟ لمَ يتخيَّل هذا العجوز الفاني أني سوف أفقدُ شبابي أو جمالي؟ أم أنه يرى الناسَ جميعًا بعينيه الكليلتين عجائزَ مثله؟ ويقول: مطيعة؟ كلا، لست مطيعة، فكلُّ من في فرع حزبنا هذا يلقِّبني بالمتمرِّدة، أنا أفعل ما أراه مناسبًا لكلِّ وقت ولكلِّ موقف، حسب قناعتي، أم أنه يتوقَّع أن أشُقَّ عصا الطاعة على من منحوني العلمَ والجاه والمكانة الرفيعة؟

كرهته، جفَّت دمعتي، انقلبت مشاعرُ المحبَّة التي أحسستُ بها عند كلمة (ابنتي) إلى ثورة جارفة، تمنيت لو يموتُ لساعته، لكنني احتفظت بهدوئي، فالرهبة التي تملأ المكانَ حين يُذكَر اسمه في مجالسنا تُلجم عقلي ولساني عن أيِّ رد، ربما يغضب مني الحزب كلُّه، وزَهْوي حين يذكر أنه واحد من أبناء عشيرتنا يمنعُني من التطاول على مقامه السامي بكلمة أو نظرة. قلت له بصوت خفيض لا يكاد يُسمَع: لكلِّ إنسان وجهتُه في الحياة،

اختارها بنفسه وهو مسؤولٌ عن نتائجها. أجاب بأنه يتمنَّى أن يكونَ كلامي صحيحًا، واختياري صحيحًا، مع أنه يجزمُ بعكس ذلك، تمنى أن أفعلَ ما أريد، لا ما يُراد مني، وتمنى ألا أصبحَ دُميةً تتداولها الأيدي، حتى تستهلكَها فترميَها زهدًا بها، كنت أستمع إليه بصمت، أُغالب خلاله الخِزيَ والإهانة، والخوف من أن يصحَّ ما يتوقَّعه، وأُداوي جرحي بإقناع نفسي بأنهم متمسِّكون بي؛ لإخلاصي في عملي، وعاد الصمت؛ ليبنيَ خيمته فيما بيننا من جديد.

انتهى من شرب قهوته، وغادرني ممتعضًا، وحين وصل إلى الباب استدار وقال لي: ضعي كلماتي هذه في رُكنٍ مهمل من ذاكرتك، ستحتاجين إليها يومًا، وستُدركين أنها هي الحقيقة الوحيدة، وكلَّ ما عداها سرابٌ خادع.

ما أشدَّ غرورَ هذا الرجل! ظللت صامتة وأنا أجلس في مكاني، لم أقُم لوداعه، لم أنطِقْ بكلمة، صرَرتُ أقواله، ورميت بها خارج ذاكرتي، لا أريده، ولا أريد نصحَه، سأمارس عملي وحياتي كما يحلو لي، وعدت لكتبي، أدرس باجتهاد، مصمِّمة على نيل شهادة الثانوية مع أندادي في المدرسة بلا تأخير.

مرة أخرى عاد الدكتور فارس لزيارتي، حين أُعلنت نتائج امتحانات الثانوية العامَّة، جاء يهنِّئني بالنجاح، ويشجِّعني على

الاستمرار في طلب العلم، مؤكِّدًا أن العلم هو الرصيدُ الذي لا يفنى، على عكس الشباب والجمال، هما نسمةٌ من نسَمات الربيع، وما أقصرَ الربيعَ في بلادنا!

مرة أخرى يثقُب هذا الرجل فرحتي، وبكلماته ذاتها، راح يعدِّد أمامي الكليَّات الجامعية، ويشرح لي مزاياها، ومزايا الدراسة فيها، ثم أشار إلى أن كليَّة الحقوق هي الأفضل بالنسبة لظروف عملي؛ لأنها تعلِّمني ما ليَ وما عليَّ تجاه نفسي وأهلي ومجتمعي ووطني، وذكر الفلسفة وعلم النفس، ثم التاريخ والجغرافيا. قرَّرت معاندته، ففجَّرت في وجهه عزمي على دراسة الآداب؛ لأني أحبُّ الشعر، وأعشق قصائد الغزل؛ لما فيها من تحليق بالإحساس إلى ما فوق المدى المحسوس.

نظر إليَّ ساخرًا، وسألني إن كنت أعتقد أني سوف أتخرَّج في هذه الكلية شاعرةً أو أديبة، أجبته بكلِّ ثقة: نعم، قال: هذه سخافة، إن العمل الإبداعيَّ هبةٌ من الله، لا تصنعه المدارس، ولا الكليَّات، ذكَّرني بمتعب وخلف ومطيري من أبناء قريتنا، قال إنهم شعراءُ حقيقيون، شعراء بالفطرة، وهم أميُّون لا يعرفون قراءةً ولا كتابة، وإن ما يُنشدونه في سهَراتهم وهم يعزفون على الرَّبابة شعرٌ موزون مقفًّى، غنيٌّ بالصور المدهشة، التي لا يأتي بها أكبرُ الشعراء النظَّامين، صمتُّ لحظة ثم قذف في وجهي سؤالاً: هل تظنِّين أن مدرِّسي كلية الآداب كلَّهم

شعراء؟ أتحدَّاهم أجمعين أن ينظُموا قصيدة واحدة ترقى لمستوى أشعار عمِّك مطيري! سؤال أخير قذفه في وجهي ولم ينتظر جوابه، قال: أتدرين لماذا وضعوا مقرَّ جمعيَّتك هذا هنا في سوق النحَّاسين؟ إن كنت لا تدرين، فاسألي جدَّك وجدَّتك، وكلَّ عجائز القرية عن حدث يحسَبُه صاحبه ذا رنين خارق، ويضيع في جَلَبة سوق النحَّاسين، هكذا هو حزبُك في المشهد السياسيِّ للبلد!

لا أريد نصيحةً من هذا الرجل، فالرِّفاق والرفيقات ينتظرونني؛ لنذهبَ معًا إلى مطعم فاخر نحتفل فيه بنجاحي، فُرشت المائدة بأطيب الطعام والمقبِّلات، وتبارى النُّدُل في خدمتنا وتلبية مطالبنا، ثم أحضروا قالبَ الحلوى الكبير، مع سيِّف لامع، توقَّف الجميع كاتمين أنفاسهم ينتظرون تقطيعه، لكن الأستاذ محرزًا رفض إعطاء إشارة البدء قبل أن يرقُصَ الجميع احتفالاً بنجاحي الباهر.

دخلت كليَّة الآداب، اخترتها، بل اختاروها لي؛ لأنها لا تحتاج إلى كثير من المداومة في قاعات المحاضرات، هكذا قالوا، وامتثلت، مشيت كما أمشي دائمًا وراء اجتهاداتهم بلا سؤال، كانت الدراسة والشهادة الجامعيَّة بالنسبة لي نوعًا من التَّرَف، لا أكثر، فالناس يدرُسون ويتخرَّجون، ثم يبحثون عن عمل وظيفي، وأنا جاءتني الوظيفةُ تبحث عنِّي، وحين وجدتني

أحنت لي كرسيَّها؛ لأمتطيَه بلا منافس.

كرسيُّ الوظيفة ذاك ما كان وثيرًا لينًا كما ظننت، بل كان مزروعًا بأشواك ناعمة، أتحاشاها حينًا، وأحتمل وخزَها أحيانًا، الأشواك المسمومة تخترق جلدي، تسري سمومُها في أعصابي، تسهر في بعض الليالي على وسادتي، تؤرِّقني بألمها، لكني أتناساها وأتابع العمل، أروح وأغدو إلى مكتبي كأيِّ موظَّف، في موعد لا أتخطَّاه إلا نادرًا. يدعوني الرِّفاق إلى سهرة، أو وليمة غداء في إحدى المزارع البعيدة فأعتذر، بأدب مرَّة، وبكذب مرَّات، كلمات الدكتور فارس تخيفني، أحاول نسيانها فتُلحُّ على ذاكرتي، يعيِّرونني بأني ما زلت فلاحة، تلتزم بالنوم مع الدَّجاج، أُخبرهم بأني مشغولةٌ بالدرس، يعقِّب البعض مازحًا ساخرًا بأني لم أتمدَّن إلا بثيابي، وهذه تنقصها الأناقة، فما يزال ذوق الفلاحين هو الغالبَ على اختياري وطباعي، يترحَّمون على السيِّدة سميحة، وعلى أيام سميحة، يتحسَّرون على سوزان التي تخرَّجت في جامعتها، والتحقت بالمدرسة التي تُديرها الآنسة منيرة؛ لتعملَ معلِّمة هناك، وما عادت تزورُنا إلا حين تفتقد غداءً في مطعم، أو ظهورًا في وسائل الإعلام.

أُجاملهم، أستمع لنصائحهم، وأسهر ليلتي مؤرَّقة، أصارع هواجسي، ما مقاييسُ التمدُّن والتحرُّر؟ أبحث عن صورة

تُرضيني، مَن المرأة المتحرِّرة في نظرهم؟ من أين لي بامرأة مجرِّبة تُجيب عن أسئلتي؟ أبحث حولي، أبحث في نفسي، التحرُّر؟ كلمة جميلة برَّاقة تُغري بالمجازفة، وأسأل نفسي من جديد: ممَّ أتحرَّر؟ هل أنا مقيَّدة؟ هل أنا أسيرة؟ لا... لست مقيَّدةً ولا أسيرة، ممَّ أتحرَّر إذًا؟ لا أدري، لا بدَّ من التقصِّي بدقَّة أكثر، صار لديَّ فضول استولى على كلِّ طاقاتي الفكرية، مَن سميحة؟ أريد أن أتعرَّفها، سألتهم بإلحاح، لم أحصل منهم على جواب، قلت لهم: سأزورها في بيتها، تبادلوا نظرات تحمل ألفَ معنى، وكلُّها غامضة تُثير الريبة، لكني عنيدة، لا بدَّ لي من البحث عن السيدة سميحة.

كاترين تقول إن المرأة المتحرِّرة هي التي تُمارس كلَّ ما يمنحها السعادة، لا تخضع في ذلك لسُلطة رجل، أو لقانون مجتمع، أيَّ رجل وأيَّ مجتمع تقصد كاترين؟ ليس هنالك من رجل أو مجتمع يُحاسبني أو يقيِّد تحرُّكاتي، ومع ذلك أشعر بألف لعنة تنسكب على رأسي حين أشارك الرِّفاق والرفيقات احتفالات حزبنا بالمناسبات الوطنية؛ إذ يتخاطف بعضهم الطعامَ وزجاجات المياه الغازية من أيدي بعض، حتى ليظُنُّ من يرى المشهدَ أنهم قادمون من مجاعة، أقف على هامش احتفالهم مكتفيةً بكأس شاي، على حين (تلهف) سهامُ كلَّ ما أمامها لا توفِّر شيئًا، دقائق قصيرة تمضي على بداية الحفل، أنظر فلا أرى

على المائدة حتى الفُتات، تمسح الأطباق كلَّها، ويحتجُّ الجميع بأنهم لم يشبعوا، وتقرع جُمجُمَتي وصايا جدَّتي: النفس الدنيئة تسحق كرامةَ راعيها وتخفض شأنه بين الناس، ما كانت نفسي دنيئةً في يوم من الأيام، لكنَّ حضوري معهم في دناءتهم يجلد ضميري، هل الدناءة هي التحرُّر؟

أوسِّعُ دائرة البحث، أنظر إلى النساء من حولي، جاراتُ أمي ربَّاتُ بيوت مثلها، يُنجزنَ أعمال بيوتهن، ويجتمعنَ للثرثرة، بناتهنَّ يتعلَّمنَ في المدارس والجامعات، يتخرَّجن ثم يتزوَّجن، ثم يُمضينَ أيامهنَّ ركضًا بين بيوتهنَّ وعملهنَّ الوظيفي، كلا النموذجين لا يُعجب رجال حزبنا، ولا يُعجبني! ما زالت أمي تمتدحُني وتتباهى بي أمامهن، لكنَّ كلامها ما عاد يُطربني، ولا يَروق لي، أمي وجاراتُها لا يفهَمنَ معنى التحرُّر الذي أبحث عنه، ثقافتُهنَّ الضئيلة الضَّحلة لا مكانَ فيها لمثل هذه الكلمات الكبيرة. أبحثُ أكثر، الآنسة منيرة مديرة المدرسة عانس، تُمضي وقتها في اجترار آلامها، تسكُب ثورتها عنفًا على تلميذاتها، لكنها رصينةٌ في سلوكها، تفرض احترامها على كلِّ من يقف أمامها، رجالُ حزبنا لا يعدُّونها متحرِّرة، سوزان تنقل إلينا أخبارها في كلِّ مرة تزورنا، وأواصل البحث...

سألت الرِّفاق عن زوجاتهم، وعن بناتهم وأخواتهم، فالجميعُ هنا متزوِّجون، هل يعدُّونهنَّ نساءً متحرِّرات؟ وإن كنَّ

كذلك، لماذا لا يأتون بهنَّ إلى هنا؛ ليُشاركننا نشاطاتنا، ونتَّخذهنَّ قدوةً لنا في التحرُّر؟ يشير الأستاذ محرز: هذا خطٌّ أحمر، لا أسمحُ لواحدة منكنَّ بالاقتراب منه، ويلتفت إليَّ محذِّرًا: إياكِ أن تفتحي هذا الموضوعَ مرَّة أخرى.

مرَّت سنوات، ما كنت أنجحُ في صفوف الجامعة كلَّ عام، بل أنجح عامًا، وأرسب آخر؛ لأني لا أجد الحافزَ الكافيَ لدفعي إلى الدرس، كلُّ ما أملكه مقدارٌ ضئيل من التحدِّي لشخص الآنسة منيرة، مديرة المدرسة الثانوية، وللدكتور فارس.

عملي اليوميُّ، وعنايتي بأناقتي وزينتي، واستقبالي لوفود تأتيني من الأماكن التي أزورها، وجولاتي التي لا تتوقَّف على القرى والأرياف والمحافظات الأخرى، كلُّ هذا يمتصُّ وقتي وجهدي، ويجعلني أُمسك بالكتاب زاهدةً فيه وفيما فيه، أدخلُ قاعات الجامعة وأروقتها بأنف شامخ مرفوع، أنظر إلى الشبَّان والشابَّات من حولي، فأراهم أفراخًا زُغبًا لا يرقَون لمستوى التحدُّث إليَّ أو مجالستي، أدخل غريبةً وأخرج على عجَل، أشعر بأن هذا المكانَ صغير لا يليق بعظمتي.

جاءت سوزان، الفرحُ يزغرد في عينيها وفي نبرة صوتها، مدَّت كفَّيها أمامي كتلميذ يعرض أظافره أمام معلِّمته للتفتيش، سألتُها بإشارة من رأسي، قالت: انظُري، نظرت، الذهب يلمع في أصابعها ومعصميها، مرَّة أخرى سألتها: ماذا يعني هذا؟

قالت بكلمات متقطِّعة، تتلمَّظ كلَّ حرف فيها: باركي وهنِّئي، لقد خُطبت.

- خُطبت؟ من خطبك؟

- أستاذ زميل في المدرسة.

- وأنت سعيدة من أجل هذا؟

- أكاد أطيرُ من السعادة.

- أين مبادئك؟ أين نظريَّاتك؟ أما كنت تقولين إنك ترفُضين الزواجَ وأعمال البيوت؟

- وهل تعتقدين بأنني بلهاء؟ نعم، كنت أقول، فإن من لا ينالُ العنب يقول إنه حامِض، والآن جاءتني الفرصةُ المناسبة، هل أتركها تضيع؟ هل أضيِّعها لأبقى عانسًا؟ أيُّ خير في فتاة عانس؟

وضعت سوزان على مكتبي صُرَّة من (السكاكر) و(الملبَّس) من بقايا حفل خِطبتها، ثم تركتني غارقةً في ذهولي ودهشتي؛ لتوزِّعَ مثل هذه الصرَّة على بقية الزملاء والزميلات. استدعيتُ كاترين، طلبت منها إحضارَ سوزان إلى مكتبي، جاءتني مستعجلة، فخطيبُها ينتظرها مع بعض نساء أسرته؛ ليصحبَها في جولة على السوق، تختارُ فيها الأثاثَ الذي تريده لبيتها.

- سوزان، لماذا تركتِ الحزب، واشتغلتِ في التعليم؟

- باختصار؛ لأني ما كنت أومن بشيء مما أفعله هنا، بل كنت أُمضي وقتي في مرَح وسرور، وأقبض مرتبًا أنفق منه على نفسي.

- والآن؟

- الآن أنا معلِّمة مثبَّتة، لا أخشى أن يأتيَ يوم يستغنون فيه عن خِدْماتي، ويرمون بي خارج هذا المكان.

- لماذا اخترتِ مهنة التعليم؟

- لأنني أحبُّها، ولأن المدارس تعطِّل ثلاثة أشهر في صيف كلِّ عام، أتفرَّغ فيها لبيتي وأولادي.

كنت جالسةً في الصباح إلى مكتبي، تذكَّرت سوزان، وتساءلت: أهي عاقلة أم مجنونة؟ تترك هذا المكانَ بكلِّ إغراءاته، وتعمل في التعليم، وتفرح؛ لأنها سوف تحصل على ثلاثة أشهر تتفرَّغ فيها للبيت والأولاد؟ تناولت أولَ صحيفة، قرأت صفحةَ الأبراج كدأبي كلَّ يوم، تناولت صحيفةً ثانية، وثالثة، رحت أقارن بين معطيات بُرجي في كلٍّ منها، وضِعتُ مثل كل يوم بين تناقُضاتها، فجأةً دخل الأستاذ محرز، كان وجهُه طافحًا بالبِشْر، وأناقته تفوق المعتاد. انتقلت إليَّ بالعدوى حالةُ السرور التي تتلبَّسه، أبديت إعجابي بثيابه الجديدة، وعطره الجديد، قال: جئتُك لتكوني أولَ المهنِّئين، بتلقائية لا أعيها هنَّأته، وشاركته فرحته، ثم سألتُه عن الحدث السعيد الذي

يستحقُّ لأجله التهنئة.

حقًّا، إنه حدثٌ سعيد بالنسبة له، وصفعةٌ مؤلمة على كامل وجهي، الأستاذ محرز سيترك حلبَ، وينتقل إلى قيادة الحزب في دمشق، وقال لي مواسيًا حين رأى حزني: إن الفرصة ما تزال أمامي لنُقلة مثل نُقلته، لكنَّها تحتاج إلى شهادة جامعيَّة لا أملكها.

أحصيتُ أيامي، ثماني سنوات مرَّت منذ حصولي على الشهادة الثانوية، وما زلتُ في السنة الثالثة من سنوات الدراسة في كلية الآداب، أمامي سنتان من الدراسة الجادَّة للتخرُّج، أنا الآن طالبةٌ كسول، سبقني في التخرُّج من دخلوا الجامعة بعدي بسنوات، وأنا هنا غافلة، القيادة في دمشقَ تحتاج إلى شهادة جامعيَّة لا أملكها، واعترتني حالةٌ من الإحباط.

ما كنت أُدرك قبل الآن مكانةَ الأستاذ محرز في حياتي، ولا مكانة سوزان، اكتشفت بعد رحيله أنه كان قائدي وموجِّهي، وكان مخطِّطَ أعمالي، ومديرَ نشاطاتي.. في غيابه ضعت، لا أحدَ يضع لي برنامجَ العمل، ولا أعرف كيف أضعُه وأرتِّبه وحدي، ما عاد الرِّفاق يتسابقون لاصطحابي في سيَّاراتهم إلى مواقع مهمَّاتي، فالمهمَّاتُ كانت تأتي بتكليف من الأستاذ محرز.

اغتنمت فرصة قلَّة العمل والمهمَّات الملقاة على عاتقي،

وانشغلت بالدرس حتى تخرَّجت.

سهام لا تكترثُ لغياب أحد ولا لحضوره، علَّقت ساخرةً على خِطبة سوزان: دعيها تذوق الهناء الذي ذُقناه، ثم تُلاقي ما لاقيناه، وامتعضت فدوى، فقالت: ما الذي رآه في سوزان هذا الرجلُ ذو القلب الأعمى؛ ليقعَ مكبًّا على وجهه؟ أيُّ شيء في سوزان يُغري بالزواج منها؟ صدق من قال: إن الرجال جميعًا عُمي لا يفقهون.

بعد سفر الأستاذ محرز حلَّ محلَّه بديع، بديع رجلٌ خمسينيٌّ قصير، ذو نظَّارة سميكة العدسات، يمشي فيسبقه كرشُه بمسافة تقارب نصف متر، يجلس فيرتمي كرشه في حِضْنه كطفل مدلَّل، وهو يلهث، دائمًا يلهث، (سيجارته) لا تنطفئ إلا ريثما يُشعل غيرها، لا يعمل شيئًا، ولا يحبُّ العمل، كلُّ ما يُتقنه هو الأكل والحديث عن أنواع الطعام.

ما كان الأستاذ محرز معلِّمي وحدي، بل كان القلبَ النابض في ذلك المكتب، والوَقودَ الذي تدور به كلُّ محرِّكات العمل والنشاط. في غيابه همد كلُّ شيء، صار المكتب دائرةً مملَّة كدوائر الدولة، إلا أنه يفتقد المراجعين، تنضح جُدرانه مللاً، وتفيض أبوابه كآبةً ونعاسًا، الكسلُ هو القاسم المشترك بين الجميع، معظمُنا يغادر مكانه قبل نهاية الدَّوام الرسمي، وينصرف لأعماله واهتماماته الشخصية، إلا إذا كان لديه ضيوفٌ

يستقبلهم هنا، مُستغنيًا بالمكان عن استقبالات البيوت والمقاهي، وتظلُّ كاترين قويةً منيعة على العدوى، لا ينتقل إليها المللُ ولا النُّعاس، تنتظر كلَّ يوم مع سهام في المكتب حتى تكونا آخرَ الخارجين، تُقفل الأبواب بيدها، وتدُسُّ المفاتيح في حقيبتها، كاترين هي العمودُ الأساسيُّ في ذلك البناء، وهي الحارسُ الأمين على كلِّ همسة ونأمة تحصُل بين تلك الجدران.

حزبنا سيحتفل بذكرى تأسيسه، لكنهم آثروا هذا العامَ أن يقتصرَ الحفل على العناصر القيادية، وأن يكونَ حفلاً راقيًا، لا حفلاً جماهيريًّا كما في الأعوام السابقة، اقترح الأستاذُ بديع أن يكونَ الحفل في أحد الفنادق الكبرى، مرشِّحًا فندق (بارون). وافق الجميع على اقتراحه وتوجَّست خيفةً؛ إذ لا عهدَ لي بارتياد أماكنَ كهذا، ولا يحقُّ لي الغياب بأيِّ عُذر، فأنا أحد أهمِّ عناصر القيادة، بل أنا وحدي رئيسةُ كلِّ النشاطات النسائية في الحزب.

طلبت مني كاترين الذهاب إلى بيتي لإعداد نفسي، وماذا أُعدُّ؟ ها أنا ذي أرتدي أجملَ ثيابي، وألوِّن وجهي بكلِّ ما لديَّ من ألوان، شعري مسرَّح وفق آخر صرعات (الموضة)، سنسهر هذه الليلة في فندق (بارون)، لمَ لا أذهب إلى هناك لاستكشاف المكان؟ قالت كاترين: لا بدَّ من ثوب مناسب للسَّهرة. وهل تختلفُ ثياب السهرة عن ثياب النهار؟ صرخت في وجهي: أنت

فلاحة، ولن تخرُجي من جلدك أبدًا.

ساءني كلامها، بل أثار عنادي، لن أعيشَ بعد اليوم رهنًا لمشيئتها، من تكون هذه العجوز؛ لتتحكَّمَ في جميع شؤوني الشخصية؟ سأوقفُها عند حدِّها، وأُفهمها أني لم أعد في حاجة إلى وصايتها، سأفعل ما يُناسب ذوقي وقناعاتي، نحن نحتفل بمناسبة وطنيَّة عظيمة، ما علاقة ذلك بثيابي؟ سأحضُر الحفل، سأقف في الشُّرفة التاريخية لفندق (بارون)، وأطلُّ منها على الجماهير المحتشدة في الشارع، مثلما وقف هناك الملك فيصل، وجمال باشا، وكما وقف مصطفى كمال أتاتورك، وجمال عبدالناصر، كلُّ الرجال الذين كان لهم دورٌ بارز في تغيير وجه التاريخ، سوف أقفُ هناك حيث وقفوا، وأُلقي خطابًا أُثبت فيه لكاترين وللجميع أني فتاةٌ مثقَّفة، متحضِّرة، عاقلة، سأحتفل بتأسيس حزبي بشخصيتي لا بثيابي.

بعد مُشاورات امتدَّت على طول ساعات النهار، جرى الاتفاقُ مرَّة أخرى على تغيير مكان الاحتفال؛ لأنهم يريدون لحفلتهم البعدَ عن الرسميَّات والتهذيب الذي يسود جوَّ العمل، شعرت بأسف عظيم على حرماني من الوقوف على شُرفة فندق (بارون)؛ حيث وقف العظماء، ودخلتُ المطعم الذي اختاروه، شيء من الرَّهبة اعتراني، راحت مفاصلي ترتجف وأنا أبحث بعينيَّ داخل الرَّدْهَة المزدحمة عن أعضاء حزبي، كانوا يجلسون

في زاوية حول طاولة واسعة، بل هي مجموعةُ طاولات رُصَّ بعضُها بجانب بعض لتشكِّلَ مائدة تليق بهذا الحفل. كانت فدوى تلبَسُ ثوبًا أصفر، يُظهر سُمرةَ جسدها بشكل فاقع، يكشف عن ساقَيها وذراعَيها ونحرها، وينحسر باستدارة واسعة عند لوحَي كتفيها، وكانت كاترين تلبَسُ ثوبًا مشابهًا، لكنه أسود، ولا تقلُّ ثياب سهام عريًا عن ثوبيهما، لكنها تجلس إلى المائدة مطرقة، تتعاون عيناها مع يديها في حشو فمها بأصناف (المقبِّلات) التي توزَّعت على المائدة، أما سوزان المشغولة دائمًا بخطيبها وتجهيز بيتها الجديد فلم تحضُر، ولم تعتذر.

سرَّني حضور الأستاذ محرز في الواجهة، حين وصلت هبَّ الجميع وقوفًا لاستقبالي، وسارعت إليه بشعور طفل وجد أمَّه بعدما أضاعها في الزِّحام، كانوا كلُّهم قد خلعوا قناعَ الكِياسَة الذي أعرفه، وكشفوا عن وجوهٍ لا أعرفها، وجوه قد غُسلت من الحياء؛ لتنسجمَ مع هذا الجوِّ الصاخب الراقص! كانت النساء اللاتي انضممن إلى حفلتنا، وقد جئنَ من أماكنَ لا أعرفها يرتدين أثوابًا تشبه ما أراه في المجلات والتلفاز، تكشف من أجسادهنَّ أكثرَ مما تغطِّي، وبدوتُ بينهنَّ كما قالت كاترين: فلاحة.

استنكر الجميعُ هذا القالب الجامد الذي حضرتُ به، وقالوا إنهم اختاروا الاحتفالَ هنا للخروج من أجواء العمل ورتابتها،

وليفرحوا ويسهروا، انتحى بي الأستاذ محرز، وقال هامسًا: لِمَ لم تلبَسي ثيابًا تليقُ بالسهرة؟ وحين واجهته بالصمت أردف: إن كنت لا تملكين ثوبًا للسهرة، تعالَي معي الآن لأشتريَ لك ثوبًا جديدًا، اعتبريه هديةً مني بهذه المناسبة، السوق قريب، وسيَّارتي جاهزة، لن يستغرقَ شراء كلِّ ما تحتاجين إليه أكثر من نصف ساعة، لكني رفضت، انضمَّ الجميع إليه مؤيِّدين موافقين، وأسمعوني كثيرًا من الكلام المهين، وتنبَّهت.

الزجاجات تصطفُّ على المائدة، الكؤوس تُقرَع احتفالاً وابتهاجًا بهذه السهرة، قفز رأسي من بين كتفيَّ، وتدحرج في عتبة (مَضْيَفَة) عمِّي مطيري، رأيت كلَّ الوجوه هناك، وجوه رجال عشيرتنا تنظر إليَّ بغضب، بل تبصُق عليَّ، وتقدَّم عمِّي مطيري؛ ليركُلَ رأسي بقدمه؛ ليُدحرجَه بين الأحذية، صارخًا بأعلى صوته: ابنتُنا في المدينة تجلسُ على مائدة المنكر؟! ألا تفرِّقين بين الحلال والحرام أيتها الفاجرة؟!

فاجرة؟!

نعم، هذا مكانٌ للفجور، لا للعمل الذي أبايع النساء والرجال بتقديسه، هذا مكانٌ لا يليق بفتاة مثلي ارتيادُه، هذه الجلسة سوف تحمِّلني من الإثم ما ينوء به شعوري لسنوات طويلة، أهذه أنا؟ أهذا هو التحرُّر الذي أسعى إليه؟ وتُشير كاترين: التحرُّر هو أن تفعلَ المرأة كلَّ ما تريد، وهل هذا ما

أريد؟ هل أريد أن أكونَ سُبَّة في جبين قريتي وعشيرتي؟ لا . . . صوتٌ في عقلي وفي ضميري يصرُخ في وجهي: لا . . . لا، لكني جلست.

ما مددت يدي إلى طعام ولا شراب، شعرتُ بالغثيان، فهربت بعينيَّ من حصارهم؛ لأتأمَّلَ ما حولي، رجال كُثْر خارج مائدتنا، ونساء أكثر، الكلُّ في شُغل عمَّا حوله، وعلى البعد حَلْبَة للرقص، أضواء ساطعة ملوَّنة، تُومض وتنطفئ؛ لتومضَ من جديد، مُتناغمةً مع الموسيقا الصاخبة تناغمًا يقتل الروح، يدخُلها من تعجبه الموسيقا، يرقص حتى يدورَ رأسه ثم يعود لموقعه، البذخُ قاسم مشترك بين الجميع، وأنا وحدي أبدو بينهم غريبةَ الشكل والمضمون، أسأل نفسي لماذا جئت؟ كانت احتفالاتنا في السنوات الماضية تقتصر على بعض الخطابات الحماسيَّة، وتصفيق كثير، يتلو ذلك مائدةٌ متواضعة، تقدَّم عليها بعضُ أنواع الحلوى والمعجَّنات، إضافة إلى الشاي والقهوة والمشروبات الغازية.

تصفيق حادٌّ انبعث من مائدتنا قطع عليَّ تداعياتي، كلُّ من حولي قاموا دُفعةً واحدة، يشيرون إلى الباب الرئيسي: جاءت سميحة، تصايحوا مرحِّبين مهلِّلين، نظرت إلى حيثُ يشيرون، رأيت امرأةً بثوب أحمر، مكشوفة النَّحر والذِّراعين، مكشوفة الساقين، شعرُها الأصفر مكوَّم فوق رأسها مثبَّت بدبابيسَ

ذهبية، تتخلَّلها خرَزات من الألماس الرخيص البرَّاق، وفق (موضة) انقرضت قبل ثلاثة عقود، وما عُدنا نراها إلا في الأفلام ذات اللونين الأبيض والأسود، كانت تسمَّى بالسدِّ العالي، كانت تبحث بعينيها كما بحثت، وحين اهتدت إلى مكاننا جاءتنا رقصًا، ظلَّت ترقص من الباب الخارجيِّ حتى وصلت مائدتنا، استقبلها الرِّفاق في منتصف الطريق، ذهبوا رقصًا وعادوا بها رقصًا، دنت من الطاولة، تناولت أولَ كأس، سكبت من أول زجاجة حتى ملأته، رفعته عاليًا، ثم راحت تعبُّ منه عبَّ النزيف، أفرغته في لحظة أمام دهشتي.

هذه العجوز أعرفها جيدًا، أراها كما يراها سائر الناس، تمشي هائمةً على وجهها تنتحبُ بصوت مرتفع، بين ساعة باب الفَرَج والحارات المحيطة بها، تدور حول (الدوَّار)، وتصعد إلى شارع (بارون)، ومنه إلى ساحة الجابري، تتوقَّف قليلاً أمام بائعي (اليانصيب)، ثم بسطات الكتب في الساحة، وتنعطف لتذهبَ إلى الحديقة العامَّة؛ حيثُ تمضي بقيَّة نهارها، بثيابٍ قديمةٍ بالية مثل هذا الثوب، لكنها شديدةُ الاتِّساخ، بشعرها المرفوع هذا، بألوانها وأصباغها التي أراها الآن تغطِّي كلَّ وجهها، كنت أعتقد أنها مجنونة، لكنِّي أراها الآن سيِّدةَ احتفالنا، شربت كأسها، وأشارت إليهم هيًّا.

تماسكت الأيدي، وعقدت حَلْقَة الرقص حول المائدة،

راحت العجوز تغنِّي وتصرخ بجنون وأنا أتلفَّتُ حولي، أُصارع أمواجًا من التيَّارات الكهربائية تضرب فروةَ رأسي، وتسيل على رقبتي وعمودي الفقري، أهذه أنا؟ دنا مني الأستاذ بديع، أمسك يدي يشدُّني إلى حَلْبَة الرقص، جمدت في مكاني للحظة، ثم دنوتُ منه؛ لأسألَهُ بصوت صارخ وسْطَ هذه الضجَّة عن المرأة التي يحتفلون بها، صرخ بصوت أعلى، جعل مَن حولنا يتلفَّتون إلينا بدهشة: هذه السيدة سميحة، ومن في حلبَ كلِّها يجهل السيِّدةَ سميحة؟

أهذه هي السيدة سميحة؟ أهذه هي السيدة التي يعدُّونها مثالاً وقدوةً لي ولأمثالي؟ غادرتُ المكان ولم أستأذن أحدًا، سلكت بين الزِّحام متَّجهةً إلى الباب الخارجي، سمعتُ أحدَهم يهتف: بصحَّة الفلاحة، ردَّد الجميع خلفه: بصحَّة الفلاحة، ثم ارتفعت القهقهات، تغافلتُ عنها، ونزلت إلى الشارع، آلافُ السِّياط تجلد روحي، فأُقسم مرَّة تلو مرَّة بألا أعودَ إلى مثل هذا المكان وهذا الحفل ما حييت، مشَيتُ في الشارع، شعرت بأن رأسي قد انفلتَ مني وراح يركض مبتعدًا، وأنا أمشي خلفه على الأرصفة المظلمة، جسدٌ بلا رأس، أعمدة النور تهزأ بي، مصابيح الشارع تزدَريني، ظلِّي يتطاول ويقصُر، يسبقني ويحاذيني، ثم يلحَقُ بي؛ ليصرخَ: أين كنت؟ نوافذ البيوت المضيئة من حولي تنظر إليَّ باحتقار، تهمس: أين كنت؟ دموعي

التي تسيلُ على وَجنَتيَّ، تمزُج الكُحلَ مع مساحيق الزِّينة، تشوِّه وجهي، تُحيلُني إلى شبيهة بمجنونة باب الفَرَج؛ لتسألَني: إلى أين تمضين؟ وأستغفر الله.

«ناجي الشلا» درويشُ قريتنا اقتحم ذاكرتي، بلحيته الشَّعثاء، بثيابه الكالحة الممزَّقة، وحصانه الذي يصنعُه من قصبةٍ طويلةٍ جَوفاء، وطبله المعلَّق في عنقه اصطنعه من علبة صفيح فارغة، وقف في دربي، سدَّ عليَّ أفق الرؤية، دنا بوجهه إلى وجهي ثم دنا، ثم استدار ومضى مبتعدًا وهو يقرع الطبلَ ويشتمُني بأعلى صوته، هذا الدرويش مرَّ يومًا برجال يسكرون في مزرعة بعيدة، دعَوه لمشاركتهم، ألحُّوا في دعوتهم، فوقف بينهم وقفةَ المفكِّر العارف، قال لهم: أنتم تشربون لتصيروا مثلي، وأنا إن شربت مثلَ من أصير؟

ناجي هذا أعقلُ مني، عاف مجلس السُّكارى، وقدَّم لهم من الحجَّة ما جعلهم يتوبون على يديه، وأنا أجيء بكلِّ رُعونتي وغبائي؛ لأجلسَ مجلسًا عافه ناجي؟!

الفصل الثالث

صحوتُ هذا اليوم من نومي باكرًا، كنت طَوالَ الليل قلقةً أستعجل الصباح، سيأتي وفدٌ من قيادة الحزب لزيارتنا، لا بدَّ من الاستعداد لاستقباله بما يليق، بالطبع سيُرافق الوفدَ صحفيُّون من مُختَلِف المجلات، مع آلات تصويرهم، وسيحضر معهم مندوبون عن الإذاعة والتلفزة، سأكون أنا كالعادة أهمَّ من تُعرَض صورته وأحاديثه، سيسألونني باقتضاب عن موضوعات تتكرَّر في كلِّ مقابلة، وأجيبهم بإسهاب، عن وضع المرأة في مجتمعنا بعدما آمنت بالتحرُّر، سأوزِّع ابتساماتي بسَخاء على كلِّ العدسات؛ لتظهرَ صوري جميلةً أنيقة كما أشتهي، سأتحدَّث وأُكثر من الحديث، صرت الآن ممثِّلةً قديرة، وهذا الدَّور أُتقنه جيدًا، وكلُّ ما ينبغي عليَّ قوله حفظته عن ظهر قلب؛ لكثرة ما ردَّدته في مجالسي، ماذا يبقى؟

سأمرُّ قبل ذهابي إلى العمل بمحلِّ التجميل؛ ليعتنوا بتسريحة

شعري، وزينة وجهي، ثم أكون جاهزة، غسلت وجهي جيدًا، لكنَّ ألمًا صغيرًا حادًّا فاجأني وأنا أمرِّر يدي على أنفي، نظرت في المرآة أستكشف، رأيت حبَّةً من حبَّات الشباب بحجم حبَّة القمح، تنبُت على أرنبة أنفي، حمراء لامعة، تحيط بها هالةٌ محتقنة تشمل معظم أنفي، تعكَّرَ مزاجي، أهذا وقتها؟ لعنت الشبابَ وحبَّ الشباب، ثم أكملت ما بدأت به.

دخل بديع غرفتي اليوم ضاحكًا مُستبشرًا، طلبت له القهوة، وقمت بنفسي فقدَّمت له (السكاكر) و(الشوكولاته)، جلس على الكرسيِّ المجاور لباب الغرفة، ثم انتقل إلى الكرسيِّ المحاذي لمقعدي، راح يتأمَّلُني صامتًا؛ مما أثار غيظي، ظننتُه جاء ليُبارِكَ تخرُّجي في الجامعة، لكنه أكل الحلوى وسخر مني!

تشاغلت عنه بتصفُّح جريدة كانت أمامي، ضحك ضحكته الباردة، وهي في العادة مقدِّمةٌ لكلام يعرف أنه لن يلاقيَ قبولاً عند سامعه، سألني وهو يضحك: هل تعلمين يا آنسة ماذا أرى؟ رفعتُ رأسي ونظرت باستعلاء، خمَّنت ما سيقوله، سيقول: أرى شمسًا مؤطَّرة بالظلام، أو أرى نهارًا يجاور الليل، عبارة من عبارات الغزل السَّمجة التي لا يملُّ من تكرارها، وما زلت أسمعُها منه ومن سواه حتى أصابني الملل.

كان يحدِّق بي تحديقًا غريبًا، قال: ألم تحزِري ما رأيت؟ هززتُ رأسي بالنفي، قال أرى في غُرَّتك شعرةً بيضاء، قهقه

مجدَّدًا ثم أضاف: بل شعرتين، قام عن كرسيِّه يتابع ضحكته، ومشى يدفع كرشه أمامه حتى وصل إلى الباب، أمسكه بيده واستدار إليَّ، ثم سألني: لماذا لم تتزوَّجي حتى الآن، مع أنك تملكين مَسحةً من اللبَن - يقصد بياضَ لوني - وتقبضين مرتَّبًا لا بأس به؟ هل كان الرجال عُميًا عنك؟ إذا كان شكلك المتواضع لا يلفت انتباههم، أفلا يطمعون في مرتَّبك، أم أنهم جميعًا يعلمون أنك لست موظَّفة مثبَّتة؟ أنهى كلامه وما انتهت ضحكاته الماجنة، خرج وتركني كمَن نزلت فوق دماغه صاعقة.

مَسحَة من اللبَن؟ أهذا كلُّ ما رآه هذا الأعمى؟ بعد كلِّ الجهود التي أبذلها يوميًّا للاعتناء بجسدي وجمالي من قمَّة رأسي حتى أظافر قدميَّ، بعد كلِّ الأموال التي أُنفقها في سبيل ذلك، لا يرى إلا مَسحَة من اللبن؟ ويقولها ساخرًا هازئًا؟! أقسم لأنتقمنَّ منه، سأحرقه لو استطعت، سأستعين بكلِّ من عرفتُهم على مدى سنواتي ليطردوه من الحزب، سأفعل أيَّ شيء؛ للانتقام منه حتى لو اضطررتُ للاستعانة بالدكتور فارس.

وغرقت في الخِزي، تمثَّلَ لي الدكتور فارس ضاحكًا كضحكة بديع، شامتًا بي وبخيبتي، طَوالَ هذه السنوات كنت أتهرَّب من لقائه، أتهرَّب من كلِّ حديث يتناوله، الكلُّ هنا في مكتب الحزب، وفي مكاتب الحزب الأخرى التي زُرتها يذكرونه ببالغ الاحترام والتقدير، وأنا وحدي أشعرُ بحقد عليه، لا أجرؤ

على الإفصاح عنه أمام أحد؛ لذلك أقطع أيَّ حديث يتناوله، أستبدلُ به موضوعًا في السياسة أو الاقتصاد أو الاستعمار، كلُّ الكلام يرضيني إلا ما كان في سيرته.

هل تَصدُق الآن نبوءته؟ دخل القلق نفسي، وشلَّ قُواي، بعد محاولاتي المستميتة لنسيان نصائحه، أراها الآن تصفعُني، تستعيد ذاكرتي كلَّ كلمة قالها، بل تستعيد نظرةَ الأسف في عينيه، حين أجبته عن توجيهاته مستعرضةً أمامه كلَّ تفاهاتي.

يد خفيَّة امتدَّت إلى داخل صدري، أمسكت قلبي واعتصرته بقوَّة، ماذا يقصد هذا الصُّعلوك ذو الكرش من قوله: موظفة غير مثبَّتة؟ ماذا يقصد؟

هل بدأت أشيخُ بنظر هؤلاء؟ حسَبتُ سنوات عمري، أنا الآن في الثالثة والثلاثين، هل يحسبني هذا الخسيس عانسًا؟ صحيح أني ما تزوَّجت، لكن ذلك ما كان من قلَّة المعجبين، ولكنه مبدأ ألزمتُ نفسي به، أريد أن أعمل، أن أُثبتَ للناس أني مختلفة، وأن بإمكاني فعلَ ما يعجِزُ عنه الرجال، أنا ما تزوَّجت؛ لأني أربأُ بنفسي عن القُعود في البيت، والتفرُّغ لخدمة الزوج والأولاد. كلُّ الفتيات يستطعنَ الزواجَ والإنجاب، ولكنَّ ندرةً من الناس من يقدر على احتلال منصب مثل منصبي، أأنا مخطئة؟ ويقهقه بديع من جديد قائلاً بأن القَرْعاء تتباهى بشعر بنت خالتها، كما تتباهى العانسُ بعدد خُطَّابها! أين أنت يا

دكتور فارس؛ لتشرحَ لي ما عَجَزَ عقلي الصغيرُ عن فهمه؟ أين أنت لتُطمئنَني بأن كلام بديع النابع من كرشه لا يحمل في طيَّاته تهديدًا لي بإبعادي عن عملي، وقطع مصدر رزقي؟

لا... لن أستسلمَ لكلام هذا المأفون، أنا الشابَّةُ الجميلة، وليس بوُسع أيِّ رجل إلا الانحناء أمامي، طرَقاتٌ خفيفةٌ على باب مكتبي، ثم فُتح ليدخلَ شابٌّ وسيم، يقاربني في العمر، ألقى تحيَّةً مهذَّبة، وقدَّم لي نفسه بأنه شاعر، رحَّبت به وقد قرَّرتُ الثورة على ما قاله بديع، دعوت زائري للجلوس، جلس صامتًا، أخبرته بأني تخرَّجت في كلية الآداب، وأني أتذوَّق الشعر بروح شفَّافة، حتى إن موسيقاه لتتغلغلُ في كلِّ حواسِّي وأعصابي، كان ردُّه باردًا باهتًا، سألني عن عملي وعن إنجازات دائرتي بعد غياب الأستاذ محرز، لم أجد جوابًا، في الحقيقة معظم نشاطاتي توقَّفَت بعد سفر الأستاذ محرز، وما بقي لي سوى الملل والكآبة، ولكن هل أعترفُ بذلك أمام رجل شاعر، ربما جاء ليكتبَ عني موضوعًا في صحيفة يعمل بها؟ لمَ لا أحوِّلُ اهتمامَه إلى شخصي بدل العمل؟ رُحت أتأمَّل قسَماته لأفجِّرَ بين يديه دلالي وذكائي؛ لأجعلَهُ يغرِّد أمامي ديوانًا كاملاً من قصائده، قلت له: قبل أن نبدأَ الحديث عن العمل، دعني أخمِّنُ أنك من برج الثور... وهذا البرج...

قاطعني وانتصب واقفًا وقد بدا الغضبُ جليًّا في عينيه، رفع

كفَّه أمام وجهي في إشارة أن اصمُتي، شعرت بالخجل، ربما أخطأتُ طريقي إلى مشاعره، تأمَّلني بُرهةً، جدَّدت الثقةَ في نفسي، ابتسمتُ وحرَّكت عنقي بدلال جعل وِشاحي يسقط عن رأسي، فيكشفُ له عن شعري الذي قصصتُه بالأمس في أرقى (الصالونات)، أعدت عليه القول: الثور، أنت من برج الثور؟ قال ألم يخبرك أحدٌ بأنك تافهةٌ سخيفة؟ الثور هو من أنجبك، اذهبي وتعلَّمي التحدُّث إلى الناس المحترمين قبل الجلوس على هذا الكرسيِّ، أم أن حياتك كلَّها هزل في هزل؟ ألا تعرفين الجِدَّ؟ قال هذا ثم أدار لي ظهره وانصرف.

غاظني كلامُ بديع وأحرقني، لكنَّ كلام هذا الشاعر أبكاني، بكيتُ حتى امتزج كُحل عيني مع الأحمر والأخضر من مساحيقي، وصار وجهي كوجوه المهرِّجين، قمت إلى الحمَّام، غسلت كلَّ شيء، ثم جدَّدت ألواني، ووقفت أمام المرآة أفكِّر، ماذا أفعل؟ ألم أعُد أصلح لشيء؟ وقرَّرت طلب إجازة، فتوجَّهت إلى مكتب المدير.

رحَّب بي المدير بفتور، لكنِّي فوجئت به يجلس على كرسيٍّ جانبيٍّ، وقد أخلى مكانه للشاعر الزائر، وتساءلت في سرِّي من يكون هذا الشاعرُ الأحمق؟ لم يترُكني المدير لحَيرتي؛ إذ قدَّم لي ضيفه القياديَّ الكبير من العاصمة، السيد (مالك)، القادم لتفقُّد أحوال المكاتب الفرعيَّة في المحافظات. هكذا إذًا؟ ثم

قدَّمني إليه وعرَّفني بأنني العاملةُ النشيطة التي قام المكتب النسائيُّ على كتفيها، لكنها في السنتين الأخيرتين خفَّفت من نشاطاتها، بل ألغت كلَّ نشاطات المؤسسة النسائية لصالح دراستها الجامعيَّة، هزَّ الضيف رأسه هزَّات متتاليات، فهمتُ منها تهديدًا ووعيدًا، أكمل المدير كلامه: هذه الآنسة لم تطلُب إجازةً قط، منذ تسلُّمها العمل لدينا حتى اليوم، أجابه الضيف بعبارة مُبتَسَرة: امنحها إجازةً مفتوحة، ثم أشار إليَّ بإصبعه يأمرني بالانصراف.

هذا الرجل من القيادة العُليا لحزبنا، لماذا جاء إلينا بمفرده؟ أين مرافقوه وحرَّاسُه؟ لماذا يدخل غرفتي قبل دخوله غرفةَ مديري؟ لماذا عرَّفني نفسه بأنه شاعرٌ يعمل في صحيفة؟ أسئلةٌ تبيضُ أسئلة، ومن ورائها أسئلة، وكلٌّ منها يُثير الجنون، لماذا؟ لماذا؟

أهذه أنا من تقفُ هذا الموقف المهين؟ لقد أمر بمنحي إجازةً مفتوحة قبل أن أطلبَ الإجازة، وما سألني أحدُهما عن سبب قدومي إليهما، أهذا هو مديري الذي ما ملَّ يومًا من التودُّد إليَّ وإطراء جمالي؟ ماذا حصل؟ أيُّ انقلاب حدث في هذه المؤسسة وأنا ذاهلةٌ لا أعي شيئًا مما يدور حولي؟ ما مصيري بعد اليوم؟ أسئلةٌ كالألغاز، كلُّ سؤال يفرِّخ أسئلة، وعدت إلى أمي أكابدُ قهرًا ما عرفته في حياتي.

حين رحلنا من القرية قاصدين السكنَ في المدينة، تلفَّتُّ خلفي: وداعًا يا بيوتَ الطين، وداعًا بلا عودة يا دجاجًا يسرح في فَلَوات تلك البيوت، ويا قُطعانًا تعود مع الغروب من مراعيها، تملأ بثُغائها الفضاء، وداعًا يا رفاقَ الطفولة، ويا عشيرةً تعيش كأنها دولةٌ مستقلَّة، تحكم كلَّ أفرادها بقوانينها، ولا تلقى اعتراضًا من أحد!

سنعيش في المدينة، في بيت نظيف مُغلق كبيوت أخوالي، سوف يأتينا طعامُنا من السوق جاهزًا، فنرتاح من الزَّرع والقلع والحَلْب، سوف نرتاح، ونسكن حارةً لا علاقة تربط بيننا وبين أحد من أهلها، ولا حكمَ علينا من أحد، سوف... وسوف... غمرتني السعادةُ حينها، ما أعقلَ قرارَ أمي!

حين تركنا القرية وسكنَّا المدينة، كنت لا أرى في الكون سوى نفسي، وبعدها بأيام ركبتُ هذا الكرسيَّ، وصارت النقود تجري في يدي مع بداية كلِّ شهر، آخذ منها ما يلزمُ لنفقتي الخاصَّة، وأعطي الباقيَ لأمي تُنفقها على حاجات البيت، شعرت بأني وحدي من يمنح الحياةَ للبيت ومن فيه، أعود من عملي تعبة، أو متصنِّعةً التعب؛ دلالاً وغُنجًا، أنفرد بغرفتي مترفِّعةً عن الاختلاط بهؤلاء الذين يشاركونني السكن، ويعيشون على حسابي، كلُّهم يعيشون في غرفة واحدة، وأنا وحدي في الغرفة الأُخرى، ذات الأثاث الجديد والمرايا، لا يعنيني ما

يعملون وما يحلُمون.

في غَمرة انشغالي بمنصبي، تابع إخوتي تحصيلَهُم العلميَّ، أخي بكري، وهو الذي يصغُرني بسنة واحدة، كان قد سبقنا إلى المدينة، استأجر غرفةً مع رفاقٍ له جاؤوا من القرية؛ ليُكملوا تعليمهم في المدارس الثانوية؛ إذ ليس في قريتنا ولا في القُرى المجاورة مدرسةٌ ثانوية! وحين جئنا بمتاعنا تركَ رفاقه وانضمَّ إلينا، لكنها سنةٌ واحدة، نال فيها الشهادةَ الثانوية، والتحق بالكليَّة العسكرية؛ ليتخرَّجَ فيها بعد سنوات أربع ضابطًا يحمل على كتفه نجمةً واحدة.

أخي بكري كان دائمَ الغياب عن البيت، بحُكم عمله العسكري، وحين يعود تزهو أمي بالشرائط التي تزيِّن ثيابه، ثم بالنجمة التي تعتلي كتفَه، كأنها هي من يَلبَسُ بَزَّة الضابط، أما أنا، فقد كانت زيارتُه بالنسبة لي كابوسًا ثقيلاً، لا ينتهي إلا بتراشُق السِّباب والاتِّهام عشرات المرات! ما كان بكري راضيًا عن سلوكي، ولا عن انضمامي إلى حزب التقدُّم والحرِّية، كان يسألني في كلِّ مرة ساخرًا: أريني إلى أين تقدَّمتم؟ وماذا حرَّرتم في حزبكم العظيم؟ يتَّهمُني بكري بالغباء وسوء الاختيار، يقول: إن هذا الحزبَ لن يقدِّمَ للبلاد شيئًا ولن يحرِّر شبرًا، أفرادُه في كلِّ البلاد لا يزيدون على عدد تلاميذ مدرسة ابتدائية في القرية، يُمضون أوقاتهم في اجترار كلام لا يقدِّم ولا يؤخِّر، ويقول:

ابذُلي لهم كلَّ طاقاتك وإخلاصك، وانتظري أن يرموا بك كفردة حذاء عتيق، ويقطعوا عنك هذا المرتَّب البائس. وأردُّ عليه: حين تقوم حربٌ في البلاد فأنت أولُ من يموت فيها، هل تعتقد أن اختيارك أحسنُ من اختياري؟ تتدخَّل أمي في كلِّ مرَّة للفصل بيننا، ويعود هو لثُكْنَته، وأعود لحياتي.

ما كان بكري يعود إلى ثُكْنَته قبل أن يزورَ القرية، مُصطحبًا معه أخي سلمان وأختي فضَّة، وأرفض بشدَّة مرافقتهم، هل أعود إلى القرية بعد كلِّ هذا العزِّ، وهذا الجاه؟ أيُّ رباط يربطني بالقرية وسكَّان القرية؟

أخي بكري من مواليد برج الجَدْي، وهو برج تُرابي، هكذا تقول المجلات، وتقول: إن مواليد هذا البرج يمتازون بالصلابة والواقعية، والتركيز على الهدف، وأنا أعتقد وفقًا لذلك أن أخي (بكري) قد وضعني مع منصبي وحزبي هدفًا لهجومه، أخي يغارُ مني، هو ضابطٌ صغير في الجيش، وما أكثرَ الضبَّاط، وأنا وحدي رئيسةُ الرابطة النسائية في الحزب، ليس في حلبَ كلِّها من تُماثلني في أهميَّتي، إلا من كانت توازيني، ولكن في حزبٍ آخر.

أتناول أقربَ مجلة مني لأقرأَ برجه فيها، تقول النبوءة: إن مولود برج الجَدْي سيُعاني صعوبات وإرباكات في بداية الشهر، وسيعيش صراعًا ربما ينالُ حياتَهُ العائلية والعملية. أتنفَّس

الصُّعَداء وأتمنَّى، ليت هذه المصاعبَ تمنعه من زيارتنا؛ لأتجنَّبَ الصِّدامَ معه، لكن البرج يقول: إن الصراعَ سينال حياته العائلية. أعود للكآبة، ربما ينمو الصِّراع بيني وبينه، أعود لثقتي بنفسي وعنادي، فليفعل بكري ما يشاء، لن يتمكَّنَ أبدًا من الوصول إلى حافَة عرشي الذي أتربَّعُ عليه بلا منافس.

أما أختي فضَّة، فكانت أهونَ من الوصول إلى ساحة فكري، يفصلُ بيني وبينها عشرُ سنوات من العمر، فتاةٌ ساذَجةٌ ما زالت تتمسَّك بأفكار القرية، وأخلاق القرية، تنتظر يوم الخميس بفارغ الصبر، وتستقبلُ أخي بكري كمن يستقبل رسولاً مُنقذًا، ففي قُدومه يوم الخميس سفرٌ إلى القرية، ما أغباها أختي فضة! ستعيش وتموت نكرةً على هامش الحياة، ستمرُّ في الدنيا مرورَ الظلِّ لا تخلِّف أثرًا، كلُّ شؤونها لا تعنيني، تذهب إلى مدرستها بصمت، وتعود كلَّ يوم، تساعد أمي في أعمال البيت مثلَ أيِّ فتاة هامشية، لا طموحَ لها، ولا تعرف شيئًا عن حركة الحياة المثيرة، خارج حدود القرية والحارة والمدرسة.

نجحت فضَّة في اختبار الثانوية العامة، ولكن بعلامات متوسِّطة، نجاحُها لا يعنيني، ما سألتها عمَّا تودُّ عمله، وإلى أيٍّ من فروع الجامعة ستتوجَّه، نسيتُ نجاحها وشهادتها في غمرة انشغالي بأعمالي والتغيُّرات التي حصلت في حزبنا بعد مغادرة الأستاذ محرز، لكنني علمتُ بعد سنتين أنها تخرَّجت في معهد

إعداد المعلِّمين؛ لتعملَ معلِّمةً لأطفال المرحلة الابتدائية.

المتخرِّجون في هذا المعهد لا يُعيَّنون في المدينة، ولكن تُرسلهم مديريةُ التربية إلى الأرياف، فاجأني الخبر، بل صعقني، صرختُ في وجهها، شتمتُها، ذكَّرتها بكلِّ ما في القرية من تخلُّف، ذكَّرتها برائحة الغنم والدَّجاج التي تملأ الجوَّ هناك بالغُبار الذي سيغطِّي كلَّ جزء من ثيابها ومسكنها. قلت لها بنبرةٍ هازئةٍ ساخرة: لن يتقدَّمَ لك عريسٌ واحد من أبناء المدينة، غدًا يخطُبُك فلاحٌ من أبناء عشيرتنا، ثم يزفُّك إلى بيته الترابيِّ الخالي من السرير والمرايا، ومن المقاعد الوثيرة، وكلِّ مظاهر الراحة والترَف، سيعود إليك زوجك في المساء بثيابٍ وحلة، بعد نهار يُمضيه بين الطِّين وأشعَّة الشمس المحرقة.

استمعت فضَّة إلى كلامي كمَن يستمع مُكرهًا إلى نشرة الأخبار في إذاعة محليَّة! كان عقلها يسرَحُ بعيدًا مع خيالها في أجواء نائية عني وعمَّا أقول، أجابتني بعد فترة من الصَّمت: هذه حياتي وأنا حرَّة في تقرير ما أريد، والطينُ الذي يثير اشمئزازك منه خُلقنا وإليه نعود، كفاني غُربةً، كفاني سجنًا بين جُدران مدينتك، أريد العودةَ إلى أحضان أهلي وعشيرتي.

أصابني الذهول، متى نَضِجَت أختي فضَّة، وصارت تتخذُ القرارات التي لا رجعة فيها؟! متى كانت قراراتُها لا تقبل مناقشة؟ متى تخلَّت عن الدُّمى التي تصنعُها من بقايا خِرَق

وأزرار قديمة؟ كنت أدخل البيت، فأراها جالسةً في زاوية الغرفة، تستقبل بوجهها الجدارَ غير ملتفتة إلى شيء مما يجري في البيت، تحجز أمامها مِساحةً تكفي لأحلامها، تصنع الدُّمى، تَخيطُ لها الثياب، تُضجعها على فُرُش من صُنع يدها، تغنِّي لها لتنام، رثيت لفقرها يومًا فاشتريتُ لها دُميةً كبيرة من السوق، شعرُها أصفر، تلبَسُ ثياب عروس، في خاصرتها زِرٌّ وفي تجويف ظهرها مُدَّخِرَة (بطارية)، وهي تغنِّي إذا ضُغط زِرُّ الخاصرة أحدث الأغنيَّات الدارجة في السُّوق، وتَميسُ برأسها ذي الشعر الذهبيِّ والعينين الزَّرقاوين يَمنةً ويَسرَة، قدَّمتها لها، وطلبت منها رميَ كلِّ الدُّمى المصنوعة من الخِرَق في القُمامة، أمسكَتْها بحذر، حملتها حتى انتهت من أغنيَّتها، ثم رمت بها فوق خزانة الثياب وعادت إلى خِرَقها، أغضبني رفضُها لهديَّتي، تدخَّلت أمي ودافعت عن موقف أختي، وظلَّت الدمية العروس قابعةً فوق الخزانة، تنظر إلى مدنيَّتي بعينين شامتتين تُشعلان في أعصابي النار!

فضَّة ما كانت يومًا تعنيني بشيء، ولا أذكر حديثًا دار بيننا، كانت طَوالَ عمرها أقلَّ شأنًا من الوصول إلى حيِّز اهتمامي، ما كنت أراها حين أغادر البيتَ في الصباح، ولا أسأل عنها حين أعود في المساء، لكنِّي كنت أراها حين أدخل الغرفة، جالسةً على الأرض في مكانها ذاته، ووجهُها إلى الجدار، عالمها كلُّه

لا يتعدَّى بمِساحَته نصفَ متر مربع، يتَّسع لكلِّ ألعابها وكتبها وكراريسها وأدوات الرسم.

من أين جاءت فضَّة بكل هذا الثِّقَل وهذه الثِّقَة بالنفس؟ متى رسمت لحياتها خطًّا مستقلّاً في الحياة تعدُّ نفسَها مسؤولةً عن نتائجه؟ ألا تُعجبها حياتي؟ ألا يُرضيها خطِّي؟ لن أحاولَ إقناعها، بل سأُجبرها على اتِّباعي والانتساب لحزبي.

مجنونة أختي فضة، إنها حقًّا مجنونة، هل يترك عاقلٌ حياةَ المدينة ورفاهيَّتها؛ ليعودَ إلى حياة الشقاء في القرية؟ هناك لا يأكلون إلا ما يصنعونه بأيديهم، الخبز واللبن والجبن والقمح، ونحن هنا يأتينا كلُّ شيء من السوق جاهزًا للاستهلاك. حمقاءُ أختي، تريد ليديها أن تكونا خشنتين كأيدي الفلاحات، تريد لقدميها التشقُّقَ بين الغبار وقسوة المناخ، تختار العناء بدلَ الراحة، يجب أن أمنعَها بكلِّ ما لديَّ من قوة وتأثير.

عادت لمجلسها خلف المدفأة، وكأنها ما سمعت شيئًا مما قلتُه، عادت لكتاب كان في يدها، نظرت إليها من جديد، ما عادت فضة تلك الطفلةَ البريئة التي أعرف، صار لها وجهُ فلاحة عنيدة، راحت تُتابع قراءتها غافلةً عن كلِّ ما حولها، ومن حولها.

تركتها ودخلت غرفتي يهزُّني الغضب، أنا الأثيرةُ المدلَّلة عند أمي، لا ينبغي أبدًا أن أغضب، تعوَّدت أن يسعى الجميع

لإرضائي، وتقديم الخِدْمات لي، وانتظرت، انتظرت طويلاً حتى حاصرني الملل، وما جاء أحدٌ لمصالحتي والاعتذار عمَّا قالته فضة، ما الذي حصل؟ لماذا تغيَّرت الحياة في هذا البيت؟ لا أدري، حاولت النوم، لكنَّ إحساسي بالإهانة والإهمال من أمي ومن أخي سلمان، الذي شهد مناقشتنا منعني النوم، قرَّرت الكرَّ من جديد، غادرت سريري مسرعةً إلى الغرفة الأخرى، الدماء تغلي في عُروقي، دفعت الباب بقوة فرأيت... يا لهول ما رأيت.

كانت أمي وأختي فضة تجلسان على الأرض خلف المدفأة متلاصقتين، ذِراعُ أمي تحتضن كتفَ فضة، ورأس فضة ينام وادعًا على كتف أمي، أدركت بلمحةٍ كوميض الصاعقة أني صِرتُ غريبةً بينهما، بعيدة عن صداقتهما الحميمة، التي لا يقدرُ سيفٌ على اختراقها، وتساءلت: أين مكاني؟ لماذا أعيشُ خارج هذه (اللعبة)؟ لماذا أُحرَم من مثل هذه الجلسة، وهذا الحنان في كلِّ مراحل عمري؟ من المخطئ؟ أنا أم هم؟ أسئلةٌ عصفت بعقلي حتى كادت تطير به، ماذا أفعل؟

رجعت إلى غرفتي أكابد الجنون، النهار يدنو من منتصفه، والجوُّ شديد البرودة، نحن الآن في نهار يوم الجمعة، يوم العطلة الأسبوعيَّة، لبست أثقلَ معاطفي، وخرجت من البيت، إلى أين؟ لا أدري، أريد الهربَ من هذا المشهد الذي أحرقني،

أريد فرارًا من هَواني على أمي، لم تسألني أمي ولا أختي، ولا أخي سلمان عن وِجهَتي. خروجي من البيت قرارٌ صارم، جَهِدتُّ حتى جعلته مقدَّسًا، لا يحقُّ لأحد التدخُّل فيه، كان ذلك في بداية عهدي بالعمل، لكنه تحوَّل مع مرور الأيام إلى حدث تافه، لا يُثير التفاتةً من أحد، نزلت إلى الشارع ومشَيتُ على غير هدًى، حلبُ مدينة كبيرة، وهي عاصمةُ المال، تنام متاجرها إلى قُرابة الظهر، في حين تدور مصانعُها في الليل كما في النهار، وفي أيام الجمعات والأعياد، ترى شوارعَها مقفرةً إلا من عمَّال التنظيف.

ما سبق لي أن خرجتُ في يوم الجمعة من البيت، أعجبني فراغُ الشوارع، (دوَّار) الشعَّار الدائم الازدحام أستطيع اجتيازَهُ اليوم مغمضةَ العينين، لا سيَّارات تمشي هنا ولا بشر، الريح وحدها تعصف بروائح القُمامة التي لم ترحَّل، وتكنس الزَّوايا فتنثُر روائح البول المتخمِّر، فتملأ بها الجو، تابعت السير، محطَّة الوَقود مغلقة على بضعة عمَّال، يشربون الشاي الساخن في هذا الصباح البارد، منتظرين سيارةً عابرة ربما تأتيهم لتملأَ خزَّانها من محطَّتهم، وحدي، في كل الشوارع وحدي.

(دوَّار) قاضي عسكر خاوٍ على عروشه، إلَّا من بعض الرجال المصطفِّين أمام شبَّاك الفُرن، ينفخون في قبضات أيديهم طلبًا للدِّفء، تجاوزتُهم وتابعت سيري السريع، انعطفت يمينًا، ظلَّت

خطواتي تحملني ولا أرى ما أمامي، حتى وصلت (دوَّار) باب الحديد، أين الناس؟ أين الزِّحام؟ شعرت بشيء من الرَّهبة، راجعت نفسي، ليتَ لي صديقةً فأذهب لزيارتها، وأفجِّر بين يديها دموعي. ليت لي صديقةً أنشر على بِساطها هذا القهرَ الذي يكاد يُزهق روحي. ليتني أعلم عنوان كاترين أو سوزان أو رَقْم هاتفها، لكني ما اتخذتُ أيَّةَ صديقة، ولا شعرت يومًا أن هنالك فتاةً ترقى لمستوى أهميَّتي عند نفسي لأتخذها صديقة، كنت أكتفي بمجموعة الزملاء والزميلات في مكتب العمل، وبالحديث اليوميِّ الذي يدور بيننا، ما كان لي من صديق سوى غروري، وما نفعُ غروري أمام المشهد الذي تركته ورائي في البيت؟

تباطأت مِشيَتي، وأنا أجتاز الشارع الضيِّقَ من باب النصر إلى ساحة (سبع بحرات)، رُحت أتأمَّل الشُّرُفات الخشبية للبيوت العتيقة المهجورة، اكتشفت أني ما رأيتها من قبل، خرجت من نفسي ولبستُ قناعَ سائحة تتأمَّل مدينةً تزورها أول مرَّة، وقفت أمام باب كبير من الخشب المحفور والمرصَّع بالنُّحاس الأصفر، سألت نفسي: لماذا نسكن في ذلك الحيِّ الشعبيِّ البائس، ولم نسكن في منزل فخم كهذا؟

صوتٌ رقيق يهمِسُ ورائي: صباح الخير يا خالة، لم ألتفت؛ لظنِّي أن هذه التحيةَ لا تعنيني، فلست بخالة لأحد. عاد الصوت

الرقيق المهذَّب: صباح الخير يا خالة، التفتُّ، رأيت صبيَّين في عمر المراهقة، يحمل أحدهما طبقًا من الفول الساخن، ويحمل الآخر كيسًا من الخبز، بادرني كبيرهما بالسؤال: هل جئت لزيارتنا يا خالة؟ أجبته باقتضاب: لا، قال: أفسحي لنا الطريقَ لندخلَ بيتنا، تركتهما ومضيت، هذا الأحمق أثار غضبي، هل يراني عجوزًا مثل أمه؛ ليُخاطبَني: يا خالة؟ اللعنة عليهما وعلى أمهما وخالتهما.

تابعت السير، (دوَّار سبع بحرات) يغَصُّ بالحركة، الناس كلُّهم يسيرون على الأقدام مهرولين باتِّجاه واحد، رجال يلبَسون الأثواب البِيض الطويلة، متدثِّرين بعباءات من فَرْو الخراف، ونساء يلتحفن بالسَّواد، إلى أين؟ سألت نفسي، فأجابتني مآذنُ الجامع الأمويِّ الكبير، اليوم هو الجمعة، مشَيتُ معهم، لا أذكر أني صلَّيت صلاةً واحدة بعد خروجي من القرية، شعرت بهُوَّة كبيرة تفصِلُني عن الله، لقد نسيته فنسيَني، وحلَّت بي كلُّ هذه المصائب ونزلت فوق رأسي وعرقلت حياتي. شيءٌ من الحياء، من الخشوع، من الشُّعور بالذنب لفَّ دماغي فزادني عمًى فوق عماي، بل أيقظني من غفلتي، وفتح عينيَّ على سوء ما اقترفته بحقِّ نفسي.

مشَيتُ مع الناس، دخلت الجامع، وما كنت قد دخلتُه من قبل، سقط عن وجهي قناعُ السائحة التي تستكشف مدينةً جديدة

تجهلها، سألت عن مكان لوضوء النساء، أرشدني أحد خدم المسجد، توضَّأت واتَّخذت مكاني بين صفوف النساء، كنت أركع وأسجد، وعقلي يدور في فضاء آخر! انتهت خُطبة الجمعة وانتهت الصلاة، ما شعرت بأنِّي صلَّيت، بدأ الناس بمغادرة المسجد، فشعرت برغبة شديدة في البقاء، اتَّخذتُ زاويةً وبدأت صلاةً منفردة، صليت ركعتين وجلست أبتهل إلى الله؛ كي يمدَّني بالصبر، وينوِّرَ بصيرتي لأعرفَ أخطائي بنفسي، وانفرط عِقْد دموعي، فما عُدت قادرةً على لمِّه.

دنا مني أحد خُدَّام المسجد، جثا على ركبتيه بجانبي، سألني بصوت حنون: ماذا أضعت يا ابنتي؟ هل فقدت زوجًا أو ابنًا؟ تلقَّيتُ رقَّته وحنانه كصفعة على وجهي، ردَّتني إلى الحالة التي كنت عليها قبل دخولي المسجد، أجبته بحدَّة من بين دموعي: لست متزوِّجة. تأسَّف على حالتي، وأشفق عليَّ من العُنوسة التي أعيشها، ثم رفع كفَّيه وبدأ بالدعاء، كان يدعو الله أن يرزقَني زوجًا صالحًا، ازداد غضبي، قمت من مجلسي وغادرت المسجدَ على جناح السرعة.

عانس؟ أنا عانس؟ مشَيتُ في الشارع باتِّجاه القلعة، الهواء البارد يصفع وجهي، ويخترق ثيابي، يصل إلى عظامي، كان جوُّ المسجد حارًّا بفعل الازدحام ومكيِّفات الهواء، ربما أضرَّ بي هذا الفرق بالحرارة، شعرت بأضلاعي تتقارب وتضغط على

رئتيَّ حتى ضاق نفسي، استوقفت سيَّارة أجرة وعدت إلى البيت.

أمام باب البيت شعرت بقوَّة غريبة تدفعُني للعودة من حيثُ أتيت، ولكن إلى أين أذهب؟ أأعود للتسكُّع في الشوارع؟ أنفاسي تضيق حتى شارفتُ على الإغماء، أأسقط على (الإسفلت) لأموتَ ميتة المشرَّدين؟ أخرجت المفتاح من حقيبتي، فتحت الباب، ودلفت على مهل، أتسنَّدُ على الجدران، البيت هامد لا حركةَ فيه، أما زالت أمي وأختي متعانقتين؟ فتحت بابَ الغرفة بهدوء، كانت فارغةً، المدفأة مُطفأة، ولا أثرَ لرائحة الطعام أو الشاي، خزانة الثياب مواربةُ الأبواب، أين أمي؟ أمي في البيت كجدارٍ من جُدرانه، ما اعتادت الخروج، إخوتُها وأولادهم يأتون لزيارتها، ولا تزور أحدًا منهم في بيته، أين ذهبت؟ أوصالي ترتجف من البرد، ولا خبرةَ لي بأعمال البيت، أخرج وأدخل كأني نزيلةُ فندق، وهناك أصل في الصباح إلى مكتبي، فأجد المدفأةَ متوهِّجة وقهوتي جاهزة، ماذا أفعل؟ رميت معطفي ووِشاحي، ودخلت فراشي، البرد أقوى من دِفْء الفراش، ما استطعت السيطرة على ارتجاف يديَّ ورجليَّ وفكِّي السفلي، قمت أحاول إشعال المدفأة، لكني أخفقت، جلبت مُلاءة ثخينة من الصوف، تكوَّرت على جسدي خلف المدفأة وتغطَّيت بها، غفوت غفوةً قلقة، وأفقت على انفتاح الباب.

ما زلت أرتجف، أسرع أخي سلمان، والتصق بالمدفأة، فاكتشف أنها مُطفأة، ملأ خزَّانها بالوَقود، أشعلها وراح يفرُك كفَّيه فوقها ليُدفئَهما، أخبرني بأنه قادم من محطَّة السفر، وشكا من ثِقَل الحقيبة التي تضمُّ ثياب فضة وحاجاتها، كان يغالب البرد، والفرح ينفِرُ من عينيه، ونبرة صوته كماء اليَنبوع، كالنَّافورة، رُحت أستمع إليه بصمت، وراح يحكي عن أمي كيف ودَّعَته وأوصته بي خيرًا، وحكى كثيرًا عن سعادته بما أنجزت فضة، فهذه أولُ آنسة تتخرَّج من بنات عشيرتنا، ستعيش في القرية مَلِكَة، سيتنافس الجميع في التودُّد إليها وفي حمايتها، فضة وهي الصُّغرى بيننا فخرٌ لبيتنا وعشيرتنا، مؤكَّد أنها ستعمل هناك بالإخلاص الذي عهدناه منها هنا، سيحبُّها الجميع هناك كما يحبُّها الجميع هنا.

قاطعتُه: من هم الجميع الذين هنا، والذين يحبُّون فضة؟ استنكر سؤالي، وكأني لا أعيش في هذا البيت، أو في هذه الحارة! كلُّ نساء الحارة تحبُّ فضة، ونحن: أمها وإخوتها وأخوالها وأولادهم، توقَّف قليلاً، ثم استدرك: ألا تحبِّين فضة؟ ألا ترَين خَواء البيت في غيابها؟

سحبت الغطاء فوق وجهي وغرقتُ في الإهانة، سلمان يرى البيت خاويًا في غياب فضة، ألا يُدرك أن أمي غائبةٌ أيضًا؟ وأنا، ألست موجودة، أم أن غيابي وحضوري سواء؟ يبدو أنني

نكرةٌ في هذا البيت، لا ملكة كما كنت أظنُّ. فضة تفوقُني أهميَّة في نظر الجميع، الذين تناسَوا أن ثمن قوتهم وكسوتهم وأجرة البيت الذي يسكنون فيه كلُّها تُدفَع من مرتَّبي، ثمرة جهدي وتعبي، فضة يحبُّها الجميع، داخل البيت وخارجه، وأنا، من يحبُّني؟ لا أحد، حتى أنا صرتُ أكره نفسي، لماذا؟ هل من سبيل لإصلاح الماضي والحاضر؟ من يدلُّني؟

نزلة بردٍ شديدة ألمَّت بي، أوقعتني في الفِراش، أمضيت ساعات المساء خلف المدفأة، تحت اللِّحاف أرتجف من الحُمَّى، حاول سلمان تطبيقَ معلومات درسها لتوِّه في كليَّة الطب، أحضر لي عصيرَ الليمون، وضع على جبهتي (الكمَّادات) الباردة، لم ينفعني كلُّ ذلك بشيء، بل إن عصير الليمون نزل على معدتي الفارغة، فأشعل فيها النار، تقبَّضت بعنف جعلني أركضُ إلى الحمَّام لأفرغ ما فيها، نسيت أني ما ذُقت زادًا منذ الأمس، وقف سلمان أمامي حائرًا متردِّدًا، ثم خرج من البيت، وتركني وحدي.

انفجرت بالبكاء، لقد تخلَّى الجميع عنِّي، ذهب كلٌّ لشأنه بعدما أدَّى واجبه تجاه فضة، وماذا قدَّمت لهم فضة؟ كوبًا من الشاي أو وجبةَ طعام مُشتراة بمالي؟ بكيت بكاء مرًّا، عسى أن يخفِّفَ البكاء بعضَ احتقاني.

سمعت صوتَ انفتاح باب الدار، فكفَفتُ عن البكاء،

وجفَّفت دموعي، لا أريد أن يرى أحدٌ ضعفي، دخل سلمان وبرفقته طبيب، قاسَ الطبيب درجةَ حرارتي وضغطَ دمي، استمع بسمَّاعته لسُعالي، ثم راح يهدِّئ من اضطرابي واضطراب أخي، يقول: إنها نزلة برد حادَّة، وهي مرض هيِّن يحتاج إلى راحة تامَّة في الفِراش، وشرب السوائل الدافئة، إضافة إلى أدوية كتب أسماءها على ورقة من حقيبته ثم انصرف.

نزلة البرد وجدت مُناخًا صالحًا لسُكناها في جسدي، جسدي الذي هدَّمه القهر، فراحت تنمو وتنتشر وفق مزاجها، لم يسلم منها عضوٌ من أعضائي، بدأً بأغشية فمي وأنفي، ومرورًا بالمعدة والأمعاء، وبموطنها الأول الرئة والقصبات الهوائية، وانتهاء بالكُلْيَتَين، التهابُ أمعائي وكُلْيَتي أفرز نوبات من الألم الشديد لم أستطع تحمُّلَها، رحت أصرخ مُستنجدةً، استدعى سلمان الطبيبَ مرة ثانية، ثم ثالثة، التهابُ الأذن الوسطى أفقدني توازُني، فما عدت قادرةً على الوقوف أو السَّير ضمن مِساحة الغرفة، عاد الطبيب وبدَّل لي الدواء.

انقضى أسبوع، سَعِدتُّ فيه برعاية أخي سلمان وحنانه، ولكن بمقدار سعادتي كان شقائي، سلمانُ كان دائمَ الاهتمام بي، ترك كليَّته وتفرَّغ لتطبيبي، يُناولني الدَّواء في مواعيده حبَّة إثر حبَّة، يأتي بالطعام الجاهز من السوق، يُطعمني ثم يرفع المائدة، يُحاول تسليتي بحكايات مما يدور هناك في أروقة

جامعته، وفي كليَّة الطب التي يدرس بها، وحكايات أكثر عن فضة وشوقه إليها، يتخيَّل القريةَ السعيدة باستقبال فضة، يذبحني دون أن يشعرَ بهذه الأحاديث، وأقارن في خيالي، بين منصبي الذي لم تنله امرأةٌ في حلبَ كلِّها، وبين معلِّمة في مدرسة ابتدائية، تخرَّجت مثل مئات المعلِّمات، فأشعر بالغَبْن. فضة تُثير فخرَك واعتزازك، وأنا؟ مهمَّتي لديك هي الإنفاقُ عليك، والاستماع إلى أحاديثك عن فضة؟ ما أجحَدَك يا أخي!

سلمان ذهب إلى مقرِّ عملي، مُصطحبًا تقريرَ الطبيب المعالج، أخذ لي بموجبه إجازةً صحِّية مدَّتها عشَرة أيام قابلة للزيادة، أعطَوه إيَّاها، وأخبروه عن الإجازة المفتوحة التي اقترحها الأستاذ مالك، القادم من قيادة الحزب في العاصمة، استبشرت خيرًا حين نقل لي تحيَّات الزملاء هناك، شعرت بحبٍّ جارف نحو سلمان، لم أشعُر به من قبل، اكتشفت أن لديَّ أخًا شهمًا يمكنني الاعتمادُ عليه في أزَماتي، وحنونًا يَحدِبُ عليَّ في مرضي وضعفي.

مللت من الفِراش، قُمت أتنقَّل في أرجاء البيت، وجدتُّ نفسي شخصًا متطفِّلاً في منزل لا يخصُّه، غريبة في بيتي، غريبة في مدينتي، عاودَني الألم، فعدتُّ إلى الفراش، شعرت بالشوق إلى مكتبي، إلى مقرِّ عملي، إلى كاترين، لكنَّ جسدي الواهي لا يستطيع مرافقتي إلى حيثُ تسرح أحلامي، طلب مني سلمانُ

بلطيف الكلام التزامَ فراشي، غافلتُه ودخلت غرفتي، وقفت أمام المرآة، رأيت رأسًا لا أعرفه، شعره خشنٌ منبوشٌ كشعر المتسوِّلات (الشحَّاذات)، ووجهًا مُنتفخًا شاحبًا، تحيط بعينيه هالتان داكنتان، وشفاهًا تملؤها البُثور، أهذه أنا؟ كيف أواجه الناسَ بهذا الوجه القبيح؟ أين راح جمالي؟ ما أصدَقَك يا دكتور فارس! وما أتعَسَني! الشباب والجمال كنسمة الربيع، وما أقصرَ الربيعَ في بلادنا! أنا لا أحتاج إلى عشرة أيام للنقاهة، ولكني أحتاج إلى زمن يردُّ إليَّ جمالي ونضارتي، تُرى كم سيطول هذا الزمن؟ وعدتُّ صاغرةً إلى فراشي.

جمعت ما لديَّ من صحف ومجلات تتحدَّث عن الأبراج، حاولت البحثَ عن برج أختي فضة؛ لأستطلعَ من خلاله مستقبلها، لكني لا أعرف لها برجًا، بحثت عن البطاقة العائلية، قرأت تاريخَ ميلادها، وجدتُّها تنتمي إلى برجي ذاته، أيُعقَل هذا؟ حياتها كانت تسير في كلِّ مراحلها على عكس اتجاهي، هي هادئةٌ باردة، لا طموحَ لها، وأنا أشعر بالنار تغلي في عروقي، ولا يُرضيني في الدنيا أيُّ شيء، كلما حصلت على درجة طلبتُ فوقها درجات، هي خاملةٌ خَنوع، وأنا متمرِّدةٌ لا أنقاد إلا لعقلي وفكري، هل تكذب الأبراج؟

ثارت ثائرتي، مزَّقت كلَّ المجلات والكتب التي تتحدَّث عن الأبراج، دخل أخي سلمان، وقف يتأمَّل في ثورة غضبي، ثم

قال بهدوء العاقل الحكيم: حسنًا فعلت يا أختي، فالحياةُ تمشي على الأرض، على الواقع، لا تنتظر توجيهات مجموعة من الدجَّالين المتحدِّثين عن الأبراج وعلم الغيب، الغيبُ في علم الله وحده، لم يُعطه أحدًا من خلقه، نِعْمَ ما فعلت، اترُكي الأبراج والتنجيم وكلَّ ما يتعلق بها من تُرَّهات وأباطيلَ وعودي للواقع.

تُرَّهات؟ أباطيل؟ هكذا يراني أخي سلمان، فتاةً تافهة تحرِّكها الأباطيل؟ لا... ليست الأبراج كما قال، برجي بشَّرني بتغيير جذريٍّ في عملي في العام القادم، لقد تخرَّجت في الجامعة وما بقيَ إلا الالتحاقُ بالأستاذ محرز في قيادة الحزب، ويقول: تُرَّهات؟ أخي سلمان شابٌّ متخلِّف، لم تنفعه بشيء كليَّة الطب التي يدرس فيها، لا يرى من الطريق سوى مَوطِئ قدميه، أما أنا فطموحي يتجاوز النجومَ والأفلاك، ويتجاوز ما لا يُدركه أخي سلمان، وأعود لأسألَ نفسي: أنا وأختي فضة من برج واحد، فهل تكذبُ الأبراج عليَّ أو عليها؟ أختي لا تقرأ صحفًا ولا مجلات، ولا تؤمن بحديث الأبراج؛ لذلك تخلَّت النجوم عنها، هكذا أقنعتُ نفسي، وهدَّأت ثورتي، ثم جلست خلف المدفأة أرقُب سلمان وهو يجمع مِزَقَ الأوراق، ثم يرمي بها في القُمامة.

انتهت أيام نقاهتي، وعدتُّ إلى مكتبي كسيرةً أشعر بثِقَل

المهانة في نفسي، حاولت تغطية شعوري ذاك بالفخر بتخرُّجي في الجامعة، والتحدُّث عن طموحي أمام الزملاء، نشرت أمامهم أحلامي باللحاق بالأستاذ محرز في قيادة الحزب، وأمنيَّتي أن يُرشِّحَني الحزب لمنصب وزاري، كنت أتحدَّث وأنا أنظر إلى داخل نفسي، لم أنظر في وجوههم؛ لأرى وقعَ كلامي عليهم، كانوا يستمعون، يستمعون ولا يردُّون على خيالاتي بكلمة واحدة.

عدت إلى البيت بعد انقضاء ساعات الدَّوام الرسميِّ، وقد صدقت أحلامي، وبدأت الإعدادَ؛ لأكون وزيرةً تقتحم صورتُها المجلات والصحف وشاشات التلفزة، وزيرة لها سيارةٌ فخمة وسائق، وثُلَّة من الحرس الشخصي، تنتقل من مكانٍ إلى آخرَ بموكب رسميٍّ يملأ زعيقه الأفق، حلَمتُ بأن أزورَ قريتي، وأحاصرَ أختي في قلعتها؛ لأُريَها أمام الأشهاد تفاهتها وتفاهة أحلامها، سيستقبل موكبي كبارُ رجال القرية، ومديرُ المنطقة مع رجال شرطته، سيكونون كلُّهم حُرَّاسًا لي، سأقترح مشروعات هناك، تحمل اسمي إلى الأبد، سآمُر بتعبيد الطريق الواصل بين قريتنا والمدينة، وسآمُر بتوسيع المدرسة، بل سأسعى في بناء مدرسةٍ جديدة تحمل اسمي ألستُ السيدةَ الوزيرة؟

وصلت البيت، فتحت الباب بالمفتاح ودخلت، صفعني مشهد عدد من الأحذية الملوَّثة بالطين تنتشر أمام باب غرفة

أمي، سمعت صخبًا غير عادي، أصوات رجال تختلط بأصوات النساء، الكلُّ يرحِّب ويهنِّئ ويبارك، ماذا يدور في بيتنا؟ صفقت باب الدار خلفي بعُنف، ودَلَفتُ إلى غرفتي، خرج أخي سلمانُ يستطلع مصدر الصوت، أدرك حضوري، فلحق بي، أخبرني بأن أعمامي وزوجاتهم وأولادهم جاؤوا يخطُبون أختي فضَّة لابن عمِّنا صطَّام المحامي، مِطرقةٌ أخرى هوَت على رأسي، فضة هذه الفتاة التافهة تدفع حياتَها في طريق لا يختلف عن طريق أيَّة فتاة عادية، ستتزوَّج فلاحًا، وأنا أخطِّط لأكونَ وزيرة؟ أيُّ تناقض هذا؟ هل يُعقَل أن تكونَ أسرة الوزيرة من الفلاحين؟ أصحيحٌ أنني وهي من مواليد برج واحد؟ سأسأل أمي عن تاريخ ولادتها وتاريخ ولادتي، إن تكذب البطاقة العائلية، فإنَّ ذاكرة أمي لا يمكن أن تكذبَ أبدًا.

تركني سلمان وعاد لضيوفه، جاءت بعده فضة، سلَّمت عليَّ، عانقتني بحرارة الفرح المشتعل في عينيها ووجنتيها، فرحُها أشعل غضبي، سألتها كيف ترضَين بالزَّواج من فلاح ابن فلاحين وأنت ربيبةُ المدينة؟ أجابتني بهدوء الواثق مما يقول ويفعل: أمِنَ العيب أن يكونَ الإنسان فلاحًا؟ وهل أنا وأنت سوى فلاحتين بنات فلاحين؟ هذا الفلاح ابن الفلاح هو ابنُ عمي، وأنا لا أشعر بالعار من انتمائي إليهم، ولا من العودة إليهم، بل أشعر بالفخر؛ لأني سأكون زوجةً للمحامي الذي

يُدافع عن حقوقي وحقوقهم، وأنا المعلِّمة التي تعلِّم أبناءهم؛ لترفعَ عن الأجيال القادمة سمةَ الجهل والتخلُّف، إن مشروعي في الحياة هو الارتقاءُ بمستوى قريتي؛ لأنافسَ بها وبأبنائها المتعلِّمين أعتى المدن، ألا تَرَينه مشروعًا يستحقُّ جهودي؟ أشعر بثِقَل حقِّ قريتي عليَّ، فعلى ترابها دَرَجت، ومنها تعلمت الأخلاقَ الفاضلة، والمحبَّة، ولا أجد ما أردُّ به الجميل لقريتي سوى تكريس حياتي وعلومي لأبنائها.

مرة أخرى أكتشف أن أختي كَبِرَت ونَضِجَت، تحدِّثني حديث امرأة عاقلة واعية، لكنني أرفضُ رأيها، أرفض ما تفعله بنفسها، فضَّة تعي ما لها وما عليها، حقوقٌ للقرية في عنقها كبَّلت نفسها بها راضيةً مختارة، ألم ينشأ على تراب تلك القرية سوانا؟ هذه القريةُ تربِّي أبناءها، وتربِّي الغنم والماعز أيضًا، الأرض أرضٌ منذ خلقها الله، والبشر يروحون فوق أديمها ويعودون، يعيشون ويشقَون، ثم يموتون؛ ليأتيَ غيرهم، أيُّ دَين علينا لتلك الأرض؟ أنا لا أدين بأمجادي إلا لنفسي، لا حقَّ عليَّ لأحد.

أنعمت النظرَ في وجهها المحاط بمنديل طويل، يحجُب كلَّ شعرها، بحثت عن أثرٍ لمساحيق الزينة، فلم أجد شيئًا، لكنَّ الفرح النابعَ من داخلها يعطيها من الجمال أضعافَ ما تُعطيه المساحيق، من أين جاءت فضة بكلِّ هذه الوداعة وهذا الاطمئنان؟

لعل صمتي شجَّعها على عرض المزيد من أفكارها، محاولةً إقناعي، قالت: نحن فلاحون يا أختي، ومهما انسلخنا من أثوابنا، ومن جلودنا، لن يعدَّنا سكَّان المدن منهم، انتبهي لنفسك يا أختي قبل فوات الأوان.

صكَّت ذاكرتي كلمات كاترين، وصوت الرفاق وهم يرفعون الكؤوس ويهتفون: بصحَّة الفلاحة، وكلام بديع فيما بعد، حين رأى شعرةً بيضاء في غُرَّتي، فضة مثلهم تعدُّني فلاحة، وتراني عجوزًا، خسئوا جميعًا، أنا الشابَّة الحسناء، ذات المنصب الكبير، سأظلُّ هكذا، شوكةً في عيونهم، تقول: انتبهي لنفسك قبل فوات الأوان؟ هل تريدني أن أتزوَّجَ فلاحًا مثل صطَّام؛ لأدفنَ حياتي وجمالي بين الغبار؟ ربما تغار مني أختي، تحسدني؛ لأنها لا تستطيع الارتقاء لمثل مجدي، فتحاول سحبي إلى القاع الذي استقرَّت فيه، خسئت فضة.

الفصل الرابع

لماذا تترامى عليَّ هذه المصائب كرَجْم الحجارة؟ حين ذهب أخي سلمانُ بالتقرير الطبيِّ أخبروه بأنهم استغنَوا عنِّي وعن خِدْماتي، وأن فتاة أخرى احتلَّت مكاني، لم يشأ أخي إبلاغي بهذا النبأ الفاجع؛ شفقةً وخوفًا على صحَّتي، لكني عَلِمتُه في اليوم الثاني لعودتي، ذهبت في اليوم الأول إلى عملي، استقبلني الرِّفاق استقبالاً باهتًا حِرتُ في تفسيره! كان الجميع يتبادلون فيما بينهم نظرات مُتسائلة، لم أكمل ساعات الدوام إلى نهايتها، بل انصرفت متذرِّعة بالصُّداع، ودخلت مكتبي في اليوم الثاني؛ لأجدَها جالسةً في مكاني، أشارت إليَّ بإصبعها للجلوس فما جلست، أخبرتني بأنها سمعت الكثيرَ عني، وأنها ستتخذ خطَّة للعمل تختلف عن خطَّتي؛ للارتقاء بعمل الحزب وامتداده جماهيريًّا، قالت: إنها تطمَحُ إلى جعل حزبنا منافسًا قويًّا للحزب الحاكم، ثم أمرتني بجمع حاجيَّاتي والانصراف.

هذه المراهقة الحمقاء ما الذي تفهمه من خطط العمل؟ لماذا تحتلُّ مكاني؟ وأنا... ما مصيري؟ قابلتُ كلامها بصمت مُطبِق، فهي أهون عليَّ من أن أردَّ عليها، خرجت من المكتب إلى مكتب المدير، سألته، بل لم يُمهِلني حتى أسأله، قال: إن القرار صدر من (فوق)، وأشار بسبَّابته إلى الأعلى، ثم بسط كفَّيه وهزَّ برأسه مشيرًا أنْ لا حيلةَ لنا في مثل هذا القرار، وأنا! أين أذهب؟ قال بلا اكتراث: اذهبي إلى بيتك.

خرجت من مقرِّ الحزب أتلفَّت حولي، ماذا أفعل؟ إلى أين أذهب؟ بمن أستعين؟ ضاقت الدنيا في عينيَّ، وأُسقط في يدي، أهل بيتي كلُّهم مشغولون بجهاز فضة، الفرح قاسمٌ مشترك بين الجميع، كلُّ أهل الحارة أصابتهم عدوى الفرح، فجاؤوا يهنِّئون ويباركون، وبقيت وحدي، خارج إطار فرحهم، بل خارج الحياة كلِّها، لم يسألني أحدٌ عمَّا بي، الكلُّ يظنُّ أن غيرتي من فضة هي السبب في مأساتي، ويقولون: لها عُذرها، فأختها التي تصغُرها بعشرة أعوام تزوَّجت قبلها، وهي عانس ما سمعنا خاطبًا طرق بابها، كنت أسمع همساتهن، وأرى إشاراتهن، فيتنامى قهري، لم تكتفِ النسوة بالهمس، بل تطوَّعت بعضهن بمواساتي، جئن يُطَبطبن على كتفي، ويبتهلن إلى الله أن يُرسلَ إليَّ عريسًا (أعمى القلب، مفتَّح العينين)، نصحتني بعضهنَّ بالتواضع في شروطي أمام من يتقدَّم لطلب يدي، مشيرات إلى

أن كِبَر سنِّي ما عاد يسمح لي بالأحلام، بل عليَّ القَبول بأول خاطب يتقدَّم إليَّ، وإلا أمضيت عمري كلَّه عانسًا، شرحن لي أن أمي لن تعمَّر إلى الأبد، ستموت لتتركَني عالةً على بيوت إخوتي، أخدُم زوجاتهم لقاء إيوائي!

فكَّرت في كلامهن، أصحيح أني سأكون عالةً على منازل إخوتي، أنا ما حسبت حسابًا لمثل هذا اليوم، لم أدَّخر القرش الأبيض لليوم الأسود، كنت أعطي جزءًا من مرتَّبي لأمي تنفقه على حاجات البيت، والباقي لزينتي وترَفي، ضاقت بي الدنيا، ضاقت نفسي، ضاقت أنفاسي فدخلتُ حالة إغماء.

ركض أخي سلمان، حملني على ذراعيه إلى سيارة الأجرة، وسارع إلى المستشفى، بعد إجراء الفحص اللازم أخبره الأطبَّاء بأني لا أعاني أيَّ مرض، ولكنها صدمةٌ نفسيَّة، أعطَوني بعضَ المهدِّئات التي جعلتني أستسلم لنوم ثقيل كالموت، صحَوتُ منه في الصباح التالي؛ لأجدَ أخي سلمان واقفًا عند رأسي، يرقُب يقظتي، أخي سلمان يفهم أسبابَ صدمتي، ويُدرك أبعادها، أخبرني بأنه يعلم كلَّ شيء عن عملي، واستغناء الحزب عنِّي، وقال: إنه سيُساعدني في البحث عن عمل جديد أحقِّق فيه كِياني، وأقبض مرتَّبًا يفوق ما كنت أحصل عليه، وقال: إن من اعتاد أن يعطيَ لا يمكن أن يمدَّ يده ليأخُذَ، هو متفهِّم تمامًا لشعوري بكرامتي، قال وقال ثم قال، أدهشني بسَعَة اطِّلاعه،

وباهتمامه بتفاصيل حياتي، ما كنت أظنُّ أن أحدًا يُدركها، عانقته ورحت أبكي، لا أعرف، هل أبكي من ألم مُصابي، أو أبكي فرحًا بوجود إنسان قريب مني مهتمٍّ بأمري؟ هل أبكي؛ لأني اكتشفت روعة الأخوَّة؟ في الحقيقة كلُّ هذا اجتمع في صدري، فلم أجد لي منه مخرجًا سوى البكاء.

تدخَّل الطبيب، أمر أخي بإبعادي عن كلِّ انفعال؛ حرصًا على راحتي وهدوء أعصابي، هدَّأني أخي، عانقني، وبقينا هكذا متعانقَين حتى انتهيت من البكاء، أضجعَني في سريري، ثم خرج من الغرفة بناء على توجيهات الطبيب.

في المساء عاد، أخبرني بأنه قدَّم أوراقي إلى مديرية التربية؛ لتعييني معلِّمةً في المدارس الثانوية، لكن جواب طلبي قد يطول شهورًا، لا بأس في تلك المدَّة من العمل معلِّمة وكيلة، أغضبني هذا الكلام، من سمح لسلمانَ بتقرير مصيري؟ لماذا يدفعُني للسير على خطوات فضة؟ أنا لا أحبُّ العمل بالتعليم، لا أريد الهبوطَ إلى هذا الدرك؛ لأمضيَ نهاري بين تلاميذَ أغبياء، بعدما كنت ملكةً يركع بين يديها كبارُ رؤوس هذا البلد، استمعت إليه بصمت، وكظَمتُ غيظي، سأُمضي هذه الليلة أيضًا في المستشفى، بعيدًا عن فضة وعرس فضة، لم يخبرني سلمان بأنه تركني ليلة أمس هنا؛ ليلحقَ بالعُرس، وليقفَ مع أخيه بكري وأعمامه في وداع فضة، وليكونوا لها عُصبةً تشدُّ الظهر، وترفع

الرأس. سارت الزفَّة في أزقَّة الحارة بصمت؛ تعاطفًا مع وضعي، وحين وصل الموكبُ إلى الشارع الرئيس حيث تصطفُّ السيارات، انطلق الفرح من عِقاله، ملأت الزَّغاريد الحارة، وانتشرت في الحارات المجاورة، ركب المدعوُّون السيارات، ثم انطلقوا إلى القرية، واستمرَّ العُرس سبعة أيام بلياليها، هذه فرحةٌ لم تشهد القريةُ مثلها من قبل، المحامي يتزوَّج الآنسة، وكلاهما أبناء عشيرة واحدة، وأمضَيتُ أنا تلك الليالِيَ في قهر وبكاء.

أقفلت بابَ الدار بوجه الجارات، عطَّلت الجرس الكهربائي، لا أريد رؤيةَ أحد، أخي سلمان يحمل مفتاحًا للباب، يفتح به وقت دخوله، ويغلق بعد خروجه، يردُّ على أسئلة الجارات بأن أمي في القرية لم ترجع بعد، ولا يذكر شيئًا عن وجودي هنا في البيت.

طالت بي الأيام، قهرٌ وبَطالة، إحساسٌ بالتفاهة والفراغ ما مرَّ بي من قبل، كرهت نفسي، عِفتُ زينتي، ثيابي تغيَّر شكلها، أنا لا أُتقن كيَّ الثياب، ولا نقودَ في يدي أدفعها لصاحب الدكَّان؛ ليكويَها لي، شعرت بأني لا أختلف عن المتسوِّلات بشيء، تمنَّيت لو أجد أيَّ عمل يشغَلُني وأكسب منه عيشي، لكني لا أستطيع عملَ شيء، لقد قتلني الغرور، لعنت الأستاذ محرزًا آلاف المرات، لعنت المصادفة التي جمعتني به؛

ليجرِّدَني من براءتي وتواضُعي، ويزُجَّ بي في جحيم الكِبْر، فلا أعود أستسيغ الحياةَ مثل باقي الأحياء، لعنت الآنسة منيرة وقوانينها، لو أنها رضيت بدخولي مدرستها، لأكملتُ تعليمي، وتخرَّجت مثل كلِّ البنات، ومثل فضة.. ولكن ما ينفع اللعن؟ ما ينفع النَّدم؟ لولا غروري لاشتغلت في أيِّ مصنع ريثما أجد وظيفةً تناسب شهادتي، وما خَلَت يدي من النقود، لمن أمدُّ يدي؟ لا أستطيع مدَّها لأحد أبدًا، أمي تعلم بحالي، لكنها لا تملك شيئًا لتُعطيَني، أخي بكري أعطاها هذا الشهر نقودًا لا تكفي لنفقة البيت، مع كَومة من الكلام المسموم، حقنه في وريدي؛ شماتةً بوضعي، شماتةً ببَطالتي وإبعادي عن الحزب، تلقَّيته بصمت ولم أجب، أخي سلمان يعمل بائعًا للأدوية في إحدى الصيدليَّات مساء، وفي النهار يتابع محاضراته في كليَّته، دخلُه من الصيدلية لا يكاد يكفي نفقاته، فما الذي ننتظره منه؟

حاولت ملء فراغي بأيِّ شيء، بالقراءة، لكنني ما عدت أُطيق كتابًا ولا مجلة، كلُّ شيء من حولي كاذب؛ الإعلانات والأبراج، ونشرات الأخبار، وشعارات الحزب، كلُّها كذبٌ في كذب، حتى عواطفُ أمي ما عدت أصدِّقها، ليس سوى سلمان من يَصدُقني القولَ والفعل، أحببته، تعلَّقت به تعلُّقَ طفلة بكفِّ أبيها وسط الزِّحام. وصبر عليَّ، مضت أيام، تلتها شهور وشهور، وأنا غارقةٌ في تفاهتي، غارقةٌ في بَطالتي وقهري، في

كآبتي وعُزلتي، ما عدتُّ أطيق أمي ولا جاراتها، ولا أطيق البيت، أخرجُ في بعض الأيام، أتسكَّع في الشوارع وحدي، ثم أعود مُنهكةً خائرة القوى، أحاول النوم، سُهاد بغيض يسيطر عليَّ، لا هو بالنوم ولا اليقظة، أتحاشى المرورَ بالشارع المؤدِّي إلى مقرِّ الحزب؛ خشيةَ اللقاء بأحد ممن كانوا رفاقي، أتحاشى اللقاء بزائرات أمي؛ هربًا من مواساتهنَّ وشفقتهنَّ على حالي، ومحاولاتهنَّ تخفيفَ غيرتي التي جعلتني أغيب عن عرس فضة، ولا أزور بيتها؛ هربًا من ابتهالهنَّ إلى الله أن يعجِّلَ لي بعريس لا يرى منِّي ما يجعله يعدل عن الارتباط بي، سئمت كلَّ شيء، كلَّ شيء.

عانس؟

نعم، أنا عانس، سقطت كلُّ الصفات الرسميَّة لشخصيَّتي، سقطت كلُّ الهالات المضيئة التي كانت تُحيط بي، وبقيت لي صفةٌ واحدة: عانس، عمري الآن تجاوز العِقدَ الثالث بسنوات ثلاث، بل أربع، قبل أيام مرَّ بنا رأس السنة، فزاد على عنوستي رقمًا، البناتُ في حيِّنا وفي قريتنا تتزوج قبل الخامسةَ عشرةَ، إلا من كانت في المدرسة، ينتظرونها حتى تتخرَّج، لكنها لا تمكُث طويلاً بعد تخرُّجها، بل غالبًا ما تُخطَب قبل ذلك أو تتزوَّج، وأنا؟ ماذا جنيت؟ لماذا لم أتزوَّج؟ لا أدري، في الحقيقة ما كان الزواج مشروعًا على لائحة برنامج حياتي.

كنت أطمح للوصول إلى صفة امرأة متحرِّرة، وما كنت أعلم من أيَّة قيود يجب أن أتحرَّر، كنت أبحث عن امرأة متحرِّرة أتخذها قدوة، أنظر إلى نهايتها؛ لأبدأَ من حيث انتهت، فأكملَ مشوارها، فلم أعثُر على ضالَّتي، أقرأ في المجلات أخبارَ الفنَّانات، وأرى صورهنَّ، تعجبني وجوههن وأجسادهن، ثم أقرأ عن فنَّانات وصلن إلى عمر متقدِّم، فانزاحت عنهن الأضواء؛ ليمُتنَ حسرةً وقهرًا في عزلة عن الناس، المجتمع ينبذهنَّ، أولادُهنَّ يتخلَّون عنهن، إن كان لهنَّ أولاد، هؤلاء لا يشرِّفهم الانتساب إلى أم أضاعت عمرَها أمام الكاميرات وخلفها، تعرض جسدًا ما إن فقد نضارته حتى انطفأت من حوله الأضواء، ويأخذهنَّ الموت، فلا يدلُّ على موتهنَّ إلا رائحةُ تفسُّخ أجسادهن تفوح في الحيِّ، فتزعج الجيران، وتأتي الشرطة فتكسر الباب، وتأمر بدفن الجثَّة المتفسِّخة، ثم يُنشر خبرٌ في زاوية إحدى الصحف يُنبئ عن وفاة الفنَّانة العظيمة، ذات التاريخ الحافل، وربما يُقام لها حفلُ تأبين، وتُعرَض بعض أعمالها من جديد.

لا... لا أريد لنفسي مثلَ هذه النهاية، لكنِّي أريد التحرُّر، سميحة عجوزٌ في عِقْدها السابع، لم تكن فنَّانة، ولكنها اشتغلت في السياسة، وتدرَّجت في المناصب، كان كلُّ من حولها يستمع إليها معجبًا بطول باعها وقِصَر تنُّورتها، ويرتجف أمام قراراتها

الحاسمة الحازمة، التي لا تقبل نقاشًا أبدًا، وحين تقاعدت...

حين تقاعدت سميحةُ ما استطاعت الرُّكونَ إلى حياة البيت، بعد إدمانها التنقُّلَ والسفر، وغَشَيانَ المحافل العامَّة، وفرض الأوامر التي لا تُطبَّق في الواقع، ظلَّت تذهب إلى حيثُ كانت تذهب، تترك بيتها وأولادها الذين تربَّوا وكَبِروا في حَضانة جدَّتهم بعيدًا عنها، تترك زوجها الذي لم يُطِق كثرةَ غيابها عن بيتها، فعافَها وتزوَّج بأخرى، ما زالت سميحة تُستقبَل في المحافل العامَّة بمهرجان من السُّخرية مقنَّع بغشاء من الاحترام المبالغ في إظهاره تهكُّمًا، يلتفُّ حولها شُبَّان من طلاب المدارس والجامعات، بعمر أولادها، بل أحفادها، يكيلون المديحَ لجمالها، لتسريحة شعرها التي ما تغيَّرت منذ إنشاء السدِّ العالي، يمتدحون رشاقتها وخفَّة حركتها، وتصدِّقهم، تنتشي لهذه المدائح، ويغرقون هم في أمواج الضحك.

سميحة هذه ليست قدوتي، لا أريد نهايةً مثل نهايتها، ماذا إذًا؟ لا أدري، ضياع... خَواء... بماذا أسمِّي حالتي؟ لكن الأملَ ما زال يصارع اليأس في صدري؛ لأكونَ مثالاً مميزًا تحذو حذوَهُ النساء، لكني لا أعلم حتى الآن كُنْهَ هذا المثال.

عانس؟

كلمة فظيعة، سِربال أسود رأيتني فجأة واقعةً في حبائله، إلى أين أهرب؟ عانس؟ أنا عانس، صرت في مدَّة قصيرة، هي

المدَّة الفاصلة بين خِطبة أختي وعُرسها، صرت مثلَ أية فتاة عانس، ضاق البيت على جسدي وروحي، أُبعدت عن عملي، وصرت بحاجة إلى من يُنفق على طعامي ولباسي، تبدَّلت أخلاقي، تعكَّر مِزاجي، هرب مني الفرح، كما هربت ثقتي بنفسي، صرت أثورُ لأتفه الأسباب، أمي تفرش سَجَّادتها في المسافة الفاصلة بين غرفتي وغرفتها، تصلِّي وتدعو الله بصوتٍ مسموع أن يعجِّلَ بزواجي، صوتها ينزل على أعصابي كالمسامير، تثقُب جدارَ صبري، أُمسك لساني بُرهَة، ثم أنفجر في وجهها: لماذا تستعجلين؟ أما بقيَ في بيتك متَّسعٌ لجلوسي؟ أما عدت قادرةً على الصبر حتى أجدَ عملاً أكفيك منه نفقتي؟ لا تجيب على كلامي، لكنها تواصل الدعاء إلى الله، وتبكي بحرارة، بمرارة، أن يهديَني إلى طاعتها؛ حتى لا تغضبَ عليَّ غضبة تُدخلني النار.. أتركها لصلاتها، لبُكائها، أسحب قهري وأخرج من البيت.

أبحث عن عمل، تتلقَّفني الشوارع، تُذكِّرني بمجدي الذي ضاع، فأربأ بنفسي عن عمل لا يوازي في أهميَّته ما كنت عليه، وأواصل البحث، مديرية الثقافة تُعلن عن حاجتها إلى موظفين، أتقدَّم إليهم بطلب وأنتظر.. طال انتظاري، تقدَّمت بطلب آخرَ إلى مديرية المالية، ثم الشؤون الاجتماعية، والتأمينات، وإلى البلدية، ورحت أنتظر، أتسكَّعُ نهاري في الشوارع، أركض من

مديرية إلى أخرى؛ لأتلقَّى جوابًا واحدًا، بل طعنة واحدة: انتظري، وأنتظر، أعود إلى أمي؛ لتُواجهَني بوجهها الغاضب تارة، المشفق تارات، تسألني: ألم تجدي عريسًا؟ وهل خرجتُ للبحث عن عريس؟ أرجوك يا أمي دعيني وشأني، لا أريد الزواج، ينفجر بُركان غضبها في وجهي: إلى متى؟ ويأتيني تهديدُها في كلِّ يوم: إن لم تتزوَّجي في هذه السنة، سأستعين بأعمامك؛ ليجدوا لك زوجًا من القرية، ما عدت أُطيق وضعَك هذا، ما عدت أتحمَّل أسئلةَ الجيران، أتفهمين؟

لا... إني لا أفهم، لا أفهم أبدًا كيف انقلب عليَّ وجهُ أمي الآن؟ الآن فقط اكتشفت أمي بأني عانس؟ لقد تأخَّرتِ كثيرًا يا أمي، أأنا ابنتها الجميلة المدلَّلة؟ إني أشكُّ في ذلك، أهذه هي أمي التي كانت تجلس مع إخوتي في غرفةٍ واحدة من الدار، وتترُك لي الغرفة الأخرى؛ لأمارسَ غروري كما يحلو لي، أنام وأصحو، أخرج من المنزل وأعود، كلُّ ذلك وفق مزاجي، لم تسمح لأحد منهم يومًا بمساءلتي عن شيء أبدًا، لماذا؟ لماذا؟

لماذا؟ لأني عانس؛ لأني كتلةٌ زائدة في هذا البيت، ولا ينبغي أن أكونَ هنا، أم لأني قطعت عنها النقودَ التي كانت تجري في يدها من مرتَّبي؛ لأني كنت بعملي السابق موضعَ فخرها بين الجارات، والآن جرَّدتني من هذا الفخر؛ لأن أختي صارت آنسة، وهي زوجةٌ للأستاذ المحامي، انتقلت مناقبي كلُّها

إلى فضة، وما عدت أَسرُّ أمي حين تنظر إليَّ؛ لأني عانس، ألا يكفي هذا؟

حقًّا أسأل نفسي: لماذا لم أتزوَّج؟ ثم أعود لأسألَ نفسي: من الذي تقدَّم لخِطبتي؟ اثنان من شبَّان قريتنا، لم يُكمل أحدهما تعليمه الابتدائي، وثالثٌ من أولاد الجيران، يعمل جابيًا في مصلحة المياه، يمضي نهاره بين بيوت المدينة، يسجِّل أرقام (عدَّادات) الماء، لمَّحَت أمه لخِطبتي، بل قد صرَّحت بسؤال قاطع كحدِّ السيف: هل أنت مثبَّتة في وظيفتك؟ ابني يريد الزواج بموظفة مثبَّتة تُعينه في نفقات البيت، أمه جاءت تخطُب مرتَّبي، وحين علمت بأني لست مثبَّتة، صرفت النظر عني، أهذا ما أستحقُّه من الحياة؟ أهذا هو نصيبي؟

أشكر من قلبي هذه الجارة، لقد لفتت انتباهي إلى شيء غاب عن فكري، ما معنى موظفة مثبَّتة؟ سألت الدكتور فارسًا، أجابني بأن العمل في المنظَّمات لا يعدُّ من سنوات الخدمة التي يحقُّ للعامل تقاضي مرتَّب تقاعديٍّ بموجبها، إلا إذا كان مسجَّلاً في التأمينات. ساعدني في التسجيل لدى مديرية التأمينات الاجتماعية، وأخبرني بأن هذه المنظمةَ سوف تستغني عني، عاجلاً أو آجلاً؛ لذا يجب البحثُ عن عمل آخر، أُكمل به سنوات خدمتي في الدولة؛ لأستحقَّ راتبًا تقاعديًّا.

غاظني كلامُه، غاظني حديثُه الدائم عن مثالب الحزب، وعن

حتميَّة استغنائه عني، كيف يستغني عني هذا الحزبُ وأنا المؤمنة بجميع مبادئه، العاملة بنشاط وجدٍّ في كلِّ مَيدان يُطلَب مني العمل فيه؟ لكنني كتمت غيظي، وامتثلت لما اقترحه الدكتور فارس، وسجَّلت اسمي في سجلِّ التأمينات.

بعدما أوشك الانتظارُ على قتلي، بعدما مات لديَّ كلُّ أمل في الحياة، وصرت قابَ قوسين من تنفيذ أمي لتهديدها، جاءني أخي سلمانُ بالبِشارة، نتائج المسابقة التي تقدَّمت إليها قد أُعلنت، وها هو ذا اسمي يندرج في قائمة المعلِّمات المعيَّنات في ريف الحسكة.

حزنت أمي، فالحسكةُ محافظة بعيدة، تقع في أقصى الشمال الشرقيِّ من سوريا، تبعد عن حلبَ مسافة خمس ساعات بالسيارة، وحزنت من أجلي؛ لأني سأسكنُ في الريف بعدما اعتدت ترَفَ المدينة، ولأني لا أُتقن من أعمال البيوت شيئًا، ولا أقدر على خدمة نفسي، بكت أمي، لكنني وجدتها فرصةً ذهبية، أبتعد بها عن أمي، وعن شفقة جاراتها على ابنتها العانس، أبتعد عن مقرِّ الحزب الذي خذلني، وأرمِّم فيها من شخصيَّتي ما تهدَّم؛ لأستعيدَ تكويني من جديد.

أفرحني الخبر، فقمت أُلملم ثيابي وأدواتي؛ استعدادًا للرحيل، سأسكنُ في قرية بعيدة، ربما أجد فيها فرصة لأنظرَ داخل نفسي، فأكتشفَ أخطائي، ربما أجد طريقًا يوصلني إلى

حقوقي، سأسافر، لو لم أجد في غربتي من شيء سوى البعد عن أختي فضة، التي اغتصبت مكاني في عيون الجميع وقلوبهم، لكان ذلك كافيًا، لا أريد فضة، لا أريد رؤيتها لا أريد!

فضة؟ ما ذنب فضة؟ أختي لم تُؤذِني بشيء، ربما أحسدُها، ربما أغار منها، بل إني أحسدها حقًّا، هذه البُنيَّة التي ما كانت تملأ عيني، عرفت في وقت مبكِّر طريقَها الصحيح في الحياة، وانعكس ذلك هدوءًا في حركاتها وطُمأنينة في وجهها، وفرحًا دائمًا تنثره أينما حلَّت، في حين أحمل أحقادي وقهري، أنوء بها وحدي، ولا أجد مواسيًا.

فضة تلتفُّ الجارات حولها كلما جاءتنا زائرة، يسألنها النُّصحَ في أدقِّ تفاصيل حياتهنَّ اليومية، ويمتثلن لتوجيهاتها، أشعر بأني أكرهها وأكرههنَّ من أعماق قلبي، أترك البيت وأمضي للتسكُّع في الشوارع، أعود بعد الغروب؛ لعلمي أن فضة لا تنام خارج بيتها أبدًا، أعود بعدما تسافر؛ لأمضي ليلاً مؤرِّقًا باكيًا، أسأل نفسي: هل أكره أختي حقًّا، أو أني أكره نفسي؟ يأتيني صوتٌ كالرَّعد قادم من أعماقي: أنت تكرهين فشلك، أنت فاشلة فاشلة.

كثيرًا ما تنتهز أختي فرصةً للانفراد بي، تلومُني على ظلمي لنفسي، توصيني بتقوى الله، تقول: إن طريق الحياة أمامي ما

زال في بدايته، تشجِّعني على اختيار درب يقنعني ويرضي ضميري، تُلحُّ في قولها: إن العلم الذي تعلَّمناه هو أمانةٌ في أعناقنا، ولا بدَّ أن نوصلَ الأمانة لمستحقِّيها من أبناء بلدنا. وتقول: إننا سنُسأل يوم القيامة عن عمرنا فيما أفنيناه، وعن علمنا ما فعلنا به. أستمع إليها مُكرهَة، وكلما ذكَّرتني فضة بتقوى الله، قفزت إلى ذاكرتي تلك السهرةُ الصاخبة في عيد حزبنا، أثور في وجهها، وأغالب صرخةً تكاد تشقُّ صدري: أن اسكُتي، لا أريد نصحًا من أختي الصغرى، وأبلع صرختي في كلِّ مرة، ثم أخرج من البيت؛ لأهيمَ على وجهي.

أوصلني أخي سلمان إلى المدرسة، تعرَّف المديرَ، وتحدَّث إليه طويلاً، اكتشف أن المدير ينتمي إلى فخذ من عشيرتنا، أوصاه بي خيرًا، ثم سافر وتركني، بقيتُ في المدرسة مع المدير ومجموعة من المعلمات جئنَ من محافظات مختلفة، لم أشعر بالارتياح إلى أيَّة واحدة منهن، تذكَّرت عزمي على بناء شخصيَّتي من جديد، عدلت عن تكبُّري، وحاولت الاندماج معهنَّ، فالسنة الدراسية في أولها، والتلاميذ لمَّا يكتمل عددُهم، معظمهم غادر القريةَ مع أسرته إلى مزارع القطن، ولن يعودوا حتى ينتهيَ موسم القِطاف، أمامي مدَّة طويلة، فلمَ الاستعجال؟

كثير هو الجهد الذي بذلته للتلاؤم مع الجوِّ الجديد، لكن جهودي ضاعت سدًى، فالخبر الذي يُضحكهنَّ لساعات، ثم

يتذكَّرنه بعد أيام، فيضحكن له كضحكهنَّ أول مرة يمرُّ على مسمعي ولا يُلامس شعوري، أرى كلَّ ما حولي سخيفًا متخلِّفًا، بيوت الطين مثلها في قريتي، والسهول الغبراء لا تختلف عن سهولنا، الدجاجات تتجمّع في الزّوايا الظليلة بين البيوت؛ اتقاءً لقَيْظ شهر أيلول، والنساء تتجمَّع مثلها، يَنْشُدنَ الثرثرة وبرودة الهواء الخريفيِّ خارج الغرف المغلقة، لا حديثَ يدور من حولي يشدُّني للاستماع أو المشاركة، ولا خبرَ سوى أخبار من تزوَّج، ومن ينوي الزواج، من ثنَّى زوجاته ومن ثلَّث، من ولدت من النساء ومن هي حامل، وعاودتني الكآبة.

الشيء المختلف في هذه القرية هو بيتُ المدير؛ إذ ينتصب على ربوة كأنه القلعة، مشيَّد بالإسمنت والحديد، مسقوف بالآجرِّ الأحمر، شُرفاته النافرة ملوَّنة بلون الزهر، نوافذه مغطّاة بستائرَ حريرية صفراء، تسطع في الليل بضوء يبهر العيون، الضيوف عند بابه كطابور النمل، يلتقي الداخلون بالخارجين، وكلُّهم يبغي عونًا من المدير في قضية تعسَّرت في دائرة من دوائر الدولة، في حين تخرج زوجتاه من البيت كباقي نساء القرية، يرتدين الثيابَ الطويلة، ويَنشُدنَ الثرثرة وظلال الجدران.

في المدرسة غرفةٌ مفرَّغة لسكن المعلمات، فُرشت بسَجَّادة كبيرة، وجيء من بيوت القرية لكلِّ آنسة بفِراش ووسادة ولحاف، أضاف إليها المدير موقدَ غاز، ومجموعةً من الأطباق

والأكواب والملاعق والقدور، وأجرى لهنَّ مؤونة من بيوت التلاميذ.

كانت الآنساتُ يمضين وقت الاستراحة (الفرصة) بين الدروس في الضَّحك، كل واحدة تحكي لزميلاتها ما سمعته من تلاميذها في الفصل، يقلِّدنَ اللهجَة البدوية التي يتحدَّثها التلاميذ، هذه اللهجةُ لا تضحكني، هي لهجةُ أهلي في القرية، ولهجة أمي وإخوتي، أنا وحدي غيَّرت لهجتي، وتعلَّمت لهجة كاترين، لا أجد في هذه اللهجة ما يُضحكني، فأظلُّ على هامش اجتماعهن وحكاياتهن غريبةً وحيدة ضائعة، ويكملنَ حديثهنَّ بعد انصراف التلاميذ. وفي أثناء التحضير لوجبة الغداء والعشاء، تتفنَّن كلٌّ منهن في إنجاز الصِّنف الذي تحبُّه، وأقف بينهن حَيرى، لا أعرف كيف أساعدهنَّ، ولا أتقن طبخَ طعام أنفرد به وحدي، ويستمرُّ الحديث والمُزاح بينهن حتى يأخذَهنَّ النوم عند انتصاف الليل.

تنبَّه المدير لحالي، حاول الدخولَ معي في حديث، سرَّتني منه هذه المبادرة اللطيفة، راح الحديث بيننا يجرُّ حديثًا، وتنوَّعت الموضوعات، بين السياسة والاقتصاد والأخبار العالمية، وتوالت جلساتنا في غرفة الإدارة يوميًّا، طوالَ الأسبوع الأول من المدرسة، بعدها سافر المدير لا نعرف إلى أين، وعاد بعد يومين برفقة أخي سلمان، انتحى بي سلمان

بعيدًا عن الأسماع، وأسرَّ لي بأن المدير خطبني منه، وأن ردَّه متوقِّف على رأيي، قابلته بالصمت، راح فكري يدور ولا يهدأ، ما كنت أرغب في الزواج بالطريقة التقليدية، كنت أتمنَّى أن تجريَ بيننا قصَّة حب، كتلك التي كنت أقرأ عنها في المجلات، وتدور في فلكها حركةُ الأبراج، بطلاتها نجماتُ الفن والمجتمع، وأنا أعدُّ نفسي بمنصبي الذي أولانيه الحزب نجمةً من نجوم المجتمع، لِمَ لا يجري عليَّ ما يجري عليهن؟ لكني ما وجدتُّ طَوالَ مدَّة عملي في الحزب فرصةً للحب، ولا للزواج، كلُّ الرجال الذين كانوا حولي متزوِّجون، تلتزم زوجاتهم البيوتَ مثل أمي، ما وجدت فرصةً للحب؛ لأن حبًّا واحدًا ملأ عليَّ فؤادي وكِياني، هو حبِّي لنفسي، والآن هل أبحث عن الحبِّ وقد بلغتُ من العمر ما بلغت؟ ما بقي في الحياة متَّسع لهذا التَّرَف.

لا أدري هل أوافق؟

إن صحبة رجل مهتمٍّ بالسياسة والشأن العامِّ مكسبٌ كبير بالنسبة لي، ولكن هل يتماشى زواجي منه مع ما يكمُن في نفسي من طموح؟ لا أعلم، على كلِّ حال، سلَّمت أمري لأخي سلمان يفعل ما يشاء، الزواج خيرٌ من العنوسة، بعد هذا المقلب الذي تلقَّيته من الحزب، وخيرٌ من شماتة الشامتين من حولي.

هذا المدير يقدِّرني حقَّ قدري، يحبُّ فيَّ ذكائي واهتمامي بالقضايا العامَّة، ويقدِّر خبرتي في الحياة، ما أظنُّه يضَنُّ عليَّ بتحقيق طموحي الذي حالَ الحزب بيني وبين تحقيقه حين استبعدني وأجلس في منصبي تلك المراهقةَ الساذجة. شيء آخر يُسعدني في هذا الزواج، سيكون زوجي مديرَ المدرسة التي أعمل فيها، ولا بدَّ أن يعفيَني من الدوام فيها، وينقذَني من مواقفَ محرجة تُثبت إخفاقي في شرح الدروس مرَّة بعد مرَّة، أمام صبيان وبنات قريته، وسيُسكنني في قصره، بعيدًا عن زميلاتي اللاتي لا يسكتن عن الضَّحك والهزل أبدًا.

وتزوَّجت المدير، رافقت أخي سلمان إلى القرية، ولحق بنا الخاطبُ مع جمهرة من وجوه عشيرته، أقيمت الولائم، وعلت الزغاريد، شعرتُ بالفرح، لأول مرَّة في حياتي أشعر بفرح حقيقي، هو فرحي، وأن كلَّ ما كان هناك في مكاتب الحزب كان كذبةً كبيرة، صدَّقتها حتى رمَوا بي خارج عالمهم بركلة واحدة، نفَّذوا من خلال شبابي وجمالي وغبائي ما يريدون، والآن جاء دورُ غيري.

عشرة أيام، اشتريت فيها ما يلزم لجهازي، عاد بعدها المديرُ مع وجوه عشيرته وبعض النساء؛ لاصطحابي في موكبٍ إلى قريته، حيثُ اقتصر العرس هناك على وليمة كبيرة، وزغردة النساء، وإطلاق (العيارات) النارية. ذهب كلٌّ إلى بيته قبل

غروب الشمس، ودعاني زوجي إلى الغرفة المخصَّصة لي من قصره، كانت غرفةً واسعة مفروشة بالسَّجَّاد، تحيط بها الوسائد المغطَّاة بالقَطيفة، وفي زاويتها فِراش مُدَّ على الأرض.

أنا أنام على الأرض؟ هذا ما لا يمكن أن يكون، لقد اشتريت سريرًا لي من أول مرتَّب قبضته، وما نمت بعدها إلا على السرير، أأنامُ ليلة عرسي على الأرض؟ إن هذا غبنٌ لا أتحمَّله، عاد زوجي من وداع ضيوفه؛ ليجدَني حزينةً باكية، طالبته بسرير، ضحك بملء فيه ووعدني بإحضار السرير في صباح الغد، ولو كان في قريته محلٌّ لبيع الأثاث، لاشتراه ليَ الآن قبل الصباح.

مضى أسبوعي الأول وأنا أشعرُ بسعادة لا توصَف، سعادتي تتضاعف كلَّ يوم، بل كلَّ ساعة، غمرني زوجي بلطفه وحنانه، غمرني بالهدايا، أجلسني بجانبه في سيَّارته، اصطحبني إلى أرقى المطاعم والحدائق في مدينة الحسكة، كان دائمَ الاهتمام بكلِّ كبيرة وصغيرة مما يخصُّني، وتأتي زوجتاه كلَّ صباح، ترتِّبان الغرفة، وتُحضِران فطورنا، ثم تنصرفان بصمت، لا تبدو عليهما آثارُ الغَيرة، بل احترامٌ شديد مَشوب بالحذر، كانتا تُخاطبانني بالآنسة.

في الصباح التالي أوصى زوجي من يُحضر لي من المدينة أثاثَ غرفة نوم كاملاً، في الضحى وصل الأثاث، خزانةٌ كبيرة

لثيابي، مع سرير وثير، وطاولة للزِّينة، تعلوها مرآةٌ واسعة، سرَّتني سرعتُه في تلبية طلبي، فما عدت أعرف كيف أُبدي فرحي؟ زوجي يجلسُ على الأرض، وأجلس على الكرسيِّ أمام مرآتي، أرتدي ثيابَ النوم الشفَّافة، التي ترتديها نساء حلب، وفي قدميَّ حذاء مُرصَّع بخرزات لامعة تكسر النور، يتابع حركاتي وأنا أعدُّ زينتي في الصباح، يسألني عن أسماء الأدوات واستعمالها، عن أنواع المساحيق ومفعولها في وجهي، كان يكتشف عالمي باهتمام لذيذ، جعلني أنسى كلَّ ما مرَّ في حياتي من قهر وغضب وإهمال.

كنت سعيدةً، وكان سعيدًا، يتأمَّلني بشغف من امتلك تحفةً نادرة، وما كان يظنُّ نفسه جديرًا بامتلاكها، وأنظر إلى نفسي من خلال عينيه، فأراني أسعدَ من مشى فوق تراب هذه الأرض، منذ خُلقت الأرض، كان ملازمًا لي، لا يُفارقني ساعةً من ليل أو نهار، فرحت بوضعي الجديد، سعدت بامتلاكي هذا القصرَ العظيم، فرحت بزوجتيه تقومان على خدمتي، وتحملان عنِّي كلَّ همٍّ ومسؤولية تجاه هذا القصر الكبير.

انقضى الأسبوع الأول، خرج زوجي منذ الصباح إلى مدرسته، انتظرتُ عودته عند الظهيرة فما عاد، انتظرته في المساء، داهمني خوفٌ وحزن، وأنا في غرفتي، مغلقة البابَ على نفسي، كنت أسمع جَلَبَة تدور في الطابق السُّفلي من

قصري، لكنها لا تعنيني، لا بدَّ أن زوجتيه هنا، تنظِّفان المكان، وتُعيدان ترتيب الأثاث.

انقضى الليل، طبَقُ الطعام في زاوية الغرفة، لم آكُل منه طَوالَ النهار سوى لُقَيمات تُسكت صريرَ معدتي، انتظرته ولم يأتِ، أفكار متناقضة كحبَّات رمل في كَثيب بالعراء تعبث بي، أتُراه ذهب إلى المدينة وأصيب بمكروه؟ أتُراه سافر ولم يخبرني؟ كيف يُطيق البعدَ عني ساعة، وأنا ما عدت أرى من الدنيا سوى عينيه؟ لماذا يعذِّبني هكذا؟ أتُراني أخطأت في تصرُّفي معه؟ زوجتاه لم تطرُقا بابي طَوالَ النهار، في الصباح جاءت إحداهما، قدَّمت إليَّ طبق إفطاري وانصرفت، لم تسألا عني بقيةَ اليوم، تُرى أين هما؟

الفجر يمدُّ خيوطه الأولى إلى الأرض، والدِّيَكَة تتصايح من هنا وهناك، رفعت السِّتارة عن النافذة، ووقفت أرقُب المشهد، فَتحُ الباب بهدوء أجفلني، التفت وأنا أُطلق صرخةَ خوف، دخل زوجي (حمدوش) ضاحكًا مستبشرًا، ألقى تحيَّةَ الصباح، ثم عاتبني بمودَّة على خوفي، فالبيت أمان، والقرية أمان، لا مشاكلَ هنا ولا خوف.

- حمدوش، أين كنتَ منذ الأمس؟

- هنا، في البيت.

- لكني ما رأيتُك، أين كنت؟ هل نسيتني؟ قلتها وبكيت.

- كنت هنا، ولو خرجتِ من غرفتك، لرأيتِني، لا تبكي، لا يليق بمثلك البكاء.

- لماذا تركتَني طوالَ الليل وحدي؟

- تركتك؟ ظننتُك تعرفين! حقُّك الشرعي هو الأسبوع الأول من زواجنا، أسبوعٌ كامل وقد انقضى، وصارت أيامي موزعةً بالتساوي بينك وبين ضَرَّتيك.

- لماذا؟ أنا أريدك لي.

- هل تظنِّين أنك تزوجت شابًّا عَزَبًا؟ هيا، كفاك دلالاً، جهِّزي نفسك لتذهبي إلى المدرسة.

- المدرسة؟ لا أريد المدرسة، دعني أرتاح أسبوعًا آخر، والأفضل أن أرتاحَ من المدرسة دائمًا، ألستُ مدعومة؟ ألستُ زوجةَ المدير؟

- نحن في الفجر، لا وقت للمُزاح، جهِّزي نفسك واتبعيني إلى المدرسة.

يقول: ليس الآن وقت المزاح؟ أنا لا أمزح، بل إني جادَّة كلَّ الجد، لا أُطيق المدرسة، ولا أُطيق مهنة التعليم، ففي كلِّ حصَّة دراسية أشرُد في المقارنة بين وقفتي هنا أمام أطفالٍ جاحظي العيون، ينتظرون غفلةً مني؛ ليتهارشوا بينهم كالجِراء، وتعلو أصواتُهم بالضَّحك والبكاء والشكوى، ووقفتي هناك،

حيثُ العيون الجاحظة تحملها رؤوسٌ كبيرة، تلهَجُ بالثناء على جمالي، وعلى إنجازات مكتبي في دعم تحرُّر المرأة. أمشي بين المقاعد هنا؛ لأشمَّ روائح هي مزيجٌ من روائح بولهم، وجواربهم، وأنفاسهم، وروائحَ أخرى يصدرونها بين حين وآخر! أفتح النوافذَ برغم البرد؛ لأخفِّفَ من شعوري بالغثيان الناتج عن طول احتباسي معها، وهناك تُهرَق العطور بكلِّ أصنافها، حتى غدا لكلِّ شخص عطرٌ يميِّزه عن سواه.

يلاحظ التلاميذ شرودي عنهم وعن درسهم، يبدؤون بالهمس، ثم بالضجيج، ويعلو صَخَبُهم حتى أعجِزَ عن ضبطهم، بمثل ما أعجِزُ عن ضبط تفكيري في الدرس الذي بين يديَّ، أنتبه للوضع، أتخلَّى عن رقَّتي وغُنجي، أصرخ في وجوههم، صراخي لا يُجدي نفعًا، أصرخ حتى أشعرَ بحَنْجَرتي تتمزَّق ألمًا، أستعمل العصا، أضرب بها الجميع، ثم أعود فأندم؛ لأني عاقبتهم على تقصيري، ولا ينتهي اليومُ الدراسي إلا بانتهاء قُدرتي على الصبر، وعلى الكلام.

خرج حمدوش من الغرفة وتركني، غضبت من تصرُّفه هذا، فقرَّرت معاندته، ألا يجلس معي ساعة من الزمن؟ أو لعله يستعجل عودتي إلى المدرسة؛ ليَكيدَ بي زوجتيه، ويُباهي بي أهلَ قريته؟ إذا كان الأمر كذلك، فلا بدَّ لي من ارتداء أجمل ما لديَّ من ثياب، ووضع كلِّ زينتي؛ لأكونَ لائقة بافتخاره، نسيت

غضبي، واتجهت إلى خزانة ثيابي، اخترتُ أقصر (تنُّورة) لديَّ، ومعها (كنزة) صوفية ثخينة حمراء، تكشف عن كلِّ عنقي، ومِساحةً واسعة من صدري، واخترتُ حذاء عاليَ الكعب أحمر، فوق ذلك وِشاحٌ أسود شفَّاف، وعقدت شعري بـ (بكلة) مرصوصة بحبَّات ألماس زائف، تكسر النور، وتُحيله مهرجانًا، ثم جلست أمام المرآة؛ لأفرشَ على وجهي طبقات من المساحيق والألوان.

تأخرت في النزول، فرجع حمدوش يستعجلني، فتح الباب ووقف مشدوهًا لما يرى.

- ماذا تفعلين؟

- أستعدُّ لمرافقتك.

- هل سترافقينني إلى حفلة عُرس؟

- بل إلى المدرسة.

- كلُّ هذه الزينة وهذه الثياب الممسوخة من أجل المدرسة؟ هيَّا، اغسلي وجهك جيدًا، لا أريد رؤيةَ أثرٍ لألوان الزِّينة، والبَسي ثيابًا محتشمة، تليقُ بمعلِّمة مثلك، هيا... بسرعة قبل أن تتأخَّري.

- سأذهب بلباسي هذا، ألستُ عروسًا، أم أنك تريد أن تقيِّدَ حرِّيتي؟

- أنت عروسٌ لزوجك، لست عروسًا لكلِّ رجال القرية لتعرضي عليهم زينتك، قالها وخرج من الباب، مشى خطوةً ورجع، نظرت إلى وجهه، لقد غيَّره الغضب، ليس هذا هو وجه زوجي الذي قضيت معه الأسبوع الماضيَ كلَّه، قال بصوت غاضب:

- سأنتظرك... لا تتأخري.

ماذا أفعل؟ هل أستجيب له، فيتعوَّد إملاءَ قراراته عليَّ، أو أفرض رأيي ولا أسمح له بمسِّ حرِّيتي الشخصية؟ جلست وحدي أشاور نفسي، أقرِّر وأتراجع عن قراري، أيهما أهمُّ: سعادتي مع زوجي، أم العيش بحرِّيتي وفق هوايَ ومزاجي؟ لماذا هذا التناقُض بين الاثنين؟ لم لا يوافق زوجي على ما أفعل، ويكفُّ عن التدخُّل في خصوصيَّاتي، فنعيش حياةً سعيدة؟ ليتني أجد قربي أحدًا أستشيره، ولكن في كلِّ الأحوال، لا ينبغي أن أكونَ (حُرمةً) مطيعة لتعنُّت الرجل الشرقي، هذه السيطرة (الذكورية) هي ما وقفنا سنواتنا في الحزب من أجل مكافحتها، واجتثاثها من مجتمعنا، أأُخالف الآن تعليمات عشتُ على حفظها وترديدها عقدًا ونصفَ العقد من السنين؟

بعد طول تفكير، وتقليب الأمر على كلِّ وجوهه، قرَّرت إمساك العصا من منتصفها، سأتنازل عن شيء لأكسبَ أشياء، لبست بنطالاً واسعًا، مع قميص رقيق، ووضعت فوقه معطفًا من

الجوخ السَّميك، يصل إلى منتصف ركبتيَّ، غسلت وجهي برقَّة وتركت عليه القليلَ من ألوان الزينة، نظرت بعدها إلى ساعة يدي، كانت تشير إلى التاسعة، والدرس يبدأ في السابعة والنصف، نزلت إلى البَهْو السُّفلي.

كانت زوجتا حمدوش في المطبخ، تشتغلان بإعداد اللبن وغسل الثياب، وما في البهو إلا الأطفالُ الصغار، أين حمدوش؟ دخلت المطبخ أسألهما، أجابتا بأنه في المدرسة منذ الصباح، هل ألحق به؟ لماذا لم ينتظرني؟ قرَّرت لن ألحقَ به، بل سأنتظر، إن جاء، رافقتُه إلى المدرسة، وإلا... سأعود إلى غرفتي.

صوتُ أبواق سيارة حمدوش كسر جدارَ الصمت والهدوء في ذلك البيت، وكذلك صوت عجلاتها وهي تسحقُ التراب، ضحكت فرحًا بانتصاري عليه، جاءني غاضبًا يسأل عن أسباب تأخُّري، التلاميذ الآن في الفُسحَة بين الدرسين، وأنا ما زلتُ في البيت، نثر كثيرًا من الكلام المزعج، رافقته بصمت، جلست بجواره في سيَّارته، وأغلقت أذنيَّ عن كلِّ كلامه، هي معركتي، وعليَّ إثبات وجودي، أنا زوجة المدير، في كلِّ الدوائر الرسمية التي أعرفها، زوجاتُ مديريها يتوظفنَ ولا يعملنَ، بل تقبض إحداهنَّ مرتَّبها جاهزًا على طبق من ورد، يصلها إلى بيتها. أنا اليوم متأخِّرةٌ ساعة ونصف الساعة عن تلاميذي؟ غدًا سأتأخَّر

ثلاث ساعات، غضب حمدوش مني؟ فليغضب، لا بدَّ له في النهاية من الإقرار بوضعي، والاستسلام لما أريد، حمدوش يحبُّني؛ لذلك سأبقى طوالَ الوقت حزينة وغاضبة، ولن يجدَ ما يسترضيني به سوى الخُضوع لمطالبي، ولا مطلبَ لي سوى البعد عن قاعة الدرس، مهنةُ التعليم شاقَّة عليَّ، لا يدرك حمدوش ولا غير حمدوش مدى شعوري بالتفاهة والعجز، بل الخزي حين أقفُ أمام تلاميذي عاجزةً عن حلِّ مسألة في الرياضيات، أو إعراب جملة في كتاب النَّحو، هذه المهنةُ لا أُتقنها، ولا أُحسن التعامل مع التلاميذ.

انقضى اليوم الأول، في صباح اليوم التالي فتح حمدوش باب غرفتي، كنت غارقةً في النوم، أيقظني، تكاسلت، صرخ في وجهي، فتحت عينيَّ، كان سُمُّ الغضب يقطُر من قَسَماته على نحو أرعبني، قال: لا مكانَ في حياته وفي بيته للكسل والإهمال، دفعني دفعًا باتجاه الباب، نزلت السلَّم على مهل أتصنَّع الهدوء واللامبالاة، قال: أسرعي إلى المطبخ؛ لتجهِّزي وجبة الفطور، دخلت المطبخ، وظلَّ في البَهْو ينتظر.

دخلت المطبخ، وما كنت دخلتُه في بيت أمي، وقفت حائرة، تقدَّمت (عوش) ابنتُه الكبرى ذات العشر سنوات، سألتها عمَّا يجب عليَّ عمله، قالت: جهِّزي إبريقًا من الشاي، وطبَقًا من اللبن، ثم تغلين بعضَ قطع الجُبن بالماء، وتسلقين البيض،

سأساعدك، ساعدتني البُنيَّة، وقدَّمت له وجبةَ الفطور، كنت أشعر بصاعقة وقعت على رأسي، لماذا يعاملني بهذه الجلافة والفظاظة؟ هل يخجل من إظهار رقَّته معي أمام زوجتَيه وأولاده؟ ربما، له الحقُّ في تربيتهم كما يشاء، أما أنا، فلقد نلتُ أحسنَ تربية على يدي كاترين، ولا حاجة بي لتربية جديدة. وجدت له في نفسي عذرًا، وجلست أشاركه الطعام مع أولاده الخمسة، كنت آكُل على مهل، شبع هو قبل الجميع، وغادر المائدة ليغسلَ يديه، طلبت منه أن ينتظرَني؛ لأركب معه في سيارته، لم يُجبني، بل قال: ارفعي المائدة، واغسلي الأطباق قبل خروجك من البيت مع الأولاد، والتفت لأولاده آمرًا: لا تتأخَّروا.

أنا الآن في جوٍّ ما كنت أتخيَّله، في الأسبوع الثاني لزواجي أشعر أني أسيرةٌ مُستعبَدة، لم يعلِّمني أحدٌ ما يجب عليَّ فعله في مثل هذه المواقف، وما كنت قبل الآن أجالسُ النساء المتزوِّجات؛ لأعلمَ منهنَّ ما يفعلن في مثل حالي، نفَّذت ما طلب، ولبست ثيابَ الأمس، قادني أمامه كمن يقود عبدًا، مشَيتُ مع أولاده خطوات، ثم تخلَّف عنَّا، وركب سيارته وانطلق بها إلى المدرسة.

بعد غيابه ليلتين عنِّي جاء دوري، دخل غرفتي مع غروب الشمس، كان محبًّا ودودًا مشتاقًا، كلُّ انفعالات اليومين الماضيين تركها خارج غرفتي، وجاءني بمثل ما جاءني به ليلةَ

عرسي، استبشَرتُ خيرًا، لبست أجملَ حُلَلي، تعطَّرت وتزيَّنت، قال: سنسهر هذه الليلة معًا، خرج قليلاً ثم عاد، أسمعني الكثيرَ من الغزل الرقيق، ومن الشعر العذب اللطيف، اعتذر لي عن قسوته، التي يعدُّها نتاجَ بيئته الصحراوية القاسية، أما أنا فربيبةُ المدينة، رضيتُ، بل فرحت، هذه نقطة أسجِّلها لصالحي في معركتي معه. قال: إنني أحتلُّ كلَّ قلبه، ولا وجود لمنافس لي في إحساسه وعواطفه، هذه نقطةٌ أخرى. قال: إنه يرغب أن تستمرَّ الحياة بيننا شركة في كلِّ شيء، زاد فرحي، هذا يعني أنني سأعيشُ معه عيشةَ زوجة وحيدة، وسينسى أن في بيته زوجتين غيري، شعرت برغبة في الرقص، أطربني كلامُه، بل أسكرني، قمت إلى جهاز التسجيل؛ لأضعَ فيه أسطوانة تعبِّر عن مشاعري، وفُتح الباب...

فُتح الباب على مصراعيه وإذا بـ (فوزة) زوجته الكبرى تدخل حاملةً طبقًا كبيرًا، رصَّت عليه أطباق اللبن والجبن والزبد، وكلَّ ما يلزم لوجبة العشاء، تتبعها (حمدة)، حاملةً إبريقَ الشاي، ومجموعة من الأكواب، وكيس الخبز، أدهشني ما أرى، التفتُّ إلى حمدوش أستوضحُه، وجدته يساعد فوزة في وضع الطبق على الأرض، ثم يرتِّب مجلسه في صدر المائدة بمزيد من الوسائد والأرائك، أما كان قبل لحظات يحدِّثني عن شركتنا في كلِّ شيء بالحياة؟ أما أفصح عن احتلالي لكلِّ عواطفه

وأحاسيسه؟ ما هذا الذي أراه؟ لماذا تأتي زوجتاه إلى غرفتي لتشاركانا عشاءنا، وبقيتُ صامتةً مشدوهة.

جلست المرأتان بكلِّ أدب، تردَّدت في مشاركتهم العشاء، شعرت بأنهما دخيلتان على منطقة نفوذي، لكني اتخذتُ مكاني بينهم؛ اتقاء لكلام ربما يصدُر عن حمدوش في حضورهما لا يُرضيني، راحت المرأتان تتناولان الطعامَ لُقَيمات صغيرات، وهما تغالبان خجلاً واضحًا على وجهيهما، وتكلَّم حمدوش وحده، تكلَّم ونحن سكوت، شرح لنا عن طبيعة حياتنا القادمة، وما خطَّطه لها؟ قال: إن بيته يجب أن يكونَ مثالاً وقدوة لكلِّ بيوت العشيرة، بنظامه وانضباطه، أوصى زوجتيه بي خيرًا، قال لهما: إن وضحة قد تربَّت في المدينة بين المدارس؛ لذلك لا تُتقن أعمالَ أهل القرى، ربما لا تستطيع مساعدتكما في أعمالكما، لكنَّها ستُتابع دروس الأولاد في البيت، يجب أن يتفوَّقَ أولادنا في درسهم على كلِّ أبناء القرية، كما يجب أن تتفوَّقَ قريتنا على جميع القرى المحيطة، وضحة سوف تكون معلِّمةً تفخَرُ بها العشيرة، وضحة ستكون وجهًا من وجوه عشيرتنا، بعلمها وثقافتها، بعقلها الذي يفوق عقولَ كثير من الرجال، قال وأكثر من القول، ونحن صامتات نستمع، حين انتهينا من الأكل حملت حمدة طبقَ الطعام ونزلت به إلى المطبخ، في حين سكبت فوزة الشايَ في الأكواب، وعادت

حمدة.

حافظتُ طَوالَ السهرة على صمتي، وقمعت براكيني، ألا يكفيني ما ألقاه في المدرسة لأتابعَ دروس أولاده في البيت؟ أيُّ عسف هذا؟ وعقلي الكبيرُ الذي يفخر به أمام زوجتيه، أما وجد له عملاً سوى الإشراف على دفاتر أولاده؟ يريدني أن أعيشَ كلَّ ساعات يومي متنقِّلةً بين مقرَّرات المدارس الابتدائية؟ أهذه هي الثقافة التي تعجبه؟

فرغ إبريق الشاي، حملته حمدة مع الأكواب الفارغة، وخرجت من الغرفة تتبعها فوزة، وبقيت مع حمدوش يملؤني السُّخط مما يريده مني، عاد بعد خروجهما لمغازلتي، وجدتها فرصةً مناسبةً لتأكيد امتلاكي لعواطفه، واستثمارها في تحقيق رغباتي، لا بدَّ لي من القيام بما تقوم به زوجةُ أيِّ مدير في حلب، زوجة المدير لا تُسأل عن عمل ولا دوام، لكنها ليلتي، أرى فيها طائرَ السعادة يرفرف في فضاء غرفتي، أأستبدل به غرابَ الشؤم؟ إن هذا لغباء.

سعدت بليلتي تلك كما سعد حمدوش، في الفجر أيقظني، قال: إنه يتمنَّى ألا يتكرَّر اليوم ما حدث بالأمس، وقبل الأمس، وما الذي حدث أمس؟ تأخَّرت ساعةً ونصف الساعة عن تلاميذي؟ حسنًا، لن أفعلَ اليوم ما فعلتُه أمس وأول أمس، لن أذهبَ اليوم إلى المدرسة، تركته يدخل الحمَّام الملحق

بغرفتنا وعدت للنوم، رجع وأيقظني من جديد، وانتظر حتى دخلت الحمَّام، صلَّى الفجر، ثم غادر الغرفة؛ ليجهِّزَ نفسه ليوم عمل جديد، وخرجت من حمَّامي لأعاودَ النوم، أرسل ابنَهُ عمران يستعجلني، فصرفتُه، ودخلت سريري.

فتح الباب بعُنف أجفَلَني، دخل بوجه غير الوجه الذي أعرفه، لم يُلقِ تحيةً، بل أمرًا: جهِّزي نفسك للذهاب إلى المدرسة، قابلت أمره بغُنج مستمدٍّ من بقايا الليلة الماضية: لن ألتزمَ بدرس، فأنا زوجةُ المدير، أنا في حَصانة عن المساءلة وعن العمل، صرخ بغضب شديد، وقد بدأت يداه بالارتجاف: لا تظنِّي أني سأتهاون في محاسبتك، أنت في المدرسة معلِّمةٌ كسائر المعلِّمات، بل يجب أن تكوني أكثرَهنَّ التزامًا؛ لأنك زوجةُ المدير، سيجري عليك ما يجري على زميلاتك من حساب وعقاب، هؤلاء التلاميذُ هم أبناؤنا، سنبذل كلَّ جهدنا؛ لنرتقيَ بالمستوى التعليميِّ لهم، ولقريتنا.

أذهلني ما سمعت، هذه أفكارُ أختي فضة، بل كلماتُها ذاتها، تلحق بي إلى غرفة نومي! قمت بهدوء المغلوب على أمره، لبست ثيابَ الأمس، قال: أسرعي لتجهِّزي وجبةَ الإفطار، نفَّذت ما طلب، ورجوته أن ينتظرَني، قال: سترافقين الأولاد، سيَّارتي صغيرة لا تتَّسع للجميع، لا تتأخَّروا...

وخرج.

هل أصرخ في وجهه طالبةً الإنصاف؟ وأيَّ إنصاف أطلب، في المساء كان يشرح لنا عن حياة التعاون التي سنحياها معًا، وقسَّم المهمَّات بيننا، زوجتاه خرجتا منذ ساعة لحلب النِّعاج وإطعامها، ماذا أفعل؟ ليت لي إيمانَ أختي فضة، ليت لي تقوى زوجة عمِّي عواد، ليت لي حماقةَ كاترين، وسيرها الأعمى في خدمة كلِّ من جلست خلف ذلك المكتب المشؤوم، ولكنِّي أنا لست هذه ولا تلك، فرحتُ بزواجي من المدير، لجأت إلى ذراعيه؛ هربًا من نفسي، هربًا من إخفاقي، وتصرَّف هو، بكلِّ وعي ورصانة رجلُ القبيلة الناضج، لم يحدِّثني بشيء عن مشاعره، ولا سألني إن كنت أحببتُه، بل توجَّه إلى أخي سلمان من فوره؛ ليخطُبَني منه بمنطق العشيرة، وللمحافظة على شرف العشيرة، عاد سلمان لشأنه، ووقعتُ أنا وحدي في هذه البئر المظلمة!

وصلت إلى مشارف المدرسة مع رنين الجرس، ركض الأولاد فسبقوني؛ ليلتحقوا بطابور الصباح، ومشَيتُ على مهل، أخشى على حذائي من التلوُّث بالوَحَل، حين دخلت كان التلاميذُ قد دخلوا قاعات الدرس، والمدير واقفٌ في (الباحة) ينتظرني، دنوت منه متبسمةً إخاله ينتظرني؛ ليعتذرَ عما بدر منه، دنوتُ منه، ألقيت عليه تحيةَ الصباح، وسعادةٌ مفاجئة غمرت إحساسي، وقد رجعت في الذكريات إلى أيام ما قبل زواجنا؛

حيثُ كان ينتظر في (الباحة)؛ ليسمعَ مني تحيةَ الصباح، لم يُجبني على تحيَّتي، بل قابلني بمنطق مدير يحاسب موظفًا متأخِّرًا عن عمله، مكرِّرًا أنه سيحاسبني بأشد من زميلاتي لو تأخَّرت مرة أخرى عن تحيَّة العَلَم، بلعت الإهانة غُصَّة في حلقي، ومشيت أمامه إلى قاعة الدرس، ما كان عقلي معي، لا أدري هل أعطيت للتلاميذ درسًا جديدًا، أو أعدتُّ عليهم درسَ الأمس، ما كان وعيي معي، ورنَّ الجرس معلنًا نهاية الدرس.

خرج التلاميذ إلى الباحة، وبقيت وحدي أفكِّر في حالتي، فتح الآذنُ الباب، وطلب مني الذهابَ إلى غرفة الآنسات بأمر المدير، خرجت من قاعة الدرس، وتوجَّهتُ إلى غرفة الإدارة، وفي نيَّتي استخدامُ دلالي؛ مستغلَّةً محبَّة زوجي لي. قابلني بوجه صارم، جامد القَسَمات، قاسي النظرات، خاطبني بأسلوب رسميٍّ: يا آنسة، لا تدخُلي غرفةَ الإدارة إلا لسبب وجيه، مكانُك هناك، مع الآنسات. أجبته بغُنج عروس جديدة: السبب الوجيه موجود، أريد الجلوسَ مع زوجي الحبيب، اشتقت إليه. أجاب بالجفاء ذاته: هذه الغرفة مخصَّصةٌ للمعلِّمين، هنا لا يوجد زوج وزوجة، هنا مدرسة، دائرة رسمية، أنت معلِّمة وأنا مدير، أمنعُك أن تخاطبيني بغير صفتي الرسمية، زوجك ترَينه هناك في بيتك، هيا اخرجي.

خرجت ذليلةً منبوذة، أسلحتي أثبتت بُطلان مفعولها، وقفت

تلفُّني الحَيرة، هذا الرجل الذي كان يخصُّني بأحاديثه اللطيفة الجذَّابة، يستعرض معي معلوماته وما يعرفه عن كلِّ شيء، ويطلب رأيي فيما يقول، ما عادت تطيبُ نفسه لمجالستي، لماذا يحصل معي هذا؟ ألأنني صرتُ زوجته؟ والآنسات اللاتي عِفتُ صحبتهنَّ؛ زهدًا فيها، ونفورًا من ضحالة أفكارهن، وضآلة أحلامهن وأهدافهن- يُجبرني على مجالستهنَّ بعدما عرف رأيي فيهن؟

هذه إرادة السيِّد المدير، صحيح أني كنت في سنواتي الماضيات أتابع كلَّ ما يجري في البلاد، وخارج البلاد من أحداث، لكني كنتُ أراها بعين واحدة، هي عينُ الحزب الذي أنتمي إليه، لكن حمدوش بسَعَة اطِّلاعه، وانتمائه إلى الحزب الحاكم، بدَّل رأيي في الكثير من القضايا في الأيام الماضية، وحين دنَوتُ منه أستزيده، حين رضيت بالزواج منه، طردني من عالمه، وحبسني بين غرفة الدرس، وغرفة النوم، ومذاكرة أولاده، وغرفة هؤلاء الآنسات الحمقاوات! ما الذي جنَيتُه من زواجي؟ من حياتي؟ هل آسَفُ؟ على أيِّ شيء يحقُّ لي الأسف؟ ما كنت قبل الآن سوى قشَّة في مجرى سيل عظيم من الكآبة والإحساس بالتفاهة، مطرودة من حزبي، مطرودة من منصبي، عانس أُثير شفقةَ نساء الحارة؛ لأن أختي الصغرى تزوَّجت قبلي، والآن؟ هل يختلف الآن عمَّا قبله؟ لا... لا

يختلف إلا بلون القهر الذي يملَؤُني حتى الحَنْجَرة.

مرَّت الأيام رتيبةً ثقيلة متشابهة، عافني حمدوش، وكفَّ عن ملاطفتي، كان حرصه على المدرسة وتلاميذ المدرسة أكثرَ بآلاف المرَّات من حرصه على سعادتي، صار يدخل غرفتي بعد انتهاء سهرته مع رجال القرية بعد منتصف الليل؛ ليخرجَ منها عند انبلاج الفجر، مرَّة كلَّ ثلاثة أيام، ولا يخرج قبل أن يدفعَني أمامه في طريق المدرسة.

حاجزٌ رهيب من الغُربة صار يفصلني عنه، يستلقي على سريري، يرفع الغطاء حتى كتفيه ويغرق في النوم، أجلس إلى جانبه، أتأمَّل وجهه، أهذا الذي أمسك بيده مقاليدَ أمري، وصار له الحقُّ في التحكُّم بروحي وجسدي ومصيري؟ أيستحقُّ هذا النائم الغريب منِّي كلَّ ما أخذ؟ وأنا ماذا أستحق؟ انتظاره؟ نعم، لا شيء سوى الانتظار، وماذا أنتظر؟ أن يأتيَ ليغفوَ على سريري ويتركَني للأرق؟ أحمل همومي وحدي، أختنق بها وحدي، الغربةُ شبحٌ مخيِّم على روحي، يمنع عنِّي ضوء الشمس، ولا أجد حولي من يسألني عن حالي، أو يعنيه من أمري أيُّ شيء.

انقضى الشهرُ الثالث، وأُدرجت رواتب المعلِّمات الجديدات على جداول محاسب مديرية التربية، استعدَّت الآنسات للسفر من القرية إلى مدينة الحسكة؛ لقبض رواتبهنَّ، استبشرت خيرًا،

سأذهب معهنَّ لنُمضيَ نهارنا في شوارع المدينة، نستكشف ما لا نعرفُه فيها، سنشاهد نهرَ (الخابور)، لا شكَّ أنه يختلف كثيرًا عن نهر (قويق) ذي المياه الآسنة، الذي يجري في حلب، تنبعث منه روائحُ حادَّة تجلب أنواعًا من البعوض، ينشر أمراضًا جلدية معروفة (بحبَّة حلب)، نهر الخابور نقيُّ المياه غزيرها كما سمعت من بعض زوَّاره، وقرأنا عنه في القصائد القديمة، نسمة فرح هبَّت على روحي الذابلة فأنعشتها.

جاء المدير إلى غرفة المعلِّمات، وطلب منهنَّ الذهاب إلى مدينة الحسكة بسيَّارة جاء بها، وأوصى سائقَها بإيصالهنَّ إلى مكتب المحاسب، وانتظارهنَّ حتى يعُدنَ، ثم أشار إليَّ أن ارجعي، هتفت: أريد قبضَ مرتَّبي، قال بحزم: ارجعي، فرجعت، قبيل انتهاء الدوام الرسميِّ بقليل، ركب سيارته وانطلق لا أعرف إلى أين؟ لم يخبرني عن وجهته، بل أوصاني بصرف التلاميذ إلى بيوتهم، والعودة إلى بيتي، نفَّذت ما أمرني به، وجلست أنتظر، قبيل الغروب عاد، لم يدخل غرفتي، بل ذهب إلى أغنامه وخرفانه يتفقَّدها ويشرف على حلبها وعلفها، ثم عاد إلى البيت ليستبدلَ ملابسه في غرفته الخاصَّة، ويذهب بعدها إلى سهرته كما يفعل كلَّ يوم.

القلق يفتِّتُ أعصابي، يمنعني من النوم أو الهدوء، رحت أذرَعُ البيت بخطوات قلقة والكل نيام، حين عاد سألتُه عن

مرتَّبي، أجابني بنبرة زاجرة: أنت الآن زوجتي، وهذا السؤالُ لا أريد سماعه مرَّة أخرى، أجبته بإصرار: مرتَّبي هو ثمرةُ جهدي وتعبي، من حقِّي وحدي التصرُّف به. أجاب: حين أراك تُعطين مهنتك حقَّها، وتعملين فيها بتقوى الله، سأعطيك ما تريدين، أما وأنك تغيبين عن التلاميذ أكثرَ مما تحضُرين، وتتَّكلين عليَّ وعلى زميلاتك في تعليم تلاميذك، فلا حقَّ لك عندي، وإذا لم يعجبك هذا الكلام، فاترُكي المدرسة، استقيلي واجلسي في البيت، سأوزِّع العمل بينكنَّ بالتساوي.

بالتساوي؟ أأترُك المدرسة وأنا ابنةُ المدينة، الحاصلة على شهادة جامعية؛ لأحلبَ الغنم؟ لا... المدرسة أرحَمُ على كلِّ حال، لكنَّ هذا الوضع برُمَّته لا يرضيني، أيةُ حياة هذه التي أحياها؟ أكان أخي سلمان يعلم أين وضعني؟ أكان يدري بأية نار زجَّ بي؟ أخي بعيدٌ ولا وسيلةَ للاتصال به أو إخباره عن حالي، لا هاتفَ في القرية ولا صندوقَ بريد، وهو مشغولٌ بدرسه وصيدليته، لا وقتَ لديه يزورني فيه، ما عليَّ سوى الصبر حتى يأتيَ إليَّ أحدٌ من أهلي، وصبرت.

ظلَّت الأيام تمشي مشيَها البطيء الغبيَّ، وأنا أنتظر بل أحترق، صرت أمقُت زوجي، بل أكرهه، أتمنَّى ألا يأتيَ اليوم الثالث أبدًا، تغيَّرت أحوالي، وجعٌ شديد ينقُض ظهري، يد جبَّارة تعتصر معدتي، فتجبرني على قذف ما فيها وما ليس فيها،

صُداع ودُوار يمتدُّ ساعات وهو يلازمني، أين المفر؟ رجوتُه أن يأخذَني لطبيب، نظر إليَّ باستعلاء وقال: أكلَّما حملت امرأة، وجبت زيارتُها للطبيب؟ نساؤنا تحمل وتلد ولا يشعر بهنَّ أحد، يلدنَ في البيوت والزَّرائب والحقول، انتبهي لنفسك، أنت الآن في القرية، وحلب صارت في الماضي، في التاريخ، دعي عنك دلالَ بنات المدن، وانتبهي لنفسك.

صَفَقَ الباب خلفه بعنف وهو يخرج من غرفتي، لم يُكمل عندي ليلته، بل لم يقف أمامي إلا ليقولَ ما قال، الحمل؟ أنا حامل؟ كلُّ هذه الآلام سببها الحمل؟ هل يُعقَل هذا؟ نزلت إلى البهو الأسفل، وجدتُّ فوزة مشغولةً بعشاء الأولاد، استوقفتها أسألها، هنَّأتني بالحمل، وسألت الله سبحانه أن يباركَ في أمومتي وطمأنتني: إنه الوَحَم، عليك بالرَّاحة، وكُلي كلَّ ما تشتهيه نفسك؛ لأن نفسك تطلب منك ما يطلبه جنينُك، لا تخافي، انظُري إليَّ، نظرت إليها ولم أفهم إشارتها، قالت: إنها حاملٌ في شهرها السادس، لكنَّ ثيابها الطويلة الواسعة لا تُظهر تكوُّرَ بطنها، حيويتها ونشاطها في العمل لا يشير إلى أنها تعاني ما أعانيه، عادت تطمئنُني: هي شهور ثلاثة، بعدها تعودين لحياتك الطبيعية، لا تشعُرين بالحمل إلا حين يتحرَّك جنينُك في أحشائك، ستنسَين أنك حامل، وسيُذكِّرك هو بنفسه فلا تخافي.

انقضت شهورُ الوَحَم في مرض وإعياء ودُوار، حملي، بل

مرضي المستمرُّ لم يشفع لي عند زوجي، ففي كلِّ يوم عليَّ تحضير وجبة الفطور، ثم غسل الأطباق، والذهاب مُكرهةً إلى المدرسة كأني أُساق إلى ساحة الإعدام، أذهب سيرًا على قدميَّ برفقة الأولاد، أمشي في دروب ملتوية؛ تحاشيًا للسقوط في بِرَك الماء التي خلَّفها المطر، والتي تحوَّلت سُطوحها إلى ألواح صقيلة من الجليد، أشعر بالاشمئزاز من الطعام، من الماء، من الروائح المحيطة بي، أشعر بالعداوة تجاه هذا الجنين الذي سمَّم حياتي، وأنتهز أيةَ فرصة لأهربَ إلى النوم.

نعم، انتهت أيام الوَحَم مع انتهاء الشتاء، بدأ الربيعُ بنشر بساطه الأخضر على السُّهول الممتدَّة على مرمى البصر تحت نافذتي، شعرتُ ببعض الراحة، فالربيع يردُّني إلى نَزَوات الطفولة، رحت أحلُم برحلة أبتعد فيها عن البيت؛ لأركضَ وأركض، لا عائق أمامي، سأظلُّ أجري حتى أخرجَ من جُدران نفسي ووعيي، حتى يُغمى عليَّ من شدَّة الفرح، أو أموت، أحلم بالتوحُّد مع السهل الفسيح حتى التلاشي، عرضت حُلمي على زوجي، استمع إليَّ مستغربًا وقال: أنت مجنونة، قال: ما هذه (الولدنات) السخيفة؟ ماذا يقول عنك جيرانك وتلاميذك لو علموا بحلمك الأحمق هذا؟

بعد أيام عاد إليَّ، سألني بمودَّة: أما زلت تحلمين برحلة إلى البرِّ؟ لم أجبه، بل لم ينتظر إجابتي، قال: جهِّزي نفسك،

البَسي ثيابًا تقيك البرد، وحضِّري بعض الجبن والخبز، واملئي حافظَ الحرارة بالشاي، بقيت جامدةً في مكاني لحظات، أسأل نفسي: أصحيحٌ ما سمعت؟ أما زال حمدوش مهتمًّا بي وبأحلامي؟

نفَّذت ما طلب، حضَّرت الزاد، ولبست بنطالاً سميكًا، وثوبًا قصيرًا، مع حذاء رياضي خفيف، لحقت بي فوزة إلى المطبخ، وهمست:

- إلى أين تذهبين؟ هل تقدرين على العيش ثلاثةَ أيام بلياليها في البر؟ أنت آنسة.

- وما به البرُّ؟

- في البرِّ لا بيت ولا حمَّام ولا جدار يستر.

- لماذا نبقى ثلاثة أيام؟ نحن ذاهبان في نزهة.

- نزهة؟ حمدوش ذاهب إلى البر؛ ليشرفَ على أغنامه في موسم جزِّ أصوافها، وستكون مهمَّتك هناك خدمته وحلب النِّعاج.

لم أصدِّقها، حمدوش دخل غرفته؛ ليرتديَ ثيابًا تليق بالنزهة، وفوزة تغار مني، تحسُدني على اهتمامه بي دونها، تركتها مع حمدة، ووقفت أمام الباب إلى جانب السيَّارة أنتظره، وأغالبُ فرحتي خشيةَ غيرتهما، سمعت خطواته خلفي فالتفت.

رأيت حمدوشًا يلبَس ثوبًا طويلاً أسود، وعِمامةً حمراء تظهر من تحتها غُرَّته الشعثاء كالرُّعاة، أهذا هو السيِّد المدير الذي سحرني بأناقته وبنطاله المكويِّ كحدِّ السيف؟ أهذا من أدار رأسي برائحة عطره التي تملأ كلَّ يوم جَنَبات المدرسة؟ سحابةُ قهر مرَّت على رأسي، فأعمت بصري وبصيرتي، كان يحمل في يديه عددًا من الأواني الكبيرة المعدَّة لحفظ الحليب، صدقت فيما قالته لي فوزة، وأنا بحماقتي كذَّبتُها وسرحت مع خيالي، رمى الأواني في صندوق السيَّارة، وأشار: هيا اركبي، نظر إليَّ وقال مستهجنًا: أهذه ثيابُ من يذهب إلى البر؟ اذهبي وغيِّري هذه المسخرة، خذي ثوبًا محتشمًا من ثياب فوزة، البَسيه ثم الحقي بي، حلبُ صارت بعيدةً عنك، وأنت لا تريدين الابتعادَ عن سخافات كنت تمارسينها هناك؟ هيَّا، أسرعي.

مشَيتُ بخطوات عمياء لا أرى موطِئ قدمي، تعثَّرت بحجر ناتئ جعلني أسقط منبطحةً على بطني، صرخت بألم، سارعت ضَرَّتاي لمساعدتي، أمسكتاني من يدي، وأعادتاني إلى البيت، الألم سكاكينُ تقطِّع أحشائي، والخيبة بركانٌ يتفجَّر في أعماقي، لحق بي حمدوش، طمأنته فوزة، شتمني وقال: أنت لا تستحقِّين صحبتي، أخذ حمدة بدلاً مني، وتركني مع فوزة أقاسي آلامي.

كان أبي في ليالي الشتاء يجلس في الرُّكن القريب من

المدفأة، ويقصُّ علينا حكاياته، بعضها مكرَّر وبعضها خضع لتعديلاته وتصرُّفه، يضيف إليها ويطرح منها ما يشاء؛ ليقدِّمَها على نحو يناسب الموقف، كنت أستمع إلى حكاياته مُرغمة، فالبرد الشديد، والمدفأة الوحيدة، لا يتركان لي مجالاً للاختيار، كنت أفضِّل السهرَ مع صويحباتي، نتداول الأحلام، ويتباهى بعضُنا على بعض بوشاح أو سوار.

حكاية من حكايات أبي تقفز الآن إلى ذاكرتي، تحتلُّها بإصرار، فأحكيها لنفسي، عن رجل فقير، دعاه رجلٌ موسر؛ لينزحَ بئرَ القاذورات في بيته، حين كشف غطاء البئر شعر العاملُ الفقير بالاشمئزاز، وأبت عليه نفسُه الخوضَ في القذارة، قال مخاطبًا نفسه بصوت مسموع: يا نفسُ، هل تطيعين أو أُذلُّك؟ ضحك الغني، وسأله ساخرًا: أيةُ مذلَّة تتوعَّد بها نفسك أكثرَ من هذا الذي تفعله؟ أجاب: إن ما أفعله عمل، والعملُ شرف آخذُ منك أجره، وأنصرف لشأني، أما المذلَّة الحقيقية فتكون حين أحكِّم في نفسي نفسًا أخرى، المذلَّة هي حكمُ النفس في النفس يا صاحبَ المال.

حقًّا ما أصعبَ حكم النفس في النفس! أهذا هو موقفي الآن؟ ليتك يا أبي حيٌّ بيننا؛ لتفسِّرَ لي حكايتك، أأنا ذليلةُ الآن وقد وضعت نفسي تحت حكم حمدوش يأمر وينهى، ويستسخفُ أحلامي؟

يا لَهذا الجنين! كيف يتشبَّث بالحياة في أحشائي؟! رقدت في الفراش طَوالَ الأيام الثلاثة التي غابها حمدوش عن البيت أُكابد أنواع الألم، وظلَّت فوزة بقربي، تعتني بي، تواسيني وتمرِّضني، وكنت أبكي، طَوالَ الوقت كنت أبكي، فوزة تظنُّ أني أبكي خوفًا على جنيني، وأنا أبكي لخيبتي في الحياة، بعد كلِّ ذلك العزِّ والجاه أنتهي إلى حلب النِّعاج؟ سأموت، سأقتل نفسي قبل أن أستسلمَ لهذه المهانة.

كتبت رسالةً مطوَّلة لأخي سلمان، شكوت له فيها كلَّ ما أعانيه، قلت له: إني قُطعت من جذوري، لا أحدَ في هذه القرية يهتمُّ بأمري، ضَرَّتاي هما أقربُ الناس إلي، تقدِّمان لي المساعدة وتنسحبان، ما زالتا تعاملانني كما تعاملان آنسات المدرسة، الكلُّ أسرة واحدة، وأنا بينهم عنصرٌ غريب، عَجَزتُ عن الاندماج معهم، عَجَزت، أكاد أُجنُّ يا أخي، أين أنتم؟ أين أهلي؟ أنا لا أهلَ لي ولا سند، تعال وخذني إليك، كرهت الحياة، كرهت نفسي، ضاقت بيَ الدنيا، ضاق بي جلدي، تعال وأنقذني.

كنت أكتب وأنا أبكي، أهذه أنا القويةُ العنيدة المتمرِّدة؟ بعد أحلامي باحتلال منصب وزاريٍّ أتحوَّل إلى رعي الغنم؟ وضعت الرسالةَ في مغلَّف اختلستُه من غرفة الإدارة، سجَّلت عليه عنوانَ أخي سلمان في الجامعة، وسلَّمته لآنسةٍ من الآنسات في بداية

الشهر، رجوتُها أن تضعَهُ في البريد، بعيدًا عن أنظار زوجي، حين تذهب لقبض راتبها من المدينة.

لم تتمكَّن الآنسة من وضع رسالتي في البريد، كان زوجي ينقلهنَّ بسيَّارته، يرافقهن إلى مكتب المحاسب وإلى السوق، ثم يعود بهنَّ إلى القرية؛ لذلك تأجَّل إرسال رسالتي إلى الشهر التالي.

الأيام تمضي بطيئةً مملَّةً مُترعةً بالوجع، وفوقه العمل المُضني، أنتهز الفُرَصَ لأبكي نفسي، ما عدت أملك من وسائل الحياة سوى الدموع، بعد شهرين وصلت رسالتي إلى أخي، جاءني مصطحبًا أمي، رميتُ نفسي في أحضانهما كطفل ضائع، بكيتُ وشاركاني بكائي، هدَّأتني أمي، غدًا يأتي مولودُك فيشغلك عن كلِّ همومك، سيكون فرحتَك التي لا تُشبهها فرحة، سيكون طفلك تسليتَك وصديقَك، سيتغيَّر موقف زوجك منك حين تصيرين أمًّا لابنه، وسيكون لك في إجازة الأمومة فرصةٌ للبعد عن هموم العمل، وسينسى زوجُك فيها موقفك من المدرسة ومهنة التعليم.

لم أصدِّق مواساة أمي، لن يكونَ هذا المولود فرحتي، بل شقائي، فوزة ولدت قبلي، لكن ابنها، وأبناءها الذين سبقوه، لم يشفعوا لها بشيء، في اليوم الثالث لولادتها عادت إلى حياتها العادية، عادت إلى أعمالها الشاقَّة، أظنُّ أن حمدوشًا

يفضِّل العمل على حياة الزوجة وحياة الأولاد، أعرف حمدوشًا جيدًا؛ لذلك لن ينفعَني ولدي بشيء، بل سيكون عبئًا إضافيًّا، أتحمَّل تبعاته وحدي، وفنَّدَت أمي كلَّ مزاعمي. بعد زيارتها لبيتنا، ومجالسة حمدوش وزوجتيه، رأت أن المرأتين تشتغلان بكلِّ هذه الهمَّة؛ لأنهما تحبَّان حمدوشًا، وتحبَّان أولادهما، وهما سعيدتان في حياتهما هذه، وحمدوش يحبُّ بيته بكلِّ ما فيه، ويحبُّ قريته وعشيرته، وهذا هو سرُّ السعادة المقيمة في هذا البيت.

سافر سلمان في اليوم التالي، وترك أمي عندي، حدَّثتني كما لم تحدِّثني من قبل، حديثَ امرأة ناضجة خَبَرَت تقلُّبات الحياة، تقدِّم النُّصحَ لامرأة غِرَّة، لم تفقه من أمورها شيئًا بعد، أخبرتني بأنها تركت المدينةَ بعد زواجي؛ إذ صارت امرأةً وحيدة، تمضي أيامها الكئيبةَ بين الجدران، وعادت إلى بيتها في القرية، فصار لها مكانةٌ كبرى، فهي أمُّ الآنسة فضة، وأمُّ الطبيب سلمان، وأمُّ الضابط ذي النجوم، وحَماةُ المحامي، في القرية كلُّ الناس أهلها وأقاربها، تستطيع أن تكونَ نافعة للجميع.

خيبةٌ أخرى أضيفت إلى خيباتي، أمي تركت المدينة وعادت إلى القرية؛ لتكون ظلّاً لابنتها الآنسة فضة! وأنا؟ ما الذي بقي لي؟ سأعود إلى حلب، حياةُ القرى لا تناسبني، سأستردُّ مجدي الذي فقدته، ولو بذلت في سبيله حياتي.

قلت لأمي: خذيني معك، رفع حمدوش صوته زاجرًا ساخطًا مهدِّدًا: زوجة حمدوش تضع مولودَها خارج بيته؟ يا للعار! والولد الذي سيأتي من سيتلقَّفُه؟ أخواله؟ أهو يتيمٌ أم ابن حرام؟

صمتت أمي وصمتُّ، هذه الأعراف لا قدرةَ لنا على القفز من فوقها، وظلَّت أمي عندي حتى ولادتي، بسرعة اندمجت أمي في بيتنا، بسرعة تعرَّفت كلَّ أهل القرية، حتى صارت كأنها واحدةٌ منهم، تمضي نهارها في زيارة هذه واستقبال تلك، وتنام معي في غرفتي؛ لتتحدَّث إليَّ عن القرية وأهل القرية بكلِّ إعجاب وإكبار، وظللتُ أنا غريبةً وحيدة ضائعة.

مكثت أمي في بيتي حتى نهاية مدَّة حملي، كنت في كلِّ يوم أذهب إلى المدرسة، وفي كلِّ يوم أبكي وأرجو زوجي أن يُعفيَني من عملي هذا، المهمَّة الأخرى التي كلَّفَنيها ما أطقتها أيضًا، ولا تابعت مذاكرة أيٍّ من أولاده في البيت، وكانت أمي في غاية السعادة بين سكَّان منزلنا وسكان القرية.

ولدت صبيًّا، لكن ولادتي التي رأيت فيها الموتَ بعيني لم تكن إلا حدثًا عابرًا في حياة البيت وحياة حمدوش، أمي وحدها - بمساعدة فوزة وحمدة - أشرفت على ولادتي، لم يفرح حمدوش بالصبيِّ إلا بمثل ما فرح حين ولدت فوزة قبل أشهر، حملَهُ بين يديه، سمَّى الله، ثم أذَّن في أذنه، وأعاده إلى

جانبي في فراشي، هنَّأني بالسلامة وانصرف، لديه أعمالٌ هامَّة لا يمكن تأجيلها، ولديه صبيانٌ كُثْر لا يقلُّون أهميَّة لديه عن هذا الصبي، رحت أبكي من جديد؛ لخسارتي آخرَ ما أملك من أسلحتي، وأمي تحاولُ تهدئتي، تحاول جبرَ خاطري فلا تفلح.

طلبت من زوجي أن يسمِّيَه «سامرًا»، فالأستاذ محرز يُكنى بأبي سامر، وأنا أريد أن أكونَ أمَّ سامر، صرخ بي مجدَّدًا: ما هذا الاسم التافه؟ سامر؟ ألا يحتاج السامرُ ساقيًا ومِعزفًا وقَيْنَة؟ دَعي السمَرَ والقصف لأهله في حانات حلب، سأسمِّيه (خلف)، على اسم جدِّي، لا تناقشي في هذا الأمر، انتهى.

مضى أسبوعي الأول بعد الولادة، صحَّتي ما تزال في تراجع، الجفاء بيني وبين زوجي بلغ أقصاه، انفردت به أمي، ورجَته أن تصحبَني إلى قريتها، لا أعلم كيف تزلَّفَت إليه؟ لا أعلم كم تصاغرت بين يديه! حتى حصلت على موافقته، لكنَّه وافقَ في النهاية أن نسافرَ بعد أسبوعين؛ خوفًا عليَّ وعلى ولدي من مشقَّة السفر، ونحن في هذه الحالة من الضعف.

جاءتني أمي مستبشرة، قالت: هيَّا، اجمعي ما تحتاجين إليه من ثيابك وثياب ابنك؛ لتُرافقيني إلى بيتي، لا تظنِّي أنك مقطوعةُ الجذور، أنت ابنةُ عزٍّ وجاه، أنت تنتمين إلى عشيرة قوية متحابَّة متماسكة، لن أسلمَك إلى ما لا يُرضيك، تعالَي معي.

جمعتُ ثيابي في الحقيبة التي جئت بها يوم عُرسي، وجمعت ثيابَ ولدي، التي اشترى حمدوش نسيجَها، وخاطتها فوزة مع ثياب ابنها، وفق أزياء القرية، أنظر إلى ولدي الغارق في ثيابه تلك وفي (قماطه)، فلا أراه يختلف بشيء عن أولاد (الشحَّاذات) الغجَريات، اللاتي ينتشرنَ على الأرصفة وأمام أبواب المساجد في حلب، أراه في هيئته تلك، فأشعر بأني أكرهُه، وأكره نفسي؛ إذ أشعر أني متسوِّلة أبسُطُ كفِّي أمام فوزة وحمدة؛ لتجودا عليَّ ببعض الطعام، وبعض المساندة، لم أشترِ لابني شيئًا بنفسي، ولكني ألبستُه ما فُرض عليَّ وعليه، ورافقت أمي.

قبل مغادرتي ألقيت على ما حولي نظرةَ وداع، هذا المكان لن أعودَ إليه في حياتي، سأعيش في أيِّ مكان بعيد عن هنا، ودَّعت زوجتَي حمدوش بالعناق والقبُلات، ودَّعت أولادهما، كان حمدوش قد سبقنا إلى سيَّارته، وراح يضغط على أبواقها بغضب مستعجلاً وصولنا، جلست بجانبه أحتضنُ ولدي، وجلست أمي بجانبي، قطعت الطريقَ إلى الحسكة صامتةً أجترُّ ذكرياتي، وأستحضر أيام زواجي الأولى؛ حيث رافقت حمدوشًا إلى أجمل الأماكن في المدينة، كان سعيدًا، وكنت سعيدة، لماذا تغيَّر حمدوش؟ كان الحديث يدور رهوًا بين زوجي وأمي، وأنا بعيدةٌ عنهما وعن حديثهما، غارقةٌ في بئر همومي.

نزلنا في المحطَّة، كانت تذاكر السفر مستقرَّة في جيب حمدوش، لا أعلم منذ متى، راقب حمدوش وضعَ حقيبتنا في صندوق الحافلة الكبيرة، ثم أجلسنا في أماكننا، وحين عمل محرِّك الحافلة، دنا مني وأوصاني بالعناية بولدي، كما أوصاني ألا أطيلَ الغياب؛ لأنه سيشتاق إليَّ.

لم أُجبه، فإجازة الأمومة التي بدأتُها قبل موعد ولادتي بشهر كامل سوف تستهلكُ ما تبقَّى من أيام العام الدراسي، وتتلوها العطلةُ الصيفيَّة مدَّة ثلاثة أشهر، هذه المدَّة كافيةٌ لتدبُّر الأمر، نزل حمدوش ومشت بنا الحافلة، تطوي طريقًا إسفلتيًّا يخُدُّ وجهَ السهل الفسيح المغبرِّ بجرح طويل أسود، تجمَّع النجيع زفتًا على حافتيه ولم يندمل بعد.

غفَت أمي في مقعدها، وكذلك غفا معظم الركَّاب مستسلمين لاهتزازات الحافلة وبرودة الجوِّ بفعل مكيِّفات الهواء، وبقيت يَقْظى، آمالٌ جديدة تبرعمت في نفسي، في كلِّ مراحل عمري كانت أمي لا تعصي لي أمرًا، صحيح أن علاقتي بها قد ساءت في السنوات الأخيرة، لكنِّي تزوَّجت، لست الآن بالعانس التي تخجل من نفسها، سأعيد أمي إلى بيتنا في حلب، سأذهب إلى مقرِّ الحزب الذي رعى شبابي ومنحني الجاهَ والمنصب، أنا مدينةٌ له بكلِّ عُنفواني، لولاه لرجعت من المدرسة الثانوية يومذاك، مطرودةً بقانون الآنسة منيرة، لا أعرف ماذا أفعل

بالشهادة التي أحملها، حزبي شجَّعني على مواصلة الدرس، وبفضله نلتُ شهادةً جامعية تفوق شهادةَ أختي، لا بدَّ أنهم هناك يذكرونني، لا بدَّ أنهم يحتاجون إلى خبرتي ووجودي بينهم.

الحافلة تمشي، والطريق طويل، رحت أستعرضُ ماضي حياتي، وأحاول أن أتصوَّرَ المستقبل فلا أفلح، أهمُّ بداية لمستقبلي هي قطعُ صلتي بحمدوش، هذا الرجلُ لا أريده، ضممت ولدي إلى صدري، ووعدتُّه بحياة أكثر حضارة ومدنية، وثياب أكثر أناقة، سأُناديه: (سامر)، وأسجِّله في مدارس حلب باسم (سامر)، سأجعله ينسى اسمَ (خلف) الذي اختاره له أبوه، سأجعله ولدًا مُترفًا، يتنقَّل بين أقانيم السعادة؛ حتى ينسى القريةَ وانتماءه للقرية.

وصلنا إلى حلب، نزلنا في المحطَّة، فوجدنا أخي سلمان بانتظارنا، كان حمدوش قد اتصل به هاتفيًّا، وأخبره بموعد وصولنا، استوقف سلمانُ سيارةَ أجرة، وطلب من السائق إيصالنا إلى القرية، رفعت صوتي باحتجاج غاضب: لـمَ لا نذهبُ إلى بيتنا في حلب؟ أجابني بهدوء: إن البيت قد سلَّمناه لصاحبه، بعدما نقلنا منه حاجاتنا، وما عاد بنا حاجةٌ إليه، مرة أخرى رفعت صوتي: أين تسكنُ أنت؟ ومرة أخرى أجابني برزانته المعهودة: أسكنُ في المستشفى الوطني، طبيبٌ مقيم، لا مجالَ هناك لاستقبال الضيوف.

هذه المصيبة لم أحسب لها حسابًا، كلماتُ أخي بدَّدت أحلامي... لا... أحلامي أقوى من الريح، أرسخ من جبل (عقيل)، لا يمكن لقوَّة أن تبدِّدَها، سأضغط على أمي؛ لتستأجرَ بيتًا جديدًا في حلب، ونعيشَ أنا وهي فيه، أنا ابنتُها الأثيرة الجميلة، أعرف كيف أنتصر على كلِّ قراراتها، أعرف الطريق جيدًا إلى مواطن قوَّتها، ومواطن ضعفها، استسلمتُ للصمت وفي صدري تفور البراكين.

عاد ولدي للبكاء، قالت أمي آمرة: أرضعيه، لا، لن أُرضعَه هنا، أعادت أمرها بنَزَق: أرضعيه؛ ليسكتَ، لا تصمِّي آذاننا ببكائه، أما كفاه ما بكى طَوالَ الطريق؟ ألقمتُه صدري، فكفَّ عن البكاء، صحيح ما قالته أمي، طوال الطريق كان يبكي، وكنت غافلةً عن بكائه غارقةً في لجَّة أحلامي، أخذته أمي، بدَّلت له ملابسه في الاستراحة، نام مسافةً من الطريق، وعاد ليبكي، وكلَّما بكى تأمرني أمي: أرضعيه.

الفصل الخامس

مرحلة جديدة من مراحل عمري بدأت الآن، سألملم شَتات نفسي؛ لأبعثَها من جديد، امرأةٌ جميلة قوية مثقَّفة تقف في الطليعة من كلِّ أمر، شخصيَّة محورية تدور الدنيا من حولها ولا تقف، سأنسف جاه أختي فضة، وأتربَّع هنا على قمَّة الهرم، تاركةً المراتب التي تليني لكلِّ الناس.

أقف لأراجعَ نفسي، لماذا أتحاملُ على أختي؟ لِمَ كلُّ هذا الحقد وهذا الكيد، ألأنَّها نجحت في حياتها وأخفقتُ؟ ألأنَّها رسمت طريقَها في الحياة بنفسها، وسلَّمتُ مقاليد أمري لكاترين؟ ربما، سأنشغل عنها، سأتركها لشأنها، وأشقُّ لنفسي دربًا جديدًا في الحياة، دربًا لا أرى أختي في نهايته واقفةً أمامي كوجع الضمير، كتلِّ (بطنان) المنتصب بشموخ في هذه السهول المنخفضة، مخفيًا في جوفه تاريخًا كاملاً، لن أجعلَ انتقامي منها هدفًا أمشي باتجاهه، فالانتقام من شيم الضعفاء، ولا

أرضى أبدًا أن أكونَ ضعيفة.

جاءت كلُّ نساء القرية للسلام عليَّ وعلى أمي، أولهنَّ كانت فضة، الكلُّ جاء يهنِّئ بسلامتنا، ويدعو للمولود الجديد بالحفظ والبركة، الكلُّ يحمل الهدايا، ما أسعدَني! من هنا سوف أنطلق، من هنا سوف أُرسخ وجودي بين أهل قريتي؛ لأكونَ كوكبًا مضيئًا، ينظرون إليه في عليائه ولا ينالونه.

ولدي لا يكفُّ عن البكاء، سلَّمت أمره لأمي، فهي أقدر مني وأكثر خبرة في التعامل مع الأطفال، وجدت فيه أمي بعضًا من شبابها الذي مضى، ووجدت أمرًا يشغلها بعد أن حاصرَها الفراغ، ما زال جسدي تعبًا من السفر، ومن تبعات الحمل والولادة؛ لذلك التزمتُ فراشي لا أغادره إلا نادرًا، لكني وجدت في الأمومة حياةً جديدة، رحت أرقُب طفلي بفرح غامر، أراه يكبَرُ وتتغيَّر أحواله يومًا بعد يوم، أتابع حركاته وسكناته، أراه يضرب الهواء بيديه وقدميه، يُدير رأسه فيقفز إليه قلبي، أرى فيه جزءًا من جسدي ومن روحي، ينمو أمام نظري، ويتعرَّف ما حوله، لن أتركَ الأوهام تحاصرُه، سأجعله الجزء الفاعل منِّي.

اشتريت له ثيابًا جديدة من بائع متجوِّل، ثيابًا كثياب أطفال المدن، رميت بالخِرَق التي جئت بها من بيت أبيه في مَوقِد الحطب، وجلست أتأمَّل احتراقها جزءًا جزءًا، يغمرني شعورٌ

بأني أحرقُ مرحلةً من حياتي، ومن حياة ولدي، أحرق كلَّ ما يصلنا بحمدوش وبيت حمدوش، ضممتُ ولدي إلى صدري، ناديته بـ(سامر)؛ ليكونَ لي وحدي، باسمه وجسمه وروحه، وأكونَ أمه وحده، سنكون كلانا كِيانًا واحدًا، لا فردًا من أفراد قطيع بشريٍّ، يعيش هناك في قصر حمدوش.

سامر يبتسم لي، يركز نظره في وجهي ويبتسم، أشعر أن الدنيا كلَّها تبتسم لي، وليدي يناغي، يطير قلبي فرحًا بين أضلعي، ما أسعدَني! وما أروعَ الشعورَ بالأمومة! ما كنت أصدِّق قبل الآن ما تقوله الأمَّهات، استحوذ هذا الكائنُ الصغير على كلِّ اهتمامي وتفكيري، أفرح حين أحمله، أسعد حين أبدِّل ملابسه، ينام فأتمنى لو أجعل روحي مُلاءةً أغطِّيه بها، بدأت أحبُّ الحياة، وأراها جديرةً بأن تُعاش، كلُّ ما كان قبل سامر وهمٌ في وهم.

حمدوش ما انفكَّ يخاطب أخي سلمان بالهاتف، كلَّما أُتيحت له فرصةُ الذهاب إلى المدينة، ليس في قريتنا ولا في قرية حمدوش هاتف ولا صندوق بريد، كان يطمئنُّ عليَّ وعلى ولدي، ويطلب منه سلمان في كلِّ مرة أن يترُكَني أمضي العطلة الصيفيَّة مع أمي وأختي، فيستجيب لرغبتي دون قناعة، لكنَّه لم يحضُر لزيارتي، فمشاغله هناك كثيرة، ولا وقت لديه للسفر، وأنا أدعو الله أن يزيدَ في مشاغله؛ لينشغلَ عني.

سامر يكبَرُ أمام عينيَّ كلَّ يوم، وفرحتي به تكبُر أضعافًا مضاعفة، ثيابه التي اشتريتُها له يوم جئت به إلى هنا ما عادت تتَّسع لجسده، لا بدَّ من ثياب جديدة، صحبت أمي إلى حلب؛ لأشتريَ ما يلزمني، ولتساعدَني في حمل سامر وحمل مشترياتنا، قصدنا سوق (التلل)، غطستُ بين مَحالِّه لا أريد خروجًا، أمي تستعجلني، وأنا لا أُبالي بها وبغضبها، بي شوقٌ كبير إلى التسوُّق، سنة مرَّت، بل أكثر من سنة، منذ مغادرتي ذلك المنصبَ وخلوِّ يدي من النقود لم أدخل سوقًا، الآن أملك الكثيرَ من المال، أملك مبلغًا أعطانيه حمدوش قبل خروجي من بيته، اشتريت كلَّ ما اشتهيت شراءه، لي ولسامر، وحين سمعنا أذانَ الظهر لم تستطع أمي معي صبرًا، قطعنا السوق باتجاه (العزيزية)، هنا المركز الثقافيُّ، هنا أمضيت الكثيرَ من الأوقات الممتعة في قاعة المحاضرات، أتحدَّث ويُنصت الجميع لحديثي، أُلقي المحاضرات عن ضرورة تحرُّر المرأة ومساواتها بالرجال وفق توجيهات الحزب، وتنهَّدت بحُرقة، كلام... كله كلام، وأمي تقول: ليس على الكلام ضريبة (جُمرك) كلُّ ذلك قيل هنا، كله نُسيَ في ساعته هنا، هل أنا امرأةٌ متحرِّرة؟ هل حقَّقت أيًّا من أحلامي وطموحاتي؟ كلام...

وجدتني أسبق أمي بخطوات؛ لأقفَ أمام لوحة إعلانات مديرية الثقافة، قرأتُ عناوين المحاضرات، قرأت أسماء

الشعراء والشاعرات، وإعلانات عن معارضَ فنيَّة ستقام هنا، كنت فيما مضى من الشخصيَّات المهمَّة التي تحضُر هذه النشاطات، يُحجَز لي كرسيٌّ في الصفِّ الأول دائمًا؛ لأكونَ مقابل (كاميرات) الإعلام بلا حواجز، والآن...

وقع نظري على ورقة مطبوعة، تزدحمُ بالأسماء، قرأت عنوانها: أسماء الناجحين في مسابقة... لم أُكمل قراءة العنوان؛ إذ سبقتني دموعي، وغشَّت عينيَّ بحاجز من الغَبَش، هذه المسابقة تقدَّمت إليها قبل سفري إلى الحسكة، وقطعت الأملَ من الفوز بعمل هنا؛ لكثرة ما تردَّدت على الإدارة، أسألهم ولا يجيبون، دقَّ قلبي خوفًا وترقُّبًا، قرأت الأسماء بدقَّة، اسمي يتوسط الصفحة، أيةُ مفاجأة سارة؟ أيُّ سطر سيغيِّر مجرى حياتي، ويعيد لروحي وهجها الذي انطفأ؟ كتلةُ الرماد في داخلي انكشفت عن مخبوء الجمر، أزهر أملٌ في قلبي، فمنحني قوةً وفرحًا لا يشبه الفرح، بل يقارب الجنون، بسرعة اتخذت قراري، سألتحق بالعمل هنا، سأترك الحسكة بكلِّ ما فيها ومَن فيها، لن أخشى البَطالةَ بعد اليوم، لن أنتظرَ من يجود عليَّ بلقمتي، سأعود إلى واجهة الحياة العامَّة، سأستعيد ألقي ومرحي، لن أبقى رهينةً للقلق والصُّداع، آه ما أسعدَني هذا اليوم!

رجعت مع أمي إلى القرية قبيل الغروب، كان الفرح سِربالاً

يلبَسُني، ولا يخفى على أحد، تطلَّع الناس إليَّ بدهشة، ثم لوَوا أعناقهم منصرفين، لا يهمُّهم فرحي ولا حزني، وأنا أيضًا لا يعنيني موقفهم، أنا اليوم سعيدة، أشعر أن الهلال الصغير في الأفق الغربيِّ يضيء لي وحدي، يهنِّئني على هذا الفرح، وأن الشمس ما احمرَّت قبل غروبها إلا خجلاً من عظمتي وانتصاري، وهي التي تمشي منذ الأزل لم تُنجز جديدًا، ولا غيَّرت مسارَها، الدجاجات، قُطعان الأغنام العائدة من مراعيها برنين أجراسها وثُغاء حُمْلانها، كلُّها تشارك في مهرجان فرحي، كلُّ هذا لا يكفيني، أريد توزيعَ فرحتي على كلِّ من أعرف، ومن لا أعرف، أريد وأريد ثم أريد... ما عدت أعرف ما أريد؟

أهملت سامرًا، لم أستجب لبكائه، أنا مشغولةٌ عنه بالسعادة التي نزلت عليَّ في نهايات الصيف فجأة كمطر أيلول، سألتحق بوظيفتي الجديدة في حلب، سأعود إلى واجهة الحياة العامَّة وأضواء الإعلام، ولكن من زاوية أكثر ألقًا، كنت هناك محاصرةً بالحزب وتعليماته، والآن أنا في بؤرة مديرية الثقافة، أنا امرأةٌ مثقَّفة جميلة، لا يحقُّ لقوة في الأرض زحزحتي عن مكاني في الواجهة، نعم، مكاني في الواجهة أنَّى حللت، ما لي وللزوج والمدرسة والقرية؟ ما شأني بتعليم الأولاد؟ سأتصدَّر الصفَّ الأول من صفوف قاعة المحاضرات، ألقى الأدباءَ والشعراءَ من كلِّ الأحزاب والاتجاهات الفكرية، فما مُسوِّغ

احتباسي في أفكار حزب واحد؟

كانت أمي تراقب انفعالاتي بعين الرِّيبة، لم أنتبه إليها، لكنَّ صبرها لم يطُل، صرخت في وجهي تؤنِّبُني وكأنني طفلةٌ ذات خمسة أعوام، شتمتني ودفعت إليَّ سامرًا، أمرتني بتبديل ثيابه المبتلَّة وإرضاعه، قالت: إن شيخوختها ما عادت تحتمل رعونتي، وقالت: إن طيشي سوف يقتلني ويقتل ولدي، ولن يأسفَ عليَّ أحد حينئذ.

أجفلني كلام أمي، ما عهدتُ منها مثل هذه القسوة، لماذا تُحاول إجهاضَ فرحتي قبل أن تعرفَ أسبابها؟ لماذا تحاول قتلي وقتلَ سعادتي؟ تناولت ولدي من بين ذراعيها، استبدلتُ بملابسه المبتلَّة ملابسَ جديدة اشتريتها له في بداية النهار، لكني كنت أمارس عملي ذاك بهدوء مَشوب بالرفض، هذا الطفل سيكون عبئًا عليَّ في انطلاقتي المقبلة، ماذا أفعل به؟ لست أدري، بل إنني أدري، ويجب أن أتصرَّف.

كان سامرٌ يبكي، وكنت غافلةً عن بكائه، ظلَّت أمي تراقبني عن كثب، زعقت من جديد: هيا أرضعيه، لا أطيق بكاءه المتواصل الذي ثقب أذني، أأنت أم؟ والله، لو كان ابنُك هذا في رعاية حمدة أو فوزة، لكان خيرًا له من وجوده معك، أنت فتاةٌ طائشة لا تستحقِّين الأمومة.

أذهلني كلام أمي، أتُراها علمت ما أفكِّر فيه؟ من أين لها

القدرةُ على قراءة الأفكار، وهي امرأةٌ أميَّة؟ لماذا تقف منِّي هذا الموقفَ العدائيَّ وأنا ابنتها الأثيرة؟ هل انصرفت عواطفها كليًّا باتجاه أختي فضة، وما عاد في قلبها مكانٌ يتسع لي؟ فليكن ما يكون، لن يثنيَني شيء عن عزمي، دنت مني، أمسكت كتفي وهزَّتني بعنف، اقتلعتني من أحلامي:

- ماذا قرأتِ في اللوحة التي وقفت أمامها في العزيزية؟

- قرأت اسمي بين المقبولين في مسابقة تقدَّمتُ إليها قبل سنة.

- وماذا يعني هذا؟

- يعني أنني سوف ألتحقُ بالعمل هنا، وأترك مهنةَ التعليم التي لا أطيقها.

- وزوجك؟

- لن أعودَ إليه.

- وولدك؟ من سيربِّيه؟

- سأتركه كلَّ يوم في رعايتك ريثما أعود.

- وهل تحسبين أني خادمةٌ لك، ومربِّيةٌ لأبناء حمدوش؟

- سامرٌ ولدي، وأنت جدَّته.

- أنا جدَّته، لا مربِّيتُه، ولا خادمةُ أبيه، ستتفرَّغين لتربيته،

أو نرسله إلى أبيه، فهو أولى منِّي بتربيته.

ترسلونه إلى أبيه؟ وهل أستطيع الاستغناء عن فِلذَة كبدي؟ هل أستطيع العيشَ هنا، وقطعةٌ من جسدي وروحي تعيش بعيدةً عني في محافظة أخرى؟ ما أقساها أمي، شعرت بأني أكرهها، تُرى أين كانت تخفي هذه العداوةَ التي انفجرت في وجهي؟ أمي لا تريد لي السعادة، أمي تكرهني وتحبُّ فضة، اللعنة على فضة، ماذا فعلت حتى استأثرت بقلب أمي دوني؟ بل سرقته منِّي، ما الذي فعلته فضة؟

قامت أمي من مجلسها، واتجهت إلى الباب، فتحته والتفتت إليَّ، أخبرتني بأنها ستسهر في بيت فضة، وأقسمت بأنها لن تدعَني أطأ دربَ حلب بقدمي، إلا إذا كان ولدي معي، ريثما يحضُر أبوه فيأخذه إليه، بسرعة فكَّرت، لحقت بها، ولم تبتعد عن البيت سوى خطوات، قلت لها: انتظريني، سأسهرُ معك عند فضة.

أختي تزوَّجت قبلي بسنوات ثلاث، وأنجبت صبيًّا وبنتًا، تتركهما كلَّ يوم في رعاية جدَّتهما أم صطام وتذهب لمدرستها، أختي تعيش حياةً مترعة بالسعادة والأمان، أحسدها، من كلِّ قلبي أحسدها؛ لذلك لم أدخل بيتها مرة واحدة، توقَّفت أمي والتفتت إلي، أدهشها تبدُّل موقفي، انتظرتني فلحقتُ بها، مشَينا على الدَّرب المظلم صامتتين، كان السكون يخيِّم على الجوِّ، لا

يُعكِّره سوى نباح كلب يأتي متقطِّعًا من البعيد، لكنني سعيدة، فضة امرأةٌ متعلِّمة، زوجها محام، أستطيع بسهولة جذبَهُما إلى صفِّي في معركتي مع أمي، لن يضيرَ فضة أن يبقى سامرٌ مع ولديها، ولن يخذلني ابن عمِّي، لا شكَّ أنه عارف بحقوق المرأة، مؤمنٌ بضرورة تحرُّرها، وإلا ما كان اختار زوجةً موظفة.

دخلت منزل أختي، وما كنت قد دخلتُه من قبل، هالني التناسُق و(البساطة) الظاهران في كلِّ ناحية منه، أخجلني منظرُ ولديها، يناmان بهدوء كمَلَكَين، بثياب نظيفة وفِراش نظيف، دارت نظرتي في كلِّ أرجاء البيت الناطقة بالنظافة والترتيب، وحطَّت رغمًا عنِّي على ثياب ولدي دائمة الاتِّساخ، التي لا أفطن إلى تبديلها إلا بعد إلحاح أمي، فضةُ توفِّق بين عملها في المدرسة ورعاية ولديها ونظافة بيتها، ثم تجد متسعًا من الوقت؛ لتتزيَّن بزينة خفيفة، وتجلس للسَّمَر مع زوجها، وأنا مشغولةٌ دائمًا، غاضبة دائمًا، لا أكاد أُنجز عملاً واحدًا بإتقان، ما أشدَّ الفرق بيني وبينها! لكني لن أعترفَ بذلك، أنا أفضلُ منها بكل مقاييسي، تأخذني العزَّة بنفسي، فأجلس شامخةَ الرأس، أنظر شَزْرًا إلى كلِّ ما يحيط بي.

أختي تجلس مع زوجها يتسامران، بينهما طبَقٌ من الفاكهة وإبريقُ الشاي، ما أسعدَها أختي! سارعت بارتداء ثوب محتشم

قبل دخولنا، كانت تُسدل أطرافه حول جسدها حين لحقت بزوجها وهو يفتحُ لنا الباب، عانقتني بحفاوة، وزَّعت قبُلاتها على وجنَتيَّ وعلى كتفي، ثم قبَّلت يد أمي، دعتنا للجلوس وهي ترشُّ عبارات الترحيب رشًّا، من أين تأتي أختي بكلِّ هذا الكلام؟

جلسنا، كانت المودَّة والمحبَّة بينها وبين زوجها ظاهرةً لا تخفى، تفرُّ من كلامهما كسِرْب (السنونو)، ومن نظرات الاحترام الذي يبديه كلٌّ منهما للآخَر، راحت تسألني عن حياتي وعن أحوالي، وتعتذر عن قلَّة زياراتها لي بكثرة مشاغلها، أختي تكذب، فالمدرسةُ مغلقة أبوابها؛ بسبب العطلة الصيفيَّة، لكنها ما تركتني لهواجسي، زوجُها الآن في عطلة قضائيَّة تستمرُّ نصف شهر، يستغلُّها في مساعدة أبيه بأعمال الحقل، وهي تُنجز أعمالَ بيتها في الصباح المبكر، وتلحق به إلى هناك؛ حيثُ تجتمع كلُّ الأسرة للعمل، تتقاسم العملَ مع حماتها وبنات حميها، ولا تعود إلا في المساء، تغتسلُ مع ولديها، وتحضِّر الطعام، وربما تحلب النعاج، وتجمع البيض من الخُمِّ.

طار من ذاكرتي كلُّ الكلام الذي حضَّرته؛ لأُلقيَه أمامهما، تحوَّل موقفي مئةً وثمانين درجة، أأستنجدُ بهما؛ ليَحمِياني من عمل يجدان متعةً في مزاولته؟ أأطلب منهما العونَ على موقفي وهما لا يملكان عونًا لنفسَيهما؟ أخطأت طريقي، نعم، إني

أخطأت طريقي، ما كان يجب أن أزورَها، ما كان عليَّ الوقوف وقفةَ (الشحَّاذ) أمام الوفاق الظاهر بينهما، أتسوَّل موقفًا مساندًا لا يقتنعان به ولا بجدواه، ما أحبُّ أن أسمعَ منهما ما سمعتُ من نصائحَ ساذجة، تأمرني بالعودة إلى بيتي وإلى زوجي؛ لذلك قرَّرت الهجومَ بدل الدِّفاع.

- كنت اليوم في حلب، ومررتُ بمديرية الثقافة.

- ما شأنُك أنت بمديرية الثقافة؟ قالته أختي.

- قبل سفري إلى الحسكة تقدَّمت بطلب للعمل هناك، والآن صدر القرارُ بقَبولي.

- لكنك تعيَّنت رسميًّا في مديرية التربية!

- سوف أستقيل، مهنةُ التعليم لا أريدها، ما أسوأَ أن يُمضيَ المرء نهاره بين أطفال أغبياء، يلقِّنهم العلم بالملعقة، ولا يكادون يبتلعونه، ولا يهضمونه.

- أخطأتِ يا أختي، ما أمتعَ أن تقدِّمي ثمرة علومك وفكرك لأطفال هم مستقبلُ البلاد، ينقش اسمك كالوشم في ذاكرتهم، ويعيش معهم ما عاشوا! وما أروعَ أن تنظري في بريق عيونهم وهم يُتابعون كلامك وتوجيهاتك باهتمام ومحبَّة! ما أجلَّ أن تكوني مربِّيتَهُم وموجِّهتَهُم إلى الأخلاق الفاضلة!

- دعي عنك هذه النصائحَ الساذجة، مكاني كان دائمًا بين

النُّخبة المثقَّفة، لا بين أطفال تفوح من ثيابهم رائحة البول...

كانت أمي تستمع إلى حوارنا صامتة، وكذلك صطّام، يتابعان بنظرهما مصدرَ الكلام، كانت لهجةُ أختي مشحونةً بالقوة والثقة بما تعمل، كانت آسفةً لطريقة تفكيري، وكنت أرفع نبرةَ صوتي مرة بعد مرة، وأتعمَّد إهانتها في كلِّ كلمة أقولها.

بعد انتهاء مشاحنتنا، وفترة من الصمت تكلَّم صطّام:

- اسمعي يا ابنة عمِّي، أنت تعيشين حياةً مستقرَّة، صار لك عملٌ ثابت وزوج وولد، حافظي على استقرارك، على بيتك وولدك، لا تفرِّطي في كلِّ هذا من أجل سراب خادع، ستشتغلين في وظيفة تافهة، ستمرُّ عليك الأيام متشابهةً مملَّة، ستقتلك الرَّتابة، وينهكك السفر كلَّ يوم إلى حلب بسيَّارات القرية والعودة فيها في وقت متأخِّر، لن تكوني في وظيفتك الجديدة أسعدَ منك في التعليم.

- أنا ما جئت أسألكما النصيحة، أنا حُرَّة فيما أختار لنفسي، ولقد اخترت، لن أسافرَ في سيارات القرية، سأسكنُ في حلب، ولن أستسلمَ لرتابة الدوام الوظيفي، سأكون كلَّ يوم في شأن جديد، بين أهمِّ الوجوه الثقافيَّة والإعلاميَّة في البلد.

- ستندمين، ولكن قبل كلِّ شيء، هل يوافق زوجُك على ما تفعلين؟

- ما شأنُ زوجي؟ أنا امرأةٌ متحرِّرة، لا أقبل بحكم أحد ولا بإملاءاته، سأعيش حياتي كما أشتهي، لا كما تريدون.

- ستتركين زوجك وتهدمين بيتك؟ وولدُك هذا، هل سيعيش يتيمًا وأنت مشغولةٌ عنه بنظرياتك؟ هل سيغفرُ لك حين يكبَر؟

ألقيت نظرةً خاطفة على سامر، قارنت بينه وبين ولدَي أختي، بين نظافتهما واتساخه، بين هدوئهما ورائحة الحموضة التي تفوح منه باستمرار، شعرتُ بأني أكرهه، هذا الكائن الضئيل يستطيع تقييدَ حرِّيتي وإجباري على نمط حياة لا أرغبه؟ وسأنتظر حتى يكبَرَ، فيسامحَني أو يدينَني؟ بأيِّ حقٍّ ملك هذا الطفل حاضرَ حياتي ومستقبلها؟

- ليغفر لي أو لا يغفر، هذا شأنُه، لن أسلمَهُ زِمامَ أمري، لن أُحكِّمَه في حياتي.

تدخَّلت أمي بغضب:

- وهل تظنِّين أنك وحيدةٌ في الدنيا؛ لتفعلي كلَّ ما يحلو لك؟

- هناك إخوتك وأعمامك والعشيرة كلُّها، ثم زوجك، هل سيوافق الجميع على رعونتك؟ اعقلي يا وضحة، كفاك تشتتًا وضياعًا.

- وهل ترونني مجنونةً إذا لم أستجب لما تطلبون؟ حسنًا

اعتبروني كما تشاؤون، لن يفُلَّ ذلك عزمي.

حملتُ ولدي على ذراعي، وغادرت المكان هرولةً، حين خرجت من بيت أختي شعرت بأن الفضاء كلَّه ملكي، أنا حرَّة متحرِّرة، الآن بدأت معركتي لنيل حرِّيتي الحقيقية؛ أسوةً برفيقاتي المناضلات، كلُّ ما كان في السابق هباءٌ في هباء؛ دخولي الحزب واحتلالي منصبَ رئيسة المكتب النسائي فيه كان مصادفة، لم يعترضني أحد، الآن بدأتُ أعيش النضالَ الحقيقي، الآن بدأت ثورتي، فلأشحَذ أسلحتي، قوَّة غريبة أشعر بها في نفسي جعلتني أفرح، بل أرقُص، وضعت ابني على الأرض راح يبكي، ورحت أرقص، شعرت بأنِّي أطير في الهواء، أحلِّقُ كالطيور الجارحة، أبسُط جناحيَّ وأعلو ثم أعلو، لا حدود لانطلاقتي، ولا حدود لفرحتي.

بعد دقائقَ لحقت بي أمي، كان الغضبُ سمًّا يقطر من عينيها، ضربت البابَ بقدمها فانفتح على مِصراعَيه، صوت الباب أفزعني، فتوقَّفتُ عن الرقص، بدأت تشتمني، وتصرخ بأعلى صوتها، تنعتني بسوء الخلق، بل بانعدام الشُّعور الأخلاقي، استمعت إليها بُرهَة، ثم أخذتُ ولدي، بدَّلت ثيابه، أرضعته ثم أوَيتُ إلى فراشي، قبل ذلك التفتُّ إليها ببرود، وقلت لها: إن الأخلاق السيِّئةَ التي تنعَتُني بها هي نتاجُ تربيتها، فإن كنتُ كما تقول، فلا تلومَنَّ إلا تقصيرها، ضمَمتُ ولدي إلى

صدري وتظاهَرتُ بالنوم.

قلبي يدقُّ من الفرح، أعصابي مُستنفَرة للمعارك القادمة، لساني يردِّد ببهجة لا مثيل لها: أنا حرَّة متحرِّرة، حتى أخذني النومُ وأخذ صغيري، لا أعلم إلى متى أرِقَت أمي، ولا يهمُّني أن أعلم، فلقد وضعتُها في الصفِّ الأول من الجبهة التي سأحاربها، أمي لا سلاحَ لديها سوى لسانها، فلتقُل ما تشاء، لن أُتعبَ نفسي بالردِّ عليها.

أتُراني نمتُ تلك الليلة؟ ربما، لكنَّ قناع المناضلة من أجل التحرُّر الذي لبسني منعني من النوم، كانت تدورُ في خيالي عشراتُ المعارك مع زوجي، مع أمي، مع رجال القبيلة، حروبٌ أنا فيها البطلُ المطلَق، كما في الحكايات، كما في الأفلام، كلُّ من يواجهونني يتساقطون أمامي صَرعى، كدجاج يجتاحُه الوباء الأصفر.

طلع فجرٌ ليس كمثله فجر، سارعت بارتداء ملابسي، وجلست أمام المرآة؛ لآخذَ زينتي، رفعت أمي رأسَها من تحت لحافها، هالها ما رأت، أمي ما تزالُ غَضبى منذ الأمس، فلتغضَب، ثمن التحرُّر ليس بالقليل، نضَت عنها لحافَها واندفعت إليَّ، صرخت في أذني: ماذا تفعلين؟ أجبتُها ببرود وأنا أفرش الأساسَ الأبيض على وجنتيَّ: أحضِّر نفسي للسفر إلى حلب، سأستكمل أوراقي؛ لأبدأَ العمل هناك، جمعت

بيديها أدوات زينتي من مساحيقَ وأقلام كُحْل وأصابع أحمر الشِّفاه، ورمت بها في صحن الدار؛ لتمتزجَ بالوَحَل المتجمِّع تحت صُنبور المياه، وشرعت تدوسُها بقدميها حتى أتلفتها، قالت: إن المرأة الناشزَ لا يحقُّ لها أن تتزيَّنَ، وأقسمت أنها لن تدَعَني أغادر البيت حتى يأتيَ حمدوش؛ ليقرِّرَ ما يراه في أمري.

تركتها تُرغي وتُزبِد كما يحلو لها، أكملت ارتداءَ ثيابي، لا بأس بالسفر إلى حلب دون (ماكياج)، سأشتري عُدَّةً جديدة من السوق القريب، ولن أعدمَ مكانًا أتزيَّنُ فيه، نقودي لا تكفي للذهاب إلى صالون التجميل؛ لذلك ربما ألجأ إلى حمَّامات مديرية الثقافة، أيُّ ضَير في هذا؟ ألست امرأةً متحرِّرة؟

تركت ولدي يغِطُّ في نومه، وغافلتُ أمي وهي مشغولةٌ بصلاة الفجر، لأخرجَ على عَجَل، وأركبَ أول سيارة مسافرة إلى حلب، أمي امرأة حنون، لن تتركَ سامرًا يتعذَّب في غيابي، ستعتني به أكثرَ مني، أنا متيقِّنة من هذا؛ لأني أحمله في كلِّ يوم، أُرضعه، أبدِّل ثيابه، وما ألبث أن أملَّ فأتركَه، أمي لا تملُّ منه أبدًا، ولا تسأم من العناية به، ولا من توبيخي على تقصيري تجاهه، سأتركُه لها منذ اليوم فلتشبَع به.

وصلتُ إلى حلب، ما اكترثت لأواني اللبن التي رافقتني في رحلتي، ولا انزعجت من الصَّخَب الذي تُثيره أحاديث الركَّاب بأصواتهم المرتفعة، كنت في شغل عن كلِّ ذلك بالأمل الجديد

الذي أشرق في سماء يأسي، فغيَّر مجرى حياتي وتفكيري. مشَيتُ في شوارع حلبَ مشيةَ العاشق الملهوف، ووزَّعتُ نظراتي على الجدران والأبواب والنوافذ، كانت الشوارع مقفرة، والمحالُّ التجارية مغلقة، الدوائر الحكومية بدأت تفتح أبوابها، لا بأسَ، عملي اليوم ينحصر في تلك الدوائر، ما لي وللسُّوق؟ لا أحتاج إليه، بل يلزمني شراء مجموعة جديدة من أدوات الزينة منه، أغيِّر بها منظرَ وجهي الكالح، وبعض العطور، أُزيل بها حُموضةَ اللبن التي تغلغلت في ثيابي داخل الحافلة، سأبدأ باستخراج بعض الأوراق الرسميَّة ريثما يفتح السوق أبوابه.

في ديوان مديرية الثقافة استقبلتني موظفةٌ شابَّة، لم تُكمل العشرين من عمرها، تحشر جسدها في بنطال لا يكاد يتَّسعُ لها، ألقيت عليها تحيةَ الصباح، فردَّت بوجه باسم: أهلاً يا خالة، ماذا تطلبين؟ خالة؟ أأنا خالة؟ هل أصبحتُ عجوزًا كما تنبَّأ الدكتور فارس، أو أن القهر الذي عشتُه بعد زواجي من حمدوش قد غيَّرني، وأثَّر في جمالي فشوَّهني؟ تبًّا لحمدوش، ابتلعتُها غُصَّةً في فؤادي ولم أُجب، أخبرت الفتاة بأن اسمي مُدرَج في القائمة على لوحة الإعلانات، وأني أريد استكمالَ أوراقي؛ لألتحقَ بعملي، سحبت وُرَيقةً من دُرجها، سجَّلت عليها ما يجب إحضارُه من مستندات وطوابع وأختام، ناولتني إياها ولم تنظُر إلى وجهي، كانت مشغولةً بحديث مع زميلة لها،

لم تشأ قطعه، وبيُسراها تمسك كوبًا خزفيًّا كبيرًا، تشرب به الشاي.

رحت أركض من دائرة إلى أخرى أسابق الزمن، من هنا وثيقة (غير محكوم)، من هناك مصدَّقة جامعية، طوابع، أختام، ظللتُ أركض وأركض، ويتربَّص بي وجهُ تلك الشابَّة في كلِّ منعطف؛ ليقول لي: يا خالة! رحت أُحصي سنوات عمري التي تسارع نحو الأربعين، نعم أنا بالنسبة لهذه الفتاة خالة، يجب أن أعترفَ، لو تزوَّجت كما تتزوَّج بنات قريتنا، لكان لي أولادٌ أكبر منها، لكنِّي لن أعترفَ، فما زلت شابَّة، وما زلت جميلة، وإن كان ينقصُني مَسحَة من (الماكياج)، سأشتريها الآن من السوق.

عند انتهاء الدَّوام الرسميِّ شعرت بالإرهاق، ما عادت قدماي قادرتين على حملي، والسوق قريب، اشتريتُ منه ما يلزمني، وركبت الحافلةَ العائدة إلى القرية، تذكَّرت أني لم أذُق طعامًا منذ ظهر الأمس، لا بأس في قليل من الجوع يعيد لخصري رشاقته، الحافلة تسير باتجاه الشرق، وأفكاري تجري في الغرب، أحلُم بالعودة إلى أجواء قُسِرتُ على الخروج منها، سأعود، وسأكون أكثرَ قوة، وأشدَّ بأسًا، موظفةً مثبَّتة، بشهادة جامعية لا تملكها تلك التافهةُ التي خاطبتني في الصباح: أهلاً يا خالة. حين وصلتُ إلى البيت لم أجد أمي هناك، ولا سامرًا، خبَّأت أدوات زينتي في مأمن، وتمدَّدت على سريري؛ لأنامَ

نومًا عميقًا هانئًا ما ذقت مثله منذ شهور.

صحَوتُ مع الغروب على ضجَّة غير عادية، صوت محرِّك سيارة انطفأ أمام بابنا تمامًا، لا عهد لدارنا بالسيارات، أصَختُ السمع، وصلني صوتُ أخي بكري، تبسَّمت في مَرقَدي، لا بدَّ أن أمي استنجدَتْ به بطريقة ما؛ لتبدأ ضدِّي حرب القبيلة، وأنا مستعدَّة لهذه الحرب، فأهلاً بها. هناك في الحزب الذي كنت أنتمي إليه، كانت الفتيات يكشفنَ عن أذرعهنَّ وسيقانهنَّ وأكتافهن؛ ليعرضنَ الكدَمات الزرقاء التي خلَّفتها حفَلات الضرب التي قام بها الآباء والإخوة والأعمام والأزواج، كانت تلك الكدَمات تلقى اهتمامًا كبيرًا من الرِّفاق، يعدُّونها أوسمةَ شرف، ينهالون بسببها على الرفيقات مديحًا وتشجيعًا على مواصلة النِّضال، وأظلُّ بينهن أكابد خجلي، فلا أحدَ من أهلي يُهدي إليَّ مثلَ هذه الأوسمة؛ لأكشفَها بزَهْوٍ أمام الرِّفاق؛ لأثيرَ الإعجاب ببسالتي ونضالي، يبدو أن الزمانَ قد استدرك هذا النقصَ في مسيرتي النضالية، فجاء يكمِّله الآن، هذه خطوتي الأولى في الطريق الصحيح، طريق التميُّز والتمرُّد وخرق قوانين العشيرة وأعرافها، وفرض كلِّ ما أريده على رغم أنوفهم.

فُتح الباب ودخلت أمي، دخل بعدها أخي سلمان وأخي بكري، ثم أختي وزوجها، الكلُّ فرحٌ مستبشر بزيارة أخي بكري، القادم من ثُكْنَته في أقصى جنوب البلاد، ولقد مرَّ في

طريقه بالمستشفى الوطني، فاصطحب معه سلمان، التأمَ شملُ العائلة، وما عليَّ سوى الاستعداد النفسيِّ لإثبات وجودي.

سلَّم عليَّ أخوايَ بكري وسلمان، كأنهما لا يعلمان شيئًا من أمري، عانقتني فضة، متجاوزةً مشاحنات الأمس، وإهانات الأمس، ثم جلس الجميع؛ ليستمعوا إلى ما يتحدَّث به بكري، عن عمله وعن غربته، التفت أخي بكري إلى أمي التي تحمل سامرًا بين ذراعيها، سألها مازحًا: هل أنجبت أخًا لنا في غيابي؟ أجابته بعد زفرة حمَّلتها شيئًا من غيظ الفجر: إنه ابن أختك وضحة، قال: ما شاء الله، أختي وضحة صارت أمًّا، الاثنتان سبقتانا، وبقيت أنا وسلمان في مؤخِّرة الركب، هذا ظلم، قُم بنا يا أخي إلى دار عمِّك عواد، سأعقد نكاحي على ابنته شمسة، ولن يبقى بيننا عَزَبٌ سواك، هيَّا، أكمل دراستك؛ لنفرحَ بك.

زغردت أمي وأختي فضة، ذهبت فضة إلى بيتها مسرعةً؛ لترتديَ أجمل أثوابها، وفتحت أمي خزانةَ ثيابها، ثم قالت: ألا نتعشَّى قبل ذلك؟ أجابها بكري: سنتعشَّى هناك في بيت عمِّي، لبست أمي ثوبًا زاهيًا، وضعت على رأسها وشاحًا مقصَّبًا، ثم التفتت إليَّ آمرة:

- بدِّلي ثيابك وثياب ابنك؛ لتذهبي معنا.

فكَّرت قليلاً، هل أرفضُ الذهاب معهم، أو أحضُر وأُفسد

على الجميع فرحهم؟ استقرَّ رأيي على الحضور، وتفجير قنبلتي هناك، ستكون ثورتي هناك أكثرَ اتساعًا وشمولاً، لن أدعَ أحدًا ممَّن حولي يفرح بشيء، لماذا يفرحون وأبقى وحدي أُكابد شقائي؟ ارتديت أجملَ أثوابي، وجلست أمام المرآة ألوِّنُ وجهي بصارخ الألوان؛ لعل أحدًا منهم يحتجُّ أو يعترض، لم يلتفت إليَّ أحد سوى أخي سلمان، قال وهو يتأمَّل ألواني: أختي وضحة دائمًا أجملُ من أيَّة عروس، ضحك الجميع لهذه السخرية إلا أنا، مشَيتُ في آخر موكبهم أُجَرجرُ خيبتي، وأمضغ قهري، ثم أسأل نفسي: لماذا؟ لماذا؟

وُزِّعَت دعوةٌ شفهيَّة على كلِّ بيوت القرية، حضر أعمامي وأولادهم، عمَّاتي وأولادهن، الجميع فرحٌ مستبشر، أُطلقَت الزغاريد و(الأعيرة) النارية، عُقد نكاح أخي بكري على مخطوبته شمسة، ذبحوا خروفًا واحدًا، وبعد ساعة كان طعام العشاء جاهزًا، وُضعَت مائدةٌ للرجال وأخرى للنساء، التفَّ الجميع حول الطعام، وبقيت على مَبعَدة، أُبدي اشمئزازًا واضحًا، وأحكي لمن تجلس قربي عن الفرق بين أناقة العَشاء في المطاعم الكبرى وهذا العَشاء، تعشَّى الجميع، وبقيت وحدي جائعة، تُثير معدتي رائحةُ اللحم والمرَق، تمنَّوا للعروسين حياةً سعيدة هانئة، وبقيتُ صامتةً على هامش فرحهم، لم يسألني أحدٌ عن سبب امتناعي عن المشاركة؛ لذلك لم تُتَح

لي الفرصة لقول شيء، أو لتنفيذ ما خطَّطتُ له، انفضَّ الحفل ومضى كلٌّ إلى بيته، وقد اتفقوا على موعد العُرس في الأسبوع القادم.

بعد عودتنا إلى البيت بدأت سهرةٌ جديدة، استمرَّت حتى شروق الشمس، تحدَّث فيها بكري عن جَهاز بيته وجَهاز عروسه، وتحدَّث سلمان عن حلمه بإنهاء سنوات اختصاصه في طبِّ الأطفال؛ ليفتحَ عيادةً له هنا، كان يبحث مع أمي إمكانيَّة استئجار منزل في القرية يجعله عيادة، وبعد استعراض المنازل المبنيَّة بالإسمنت وأسماء أصحابها، رأت أمي أن يبنيَ سلمان لنفسه عيادةً جديدة، يؤثِّثُها كما يشاء، ذلك خيرٌ من استئجار منزل سيُعيده إلى أصحابه مهما طال به الوقت، قلَّب كفَّيه يشكو قلَّة المال، قاطعته أمي بمحبَّة، مؤكِّدةً له أن كلَّ سكَّان القرية ينتظرون تخرُّجَه وعودته إليهم، وسيمدُّون له يدَ المعونة، وضربت له مثلاً من الواقع: ها هي أختُك فضة، هي آنسة، يتعاون كلُّ تلاميذها وأهاليهم على مساعدتها في كلِّ شيء، من بناء منزلها حتى رعاية أولادها وعملها في الحقول، وأنت طبيب، لن تكونَ في القرية أقلَّ شأنًا من أختك.

شعرت بأني أحترق، برودةُ الليل في هذا الجوِّ الصحراوي لم تستطع إخمادَ النيران المشتعلة في داخلي، ما تزال فضة، هذه الفتاة التافهة، تتغلَّب عليَّ في كلِّ المواقف، بل إنها صارت

قدوةً لبنات القرية، ومثالاً يُحتذى، وصارت مضربَ المثل في حديث أمي وإخوتي، وكذلك كل رجال القرية ونسائها.

سامر يبكي بين ذراعيَّ ولا يهدأ، غضبتُ منه، بل غضبت من نفسي وأفرغت عليه غضبي، رحت أشتمُه وأشتم أباه، وأدعو عليه بالموت؛ لأرتاحَ منه ومن بكائه، سارعت أمي فأخذته منِّي، ضمَّته إلى صدرها بحنان، ثم أبعدته باشمئزاز، صرخت في وجهي: ألا تُدركين سبب بكائه؟! إن ثيابه متَّسخة وجسده مبلَّل. هيَّا، بدِّلي ثيابه وغسِّليه قبل إلباسه الثياب النظيفة.

- ليته يموت لأرتاحَ منه، ألا عملَ لي سوى تبديل ثيابه وغسلها، مللت، سئمت.

- أأنت أمٌّ؟ والله، إن عملك هذا لا تأتي به خادمةٌ مأجورة، ولا امرأةٌ غريبة تربِّي طفلاً لقيطًا، أما زلت جالسةً كأن الأمر لا يعنيك؟ قومي لعملك، أريحي هذا الطفلَ من عنائه وأريحينا من بكائه، هيَّا، انهضي.

قمت منكسرةً مخذولة، لم يدافع عنِّي سلمان، لم يقل كلمةً واحدة يستنكر من أمي فظاظتها في معاملتي وقسوتها عليَّ، تقارن بيني وبين خادمة مأجورة، وأنا ابنتُها التي كانت قبل بزوغ نجم فضة أثيرةً لديها مدلَّلةً عندها؟! من أين آتي بالصبر على مرارة عيشي معها؟ تنعَتُني بالقسوة على ولدي؟ حسنًا، سأتركه لها، ولتغمُره بحنانها، سألتحق بوظيفتي الجديدة، فأنساها

وأنسى معها هذا الطفلَ الذي استوجب وجودُه سماعي منها هذا الكلامَ الجارح، الدنيا من حولي ما أوسعَها! المجد الذي عاندني مدَّة يعود فيُناديني، أأترك كلَّ هذا وأنشغل عنه ببول طفلي وعَذِرَته؟

لحقت بي أمي إلى الحمَّام، أمرتني أن أغسِّلَه بالماء والصابون، ثم أمرتني أن أجفِّفَ جسمه بمِنديل ناعم، تبعتني إلى خزانة ثيابي، اختارت ثيابًا ذات أكمام طويلة سابغة، وأمرت: ألبسيه هذا، نفَّذت كلَّ ما قالته بسلبيَّة وصمت، لا يقطعُه سوى بكائه، وأنا أرسمُ الخطط لرحلة الغد لمعركة الغد، أمرتني من جديد: أرضعيه.

دخلت به غرفتي، سأرضعُه وأنام، أمامي غدًا مهمَّة شاقَّة؛ لاستكمال ما يلزم من أوراق؛ للالتحاق بوظيفتي، نمتُ، لكنَّ الصغير لم ينم، رضع ثم عاد للبكاء، جاءت أمي، فتظاهرتُ بالنوم، حملته بين ذراعيها بعدما بسملت وحوقلت، وتعوَّذت بالله من الشيطان الرجيم، أخذته إلى حيثُ تسهر مع إخوتي، وغرقتُ أنا في النوم حتى الصباح.

كان نومي قلقًا، اختلطت فيه كوابيسُ النوم مع أحلام اليقظة، أيقظني أخي سلمان بعد شروق الشمس بقليل، قال: جهِّزي نفسك وابنك، ستذهبين معنا في سيارة بكري إلى حلب، سأُجري للطفل بعض الفحوص والتحاليل في المستشفى، قالها

سلمان فأحبط معركةً كنت أعدُّ عدَّتي لها طَوالَ الليل، كنت أنوي الذهابَ إلى حلب، متجاهلةً وجودهم جميعًا، غير مبالية بهم ولا بأفراحهم، كنت أنوي تركَ سامر بينهم؛ لتعتنيَ به أمي، وتُريحَني من عنائه، ولكن يبدو أن رحلة اليوم ستكون مخصَّصةً له، بصمت ومذلَّة تلقَّيت كلامَ سلمان، أهذا هو القَدَر؟ أهذا هو النصيب الذي تتحدَّث عنه عجائزُ قريتنا؟

حملت سامرًا وخرجت من البيت أتبعُ سلمان، للمرة الثانية أخرج من البيت بلا زينة ولا أصباغ، سيارة (الجيب) العسكرية المركونة غربَ البيت إلى جانب خُمِّ الدجاج لم تلفِتْ انتباهي مساء أمس، تجمَّع رجال القرية لوداع بكري، ولتهنئته بعقد نكاحه، وللسَّلام على سلمان، يخاطبونه بالدكتور، وبقيتُ على الهامش، نكرةً لا يشعر أحدٌ بوجودي، فتح سلمان باب السيارة الخلفيَّ، وأشار أن اركبي، جلست محتضنةً ولدي، ورحت أنتظر، ساعة، بل ساعتين، أمضيتُهما أعاني الاختناق.

كلُّ هذه الجموع من الرجال والنساء جاءت تحتفي بالعريس، وبالطبيب، وبالآنسة فضة، ولا مكانَ لي بينهم، لم يسأل أحدٌ منهم عني، ولا همَّهم أمري، يبدو أنهم ما زالوا ناقمين عليَّ؛ من أجل العمِّ (كسَّار)، والطفل الذي تربَّى بحضانته، وأسماه (معيوف)، وأنهم ما انفكُّوا يقولون بهمس بينهم: وضحة عميلةٌ للشرطة، ولمكاتب الأمن. شعرتُ أن مكاني ليس هنا بينهم،

مكاني هناك، في حلب، بل في دمشقَ العاصمة، أمام الأضواء ووسائل الإعلام، سآتيهم كلَّ يوم بصحيفة تحمل صورتي؛ لأقلعَ عيونهم، وأعلِّمَهم أني أرفعُ مقامًا من الشرطة، ومن مكاتب الأمن، انتظروني، سأكون أهمَّ من طبيبكم ومن آنستكم.

معيوف هذا عاش في قريتنا، تبنَّاه العمُّ كسَّار، حين رمته أمُّه وتخلَّى عنه أبوه، ربَّاه وعلَّمه فأحسن تربيته، لكنه لم يُكمل معروفه؛ إذ خضع لحكم زوجته الجديدة، التي تصغُره بنصف قرن من السنين، ولكن... لماذا أحكي عن معيوف؟ لماذا أذكرُ الآن أن اسمه في سجلات المدرسة وفي البطاقة الشخصية (رسلان)؟ ما يعنيني من اسمه وشخصه الآن؟

من نافذة غرفتي، في مقرِّ المنظمة النسائية التي كنت رئيسةً لها، رأيت معيوفًا، كان اثنان من رجال الشرطة يسحبانه من يديه باتجاه المَخْفِر، وصراخُه الفزع يملأ الجوَّ قهرًا وحزنًا، راقبت الوضع، حمل الشرطيُّ الجسد الضئيل بين ذراعيه، دخل به من الباب الحديديِّ الكبير وغاب.

من موقعي المهنيِّ، كناشطة في الدِّفاع عن حقوق المرأة والطفل، تحرَّكت لأضعَ بصمةً تخصُّني في سجلِّ المنظمة التي أنتمي إليها، وأُثبت صحَّة نظرية تحرُّر المرأة ومساواتها بالرجال، سارعت لإنقاذه، وقفت في ساحة مخَفِر الشرطة بجلالة قدري وعظمة لقبي، أنا الآنسة وضحة، رئيسة الرابطة

النسائية في حزب التقدُّم والحرِّية، جاء رئيس المخفِر يستفسرُ عن سبب تشريفي لمخفره بهذه الزِّيارة المفاجئة، في اللحظة ذاتها وصل العمُّ كسَّار، سألتهما عن الصبي، ولماذا أدخلوه السجن، قال العمُّ كسَّار متلعثمًا: ليس سجنًا، هذا الصبيُّ تربَّى في بيتي، وأريد الاحتفاظ به أتخذه ولدًا، لكن زوجتي ترفض ذلك، تقول: لو كان فيه خير، لما رماه الطير، وتقول: إننا سنربِّيه كمَنْ يربِّي جَرْوَ ضَبُع، سيكبَرُ ويأكلنا، وأنا أردت توثيقَ حضانتي له عند الشرطة.

هتفتُ: الويل لكم، أنتم تمارسون (العنفَ) على هذا الطفل، تُرعبونه وتؤثِّرون في صحَّته النفسية من أجل ظنونكم؟ هكذا لفظتُ العبارة جامدةً منشأةً، مثلما نقرؤها في تعاليم حزبنا، ومثلما تُصدرها إلينا منظمة (اليونيسيف)، أبغي إثارةَ الخوف منِّي ومن منصبي، ولأجعلَهُم يتهامسون فيما بينهم: كم هي مثقَّفة؟ عدت لأصرخَ من جديد: هيَّا، أخرجوه من هنا على مسؤوليَّتي، كان عويلُ الطفل يُصمُّ الآذان، فتح الشرطيُّ الباب فانسلَّ معيوف منه وركض إليَّ، طوَّقني بذراعيه خائفًا مستنجدًا، وظلَّ يبكي.

هدَّأته بإشارة حازمة صارمة، أنا لا أحبُّ الأطفال، وأنزعج بشدَّة من صوت بكائهم، أدخلتهم مكتبي؛ حيث أنَّبتُ الشرطي، ووبَّخت العمَّ كسَّار، ذلك الرجل المَهيب في قريتنا والقرى

المجاورة، شعرتُ بحرارة عظيمة تسري في دمي، شعرت بأني أطير، وأحلِّق فوق خطِّ الأفق، في قرية تبلغ قامةُ العمِّ كسَّار أقصى ارتفاع لآفاقها، كان المسكين يقف بين يديَّ جاحظَ العينين فاغرَ الفم، مشدوهًا يملؤه الشعور بالإهانة، قلت له: إذا كنتَ تعجِزُ عن حماية هذا الطفل من نفسك ومن أهلك، لمَ جئت به إلى بيتك؟ أما كان خيرٌ لك وله لو تركته لأمِّه تُودِعُه ملجأَ الأيتام؟ وقلت للشرطيِّ في حضرة العمِّ كسَّار: هذا الطفل خاصَّتي، أمنعكم من توقيفه أو القبض عليه دون إذني مهما كانت الأسباب، هزَّ الشرطيُّ رأسه بالموافقة، أمام دهشة العمِّ كسَّار ورعبه، ثم أشرتُ لهما بالانصراف؛ ليحكيا في القرية ما طابَ لهما من الكلام.

أخي بكري يُمسك مِقوَدَ السيارة بيديه، يشدُّ عليه بقوة، فيتفصَّد العرق من جبينه، السيارة تقطع بنا الطريق الترابيَّ من أمام البيت إلى بداية الإسفلت، تقفز بنا ونقفز نحن على مقاعدها القاسية الخشنة، الريح تدخلُ من النوافذ التي لا يُحكَم إغلاقها محمَّلةً بالغبار، أخي بكري يزهو بأنجُمه الثلاث المصطفَّة على كلٍّ من كتفيه، وبهذه السيارة المخلَّعة، وأنا كنت بلا نجوم ولا سيارة أكثرَ منه سطوةً وعُنفوانًا، وكانت أحدثُ السيارات وأجملها تتسابق وتتنافس على نقلي إلى حيث أريد، لا بدَّ من استرداد مجدي؛ للتغلُّب على صَلَف بكري، ونجوم

بكري!

الأرض تمتدُّ على جانبيَّ، الطريق غبراءُ بلون الموت، قُطعان الغنم تنتشر في كلِّ مكان، تملأ الفضاء بثُغائها وغبارها، كان الحديث يجري بين أخويَّ رَهوًا مشحونًا بالمحبَّة والأشواق، وأنا خلفهما صامتةٌ أستعرض في خيالي مشروعيَ الجديد، أُهَدهدُ ولدي الباكي على ذراعي، أفكِّر وأعيد التفكير، مَن أنا في هذا الخضمِّ الكبير من البشَر؟ ماذا أنجزت في حياتي؟ ما هدفي؟ ما مبادئي؟ لا أعرفُ إجابةً واحدة على هذه الأسئلة، وفجأة توقَّفت السيارة.

- ماذا حدث يا بكري؟ هل تعطَّلت السيارة؟

- نحن هنا، ولكن يبدو أن سمعان غائب.

- أي سمعان؟

- بكري يقصد أنك لا تسمعين كلامنا.

- أي كلام؟ أجبتُ بذهول.

كانا يتحدَّثان وكنت شاردة، يقول بكري: إنه يريد أن يملأَ ناظرَيه من هذه الأرض والحقول والقُطعان، ويقول: إن هذه المناظرَ تجلب لروحه الفرحَ ولقلبه السَّكينة؛ ويضيف: إنه في غربته يشتاق لثُغاء الحُمْلان وأغنيَّات الرُّعاة، وأنا، ماذا أحب؟ إلامَ أشتاق؟ ما الذي يملأ نفسي بالسَّكينة والأمان؟ لا شيء،

روحي سرابٌ بعده سراب، لا حقيقةَ فيها.

نزلا من السيارة وبقيتُ وحدي، لا أريد لحذائي أن يلامسَ الدرب فيتغبَّر، ولا أجد مثلهما متعةً في النظر إلى أرض غَبْراء، وحَيَوانات تتناثر في أرجائها، ملصقةً أنوفها بالتراب، تثغو بغباء يمزِّق هدوء الصباح، انتظرت على مَضَض، حتى أنهيا متعتهما بالتفرُّج، ثم سارت بنا السيارة قاصدةً حلب، توقَّفت بنا أمام باب المستشفى، نزلنا، تبادل أخواي قبُلات الوداع، وانحنى بكري على ولدي يقبِّله، ويوصيني به خيرًا، ثم ركب سيارته وانطلق.

دخلنا المستشفى، كلُّ من في الممرَّات والرَّدَهات كانوا يستقبلون سلمانَ بحفاوة ظاهرة: أهلاً دكتور، وسلمان يصافح هذا ويلاطف تلك، دخلنا غرفته، سلمان طبيبٌ مقيم في المستشفى، يتابع دراسةَ اختصاصه في طبِّ الأطفال، وعلاقتُه بالجميع طيِّبة على ما يبدو، سألته أكثر من واحدة من الممرِّضات: من هذه (الحرمة) التي ترافقك؟ كان يجيبهنَّ باسمًا: إنها أختي، وأنا أحترق من الغيظ، أأنا حرمة؟ ستعلم كلُّ هؤلاء التافهات بعد حين أنني سيدةٌ محترمة، وواجهةٌ جميلة للثقافة في هذا البلد التعيس، طلب سلمانُ من إحدى الممرِّضات إرسالَ أم أحمد إلى غرفته، جاءت أمُّ أحمد مهرولة ملهوفة.

- صباح الخير يا دكتور سلمان، هل أرسلتَ في طلبي؟

- أهلاً أمَّ أحمد، أنت هنا أمُّ الجميع؛ لذلك سأطلب منك مساعدة.

- أنت تأمر يا دكتور وعلينا التنفيذ، أبشر.

- هذه أختي ومعها ابنُها، الصغير لم ينم في الليلة الماضية، نريد إجراءَ بعض التحاليل.

- أهلاً وسهلاً بك وبأختك، ما المطلوب منِّي؟

مدَّت يدها تصافحني، مددت لها يدًا ميتةَ الإحساس، وقفت أتأمَّلها، بينما أخي يشرح لها ما يريد، امرأةٌ خمسينيَّة في مثل عمر كاترين، لكنَّها لا تملك شيئًا من دَماثَة كاترين ومرونتها، دَميمَة، لكن وجهها ينطِقُ بالطِّيبَة والمحبَّة، تلبَسُ ثوبًا أبيض نظيفًا، تقف أمام أخي باحترام، متحاملةً على ثقل وزنها، وسلمان يتودَّد إليها كأنه طفلٌ أمام أمه، عجبتُ لأمره، هو طبيبٌ وهي ممرِّضة، بوسعه إجبارها على ما يريد، ما حاجتُه إلى هذا التواضُع المقيت؟ كتب سلمان بعضَ الأسطر على ورقة، ناولها للممرِّضة، قالت لي باحترام: تفضَّلي اتبعيني إلى المُخْتبَر.

لا لن أتبعَها، لن أدعَها تظنُّ أني مثل سلمان، غبيَّة وتافهة، قلت لسلمان: لديَّ عمل مهمٌّ في مديرية الثقافة، سأترُك ولدي

عندكم في المستشفى، ثم أعود لآخذَه بعد إنجاز مهمَّتي، أشار إلى أمِّ أحمد، أخذت الصبيَّ عن حِضْني وانطلقت به، وخرجت أنا من المستشفى تقتلني وتسابقني فرحتي.

في ديوان مديرية الثقافة استقبلتني فتاةُ الأمس، نظرت في أوراقي، رحَّبت بي، وقالت: إن كلَّ شيء صار جاهزًا، وأن بإمكاني مباشرةَ العمل منذ صباح الغد، عرَّفتني اسمها: فاطمة، وقدَّمتني إلى بقيَّة زملائها وزميلاتها، قائلةً: هذه زميلتُنا الجديدة، قدَّموا ليَ القهوة، ثم صحبتني فاطمة إلى مكتب المدير.

رحَّبَ المدير بي، وقَّعت عنده على أوراق، ثم قال: ستُباشرين عملك منذ صباح الغد، تجوَّلي الآن في أقسام المديرية؛ لتطَّلعي على واقع العمل فيها، ونرى ما لديك من أفكار لتحديث العمل وتنشيطه، ثم اختاري القسمَ الذي ترينه مناسبًا، تستطيعين الانصرافَ الآن.

عدت مع فاطمة إلى الديوان، كانت فاطمة بين زملائها وزميلاتها عصفورةً مرحة، لا تكفُّ عن الرفيف والزقزقة، تملأ الجوَّ من حولها حُبورًا، تتبعها العيونُ في حركاتها وسكناتها، جلست على مقعدي صامتةً أستكشف أجواءهم، وأحسُب بدقَّة وزني القادم بينهم، سأجرِّد هذه الفاطمة من امتيازاتها، وأحشُرها في أضيق زاوية؛ لأملأَ المديريَّة كلَّها بنشاطي

وثقافتي، سأفعل الكثير، وسأبدأ منذ الغد، أعجبني مكتبُ النشاطات الثقافية، سأتسلَّم إدارته؛ ليقصدَني الأدباء والمفكِّرون، يتنافسون على إرضائي؛ لأخصِّصَ لأحدهم محاضرةً أو أُمسيَّة أدبية، أحدِّد لهم توقيتها وبرنامجها، سيكون مكتبي قِبلةً لأهمِّ الشخصيات في البلد، وفيهم الدكتور فارس، سأُشرف بنفسي على تقديم كلِّ شاعر ومفكِّر من على المنبر، وسأبقى جالسةً على المنصَّة طَوالَ مدَّة المحاضرة؛ لتشملَني آلات التصوير بأضوائها الساحرة، وتُبرزَني في أخبار الثقافة على صفحات الجرائد وشاشات التلفزة.

شعرت بالرِّضا، استأذنت الجالسين، وغادرت المكان، رجعت إلى المستشفى، كانت أمُّ أحمد تحمل طفلي، وتتمشَّى به قلقةً في الرَّدْهَة التي تلي البابَ الرئيس، عاجلتني به حين وصلت، ووقفت تؤنِّبُني وتلوم، تتعجَّب كيف تتخلَّى أمٌّ عن رضيعها المريض كلَّ هذه الساعات؟ قالت: إنها أم، وجدَّة، ولولا ذلك ما تحمَّلته كلَّ هذه المدَّة، لقد تأخَّرت عن بيتها، ولو لم تكن أمًّا تعرف حاجةَ الرضيع ما انتظرتني، قالت: خسارةٌ فيك طفلٌ مثل هذا، الويل له كم سيُلاقي من ألوان الظُّلم والإهمال على يديك!

صرختُ في وجهها: احترمي نفسك يا امرأة، لم يطلُب منك أحدٌ هذه التضحية، كان بإمكانك تركه عند أخي الدكتور سلمان

وهو يتولَّى أمرَه، لماذا تمُنِّين عليَّ بيقظة ضميرك؟ هو ولدي وأنا حرَّة في طريقة تعاملي معه، انصرفي من أمامي، أدَرتُ لها ظهري، ومشيت قاصدةً غرفة أخي سلمان، الغضب يُرجف مفاصلي، ما كان ينقصُني سوى هذه الممرِّضة الدَّميمة تحدُّ من حرِّيتي، وتعلِّمني كيف أتعامل مع ولدي؟

سألني سلمان عمَّا فعلتُه في مديرية الثقافة، أخبرته بأني أكملت أوراقي، وسأباشر العملَ منذ صباح الغد، سألني: وزوجك؟ وعملك في المدرسة هناك؟ قلت: لا أريدهما، هزَّ رأسه بألم وأسف، وقال: إنه كان يتوقَّع ذلك منذ قراءته لرسالتي، بدَّل ملابسه، وسلَّم زِمامَ عمله للطبيب المناوب الذي سيحلُّ محلَّه، ثم عاد معي إلى القرية بعدما أعطاني بعضَ الأدوية التي يحتاج إليها سامر.

ركبنا حافلةَ القرية، كان سامر يُناغي وحدَه، مالئًا الجوَّ بزقزقاته وضحكاته، ما اكترثت له، انتظرنا حتى اكتمل عدد الركَّاب، ثم انطلقنا على طريق العودة، كان كلُّ من صَعِدَ الحافلة من رجال ونساء يُبادر بالسلام على أخي سلمان، بكلِّ إجلال واحترام: أهلاً بالدكتور، ويردُّ عليهم بكلِّ تواضع ولطف، وأنا صامتة أحترق، لم يسلِّم عليَّ أحد، حتى النساء كنَّ مشغولات بأطفالهن، وبما يحملنَ من أشياء اشترينها من المدينة، لم تلتفت واحدةٌ منهنَّ إلى التي تجلس بجانب

الدكتور، وبقيت كما أنا دائمًا، غريبةً وحيدة يقتلني الشعور بالضياع.

في البيت أخبر سلمانُ أمي بما فعلته، كان يظنُّ أني على وفاق معها، وأن كلَّ أسراري بين يديها، لكنَّه فوجئ بانقطاع الصِّلَة بيننا، وأن علاقتنا تحمل من العداء أضعافَ ما تحمله من المودَّة والصفاء، التي يُفترَض وجودها بين أمٍّ وابنتها الكبرى، بُهتَت أمي لقراري، صرخت في وجه سلمان: ماذا بشأن زوجها، وولدها؟ هل سأتحوَّل إلى مربِّية لابن حمدوش؟ أما يكفيني أني ربَّيتكم وكبَّرتكم بعد وفاة أبيكم؟ أتحمِّلونني وِزرَ أولادكم من بعدكم؟ أنا عجوزٌ لا طاقة لي برعاية طفل رضيع، هذا لن يكون، خُذي ولدك معك حيث تذهبين، أو أرسليه إلى حمدوش، فهو أحقُّ به منك.

هذه مشكلةٌ جديدة لم أحسب لها حسابًا، إن صدقت أمي فيما تقول، سأكونُ أمام كارثة حقيقية، كيف أتصرَّف؟ من أستشير؟ لا أدري، كلُّ ما أعرفه أن أمي امرأةٌ حنون، ذات قلب رقيق، تعاملني بعدوانيَّة وغضب دائمين؛ لأنها لا تُدرك آفاقَ طموحي، تريدني امرأةً عادية، تعيش ضمن قطيع المجتمع، وأنا أشعر بتميُّزي وتفوُّقي على كلِّ المحيطين بي، أريد لنفسي حياةً لا تشبه حياةَ نساء قريتنا، ولا حياةَ نساء حارتنا في حلب، سأترُك سامرًا في الصباح وأمضي، لن تستطيعَ أمي التغلُّبَ على

رقَّة قلبها لتتركَه كما هدَّدت، بل سترعاه ريثما أعود، ثم تشتمُني وتُسمعُني موشَّحاتها التي اعتدت سماعَها.

في كلِّ مرة تقول لي متوعِّدة: سنرسله إلى أبيه، أأرسله ليتربَّى بين أبناء حمدوش؟ أأتركه؛ ليمضيَ نهاره حافيًا يمشي على التراب في حرِّ الشمس؟ هذا مستحيل، أريد لسامر أن يحيا حياةً مرفَّهة كأبناء المدن، يرتدي أجمل الثياب، ويذهب إلى روضة الأطفال قبل ذهابه إلى المدرسة، أريد أن أعلِّمَه كلَّ المصطلحات الأجنبية التي يتعامل بها المجتمع الراقي، والتي تعلَّمتُها من كاترين، ولدي قطعةٌ من جسدي وروحي، لن أُسلمَه لحمدوش أبدًا، أمي لا تريده، حسنًا، سأُسلمه لأختي فضة، يتربَّى بين أولادها، ريثما يكبَرُ ويستطيع مرافقتي إلى حلب؛ لأدخلَهُ روضة الأطفال.

في المساء سهر أخي سلمان وأمي عند عمِّي عوَّاد، وسهرت وحدي مع ولدي، أضمُّه إلى صدري وأكيل له باذخَ الوعود، فتحت حقيبتي القديمة، أخرجت منها بعضَ المجلات، ورحت أعيد قراءتها، وأتفرَّج من جديد على ما تعرضُه من الصور، شعرت بنشوة تغمرُني، وكأني رجعت في تاريخي عشرَ سنين، أعدت قراءة المقالات التي كتبت عن تحرُّر المرأة، وعن أحدث الأساليب في توزيع ألوان (الماكياج) على الوجه، قرأت المشاكلَ التي أرسلتها بعض النساء، والردود عليها بواسطة

متخصِّصين في علم الاجتماع وعلم النفس، حملت نشوتي معي، ودخلت فراشي قبل عودة أمي، وتعكيرها لصفوي وهنائي.

سبحت في أفكار ومحاكمات، معركتي اليومية مع أمي سببُها الرئيس هو خلافنا على رعاية سامر، هذه المناوشات لا تدخل ضمن برامج جبهة التحرُّر التي أريدها لنفسي، حربي الكبرى ستكون مع أخي بكري، ومع عمِّي عوَّاد وأولاده، لكن المعركة الفاصلة ستكون مع حمدوش، زوجي لن يتخلَّى عنِّي بسهولة، ولن يرضى لزوجته التي يحبُّها، والتي اشترى لها سريرًا عريضًا مع كلِّ ما يوضع في غرف النوم بالمدن، مفضِّلاً إياها على زوجتيه السابقتين، لا يرضى لها البعدَ عنه دائمًا، ارتحت لهذا الخاطر فخلدت للنوم.

عادت أمي وأخي من سهرتهما، جلسا يستكملان حديثًا ربما بدأ على الطريق، كان أخي يُعرب عن ارتياحه لما عرضَهُ عمِّي، يرى أن الغرفتين اللتين بناهما؛ ليكونا سكنًا لولده أحمد تصلحان عيادةً مؤقَّتة، يستقبل فيها مرضاه من أبناء القرية والقرى المجاورة، فهو يُشفق على هؤلاء الناس من العناء الذي يلاقونه وهم ينقلون مرضاهم إلى حلب، سيغيب أحمد سنتين ونصف السنة يؤدِّي فيها خدمةَ العلم، وهي مدَّة كافية، يستطيع سلمان أن يبنيَ لنفسه في غُضونها بيتًا وعيادة، كانت أمي سعيدة،

تحمَدُ الله وتكرِّر الحمد، تَرْقي أخي سلمان بكلِّ ما تحفظه من آيات وأدعية، وتشجِّعُه على أن يكونَ عونًا لأهل قريته وأهله، فمَن لا خيرَ فيه لأهله لا خيرَ فيه لنفسه وأسرته.

مرَّت لحظات صمت، كانت أمي تجهِّز فراشها وفراش سلمان، فتحت خزانتي، أخذت منها مُلاءات نظيفة، ثم أطفأت الأضواء، وسلمَّتني لصراع أفكاري، الآن صار سلمان طبيبَ القرية، وفضة آنستَها، وأنا صرت حجرَ عثرة في طريق أمي ربما تتمنَّى زواله، ولا تترك أمنيَّاتها محصورةً في صدرها، بل تنثُرها في وجهي كلَّ ساعة ودقيقة، تستثقل ظلِّي، تضيق ببكاء ولدي، تتمنَّى عودتي إلى حمدوش، وهي تعلم أني ما جئتُها إلا هربًا من حمدوش، ومن بيئة لا أقدر على الاندماج فيها، تقول: إن قريتنا ليست أحسنَ حالاً من قرية حمدوش، وإن عشيرته جزءٌ من عشيرتنا. ومن قال لها: إني جئت راغبةً في قريتها وعشيرتها؟ أنا أريد العيشَ في حلب، والعمل في حلب، ريثما تأتي فرصتي؛ لأنتقلَ إلى دمشق، إلى كرسيٍّ وزاريٍّ ينتظرني، وما تزال تنعتني بقلَّة الحيلة، بل بالغباء؛ لأني تخلَّيت عن نعيم فُتحت لي أبوابه، وعجَزتُ عن ولوجها، وتشير إلى أختي فضة، لماذا لا تكونين هناك في مثل موقع فضة هنا؟

في الصباح لبست أجمل ثيابي، وضعت كلَّ ما أستطيع وضعه من زينة، وجهَّزت نفسي لمرافقة أخي سلمان إلى حلب؛

حيث يذهب هو إلى مستشفاه، وأذهب إلى عملي، نظرت إليَّ أمي باستنكار: إلى أيِّ عُرس تذهبين في هذا الصباح؟ قلت لها ما هي عالمةٌ به: سأُباشر عملي الجديد اليوم، أقسمَتْ بالله العظيم أنها لن تتركَني أغادر البيت قبل أن أغسلَ وجهي من كلِّ زينة، وقالت: إن المرأة المتزوِّجة لا يحقُّ لها التزيُّن خارج بيت زوجها. صرختُ: أنا حرَّة، أفعل بنفسي ما أريد. وقف سلمان إلى جانبها، أمرني بغسل وجهي، وقال: إن لي زوجًا، ومن حقِّه وحده اتخاذ القرار بهذا الشأن. صرختُ مرة أخرى: أنا لا زوج لي، لا أريد حمدوشًا، وأنتما تعرفان ذلك، لن أعودَ إليه، غسلت وجهي صاغرة؛ خضوعًا لقرارهما، ومضَيتُ أتبع سلمان بصمت حتى ركبنا الحافلة، رحت أنظر من النافذة التي بجانبي ولا أرى شيئًا، أسأل نفسي: هل جبُنت عن مواجهتهما؟ لماذا لم أتحدَّهُما وأحافظ على زينتي؟ وَعَدت نفسي ألا يطولَ هذا الخنوع إلا ريثما أثبِّت قدميَّ في عملي الجديد، ورضيت.

في المديرية لم أدخل الديوان، بل توجَّهت إلى مكتب المدير، ألقيت تحيَّةَ الصباح وجلست، لم أكترث للرجل الجالس في مكتبه، يلبَسُ بذلة صيفيَّة (بسيطة)، رمادية بلون شعره، يتكلَّم برصانة، ويُصغي إليه المدير بإعجاب، قال له المدير: هذه السيِّدة موظفة جديدة، واليوم هو يومها الأول في العمل لدينا، التفت، وأشار إليَّ إشارة لم أفهمها، ظللت أحدِّق

فيه وفي الآخَر حتى أفصح.

- ما اسمُك يا (مدام)؟

شعرت ببعض الارتياح لكلمة (مدام)، هذا أفضل من كلمة آنسة، يتبعها سؤال: لماذا لم تتزوَّجي حتى الآن؟ لكنِّي شعرت بالغَبْن لنسيانه اسمي، مرَّرت له هذه الإساءة.

- اسمي وضحة.

- أين اشتغلت قبل الآن؟

سألني الرجل، فأجابه المدير:

- كانت رئيسةَ المكتب النسائيِّ في حزب التقدُّم والحرِّية.

- أيُّ حزب هذا؟ أنا لم أسمع به من قبل؟

- هو حزبٌ صغير، أفراده في هذه المدينة لا يزيدون على عدد كراسي هذه الغرفة.

- وأيَّ الأعمال سلَّمتَها؟ يجب ألا تسلِّمَها عملاً له علاقة بعامَّة الجماهير، يكفيها عملٌ إداريٌّ في المكتبة أو...

قال الرجل بغضب:

- لا... اطمئن، لقد أوصانا بها الدكتور فارس خيرًا، فهو من أقاربها، التفتَ إليَّ آمرًا: وقِّعي على سجلِّ الدوام، ثم اذهبي إلى الديوان، اجلسي هناك ريثما نتخذ قرارًا بشأنك.

غادرت مكتب المدير بعدما وقَّعتُ حيث أشار، وأنا أشعر بالظُّلم، لقد ذكر لضيفه اسمي وتاريخي، ولم يكلِّف نفسه عناء تعريفي ضيفَه، وها هو يحشُرني في الديوان بين الآنسات، ريثما يتخذ بشأني قرارًا، كما حشرني حمدوش بين الآنسات! وهذا الدكتور فارس يُلاحقني في كلِّ مكان حللت فيه، أنا في حَيرة من أمري، أين أمضي؟ كيف أحقِّق رغَباتي بلا وصاية من أحد؟ شعرت بثِقَل كبير يجثُم على صدري، ولم أجد لي مهربًا من الذهاب إلى الديوان؛ تنفيذًا لأمر المدير.

دخلت، استقبلتني فاطمة بحيويَّتها المعهودة، ومرحها الذي لا ينطفئ، دعتني للجلوس على كرسيٍّ قرب مكتبها، سألتني إن كنت أرغب في شُرب القهوة؟ مرَّت من أمامي كالنَّسيم، ملأت رِكوَةَ القهوة ماءً من زجاجة عندها، ووضعتها فوق سخَّان كهربائيٍّ صغير، بعد ذلك مسحت يديها بمنديل مبلَّل بماء (الكولونيا)، وراحت تتنقَّل في أرجاء الغرفة كفراشة معطَّرة، تنشُر أمواج عبَقها مع رفيف جناحَيها، التفتت إليَّ كمن تذكَّر شيئًا، سألتني: بأيِّ اسم تحبِّين أن نخاطبك، فأنت هنا أكبرُنا سنًّا، وواجبٌ علينا احترامك؟

دارت بيَ الدنيا، وفاجأني الصُّداع، أنا بينهم عجوزٌ، كلُّ مَن حولي في رَيعان الشباب، بعضهم يعمل على الحاسوب، وبعضهم يعمل في نقل البيانات وتدوينها في سجلات خاصَّة،

تذكَّرت أيامي الماضيات، تذكَّرت الأستاذ محرزًا، تذكَّرت سطوته على كلِّ من كانوا في مقرِّ الحزب، كانوا ينادونه بأبي سامر، قلت لفاطمة: ناديني بأم سامر.

قدَّمت لي فِنجانَ القهوة، أخرجتُ من حقيبتي حبَّة (أسبرين)، ابتلعتها مع أول رشفة، على حين انخرطت فاطمةُ في حديث مرح مع زميلاتها، تناول أحلامهنَّ وقراءاتهن، تناول أسماء مفكِّرين وأدباء لم أسمع بها من قبل، ثم تشعَّب ليشملَ خطوط (الموضة) و(الماكياج)، ثم عرَّج على المطبخ؛ ليتبادلنَ المعلومات عمَّا تعلَّمنَهُ من أصناف الطبخ والحَلوَيات.

شعرت بأني أحسدُ فاطمة، بل أحسدهنَّ جميعًا، كلُّ الكتب التي قرأنها لم أسمع بعناوينها، كلُّ الأدباء الذين ذكرنهم لا أعرف عنهم ولا عن مؤلفاتهم شيئًا، حتى حديث المطبخ لا أقدر على الخوض فيه؛ لأني لا أفقه منه شيئًا! لكن ما استوقفني هو فاطمة نفسها، كلُّ عيون الزميلات كانت معلَّقةً بها، وهي منهمكةٌ بعملها، منهمكةٌ بحديثها، سعيدة بشبابها الذي ما تفتَّحت كلُّ براعمه بعد، مكانها هذا يجب أن يكونَ لي، أنا وحدي، لا بدَّ من إبعادها عنه مهما تكلَّفت من المشقَّة.

قبل أن أفكِّرَ في خطَّة لاستبعاد فاطمة، جاء الآذن ليخبرَني بأن المدير يريدني، أكملت فِنجانَ قهوتي، ولحقت به إلى الطابق الثاني، ما زال الرجل الرماديُّ جالسًا في مكانه، أبلغني

المدير بأنه لن يسلِّمَني عملاً خلال هذا الأسبوع، وبأني أستطيع الجلوسَ في بيتي حتى مطلع الأسبوع القادم، فالدكتور فارس عزيزٌ على الجميع، وسيبحثون معه ما ينبغي أن أتسلَّمَ من الأعمال، مرة أخرى قال باستفهام: ذكِّريني باسمك؟ قلت: وضحة، قال: حسنًا يا وضحة، الويل له، يخاطبني باسمي مجرَّدًا، كمَن يخاطب طفلةً صغيرة، أو خادمًا من جملة الخدَم، قال: بإمكانك الانصرافُ الآن، مع السلامة.

هو أمر، لم يدعُني للجلوس، بل قال: مع السلامة، مرة أخرى أخرُج من مكتبه هذا اليوم بشعور المطرود، غير المرحَّب به ولا بحضوره، نزلت السلَّم على مهل والقهر يقتلني، قصدت أخي سلمان في مستشفاه، أخبرته بما جرى، فابتهج لتدخُّل الدكتور فارس، وقال: هذا رجلٌ أصيل، أمرني سلمان بالبقاء في المستشفى حتى انتهاء عمله؛ لنعودَ معًا إلى القرية، فانتظرته.

أسبوع كامل! ماذا أفعل فيه؟ هناك في القرية الكلُّ مشغول بتجهيز شمسة، والإعداد لعُرسها، نصبوا السُّرادِق، زينوها بالمصابيح الكهربائية، جمعوا القدورَ الكبيرة، ثم راحت أمي وشمسة وأمها وفضة يتردَّدنَ على أسواق حلب يوميًّا، يشترينَ الثياب والمُلاءات، يشترين البُسُط والسَّجَّادات، نساء غيرهنَّ جهَّزن الفُرُش واللُّحُف والوسائد، وكانت الأغنيَّات والزغاريد والأهازيج لا تسكت في ليل ولا نهار، وكأن القرية لم تشهد

عرسًا من قبل، كأن العرس هو عرسٌ لكلِّ فرد من أفرادها، وظللت بينهم أرقُب ما يجري عن بعد، حاملةً ولدي على ذراعي، متظاهرةً بأن الأمر لا يعنيني.

بعد أيام ثلاثة جاء بكري بسيارته المخلَّعة ذاتها، يرافقه عددٌ من زملائه الضبَّاط، دعاهم لعُرسه، حين وصلوا بسياراتهم إلى مشارف القرية استقبلتهم النساء بالزغاريد، وتراكض الرجال والأطفال لاستقبالهم، كلُّ القرية بنسائها ورجالها وأطفالها يعمل بجدٍّ في الإعداد لعرس بكري، لكنَّ ذلك لم يُنسِهم عيادة سلمان، كان الشبَّان يدهنون الجدران بالكلس، يرصفون بَلاط الأرض، في بيت ابن عمِّي أحمد، القريةُ تعيش عيدًا حقيقيًّا، وأمي تقف بينهم كالملكة يوم تتويجها، في حين تركض فضة من مكان إلى آخرَ تتبعها ثُلَّة من تلاميذها الكبار، يحيطون بها كالهالة حول البدر في ليلة ربيعيَّة، تشير بيدها، فيمتثلون طائعين راضين، تُشرف بنفسها على كلِّ شيء، نظَّفوا بيتنا ورتَّبوه، نقلوا الأثاثَ إلى بيت العروسين، حضَّروا ما يلزم لوجبات الغداء والعشاء، تأكلها القرية يوميًّا في سُرادِق العرس، قوامها الأرزُّ واللحم، لحم الخِرفان التي جاءتنا هدايا من أهل قريتنا والقرى المجاورة؛ ابتهاجًا بالمناسبتين العظيمتين: العُرس، وافتتاح العيادة، ثم جاء حمدوش برفقة وفدٍ من إخوته وأهل قريته.

سارعت إلى البيت، لبست بنطالاً يلتصق بجسدي كبنطال

فاطمة، قصيرًا إلى ما دون الرُّكبة بقليل؛ ليكشفَ عن ساقيَّ اللتين سهرتُ ليلة كاملة على العناية بهما، ثم بيَّضتهما بمسحوق خاص، حتى ظهرتا كقالبَين من الثلج، ولبست قميصًا أحمر، يُظهر من صدري وظهري وذراعيَّ أكثرَ مما يغطِّي، كنت اشتريتهما خصِّيصى لهذه المناسبة، ووضعت على وجهي كلَّ ما أستطيع من المساحيق والألوان، سرَّحتُ شعري كما علَّمتني كاترين، وجلست أنتظر.

جاء حمدوش إلى البيت برفقة أخي سلمان، طرق سلمان الباب ثم دخل هو وضيفه، حملت ولدي ووقفت؛ لأستقبلَهُما، كانت أعصابي مضطربة، وأطرافي ترتجفُ متجاوبةً مع خَفَقان قلبي، شعرت بأني أحبُّ حمدوشًا وأرغب فيه، لكنِّي أرفض ظروفَ حياته بكلِّ ما فيها، أريده نسخةً من الأستاذ محرز؛ لذلك سمَّيت ابني سامرًا؛ لأناديَهُ بأبي سامر، وقف زوجي وأخي مشدوهَين لمنظري، غضَّ أخي سلمان بصره؛ حياء وخِزيًا، في حين وقف حمدوش يتأمَّلني من أخمص قدميَّ حتى قمَّة رأسي، كمن يتأمَّل جُثَّة قتيل، لم يتمالك نفسه، فصرخ في وجهي:

- ما هذا؟ هل أقف أمام زوجتي وضحة، أو أمام (أرتيست)؟

- بل أمام زوجتك، وولدك، ألا تُلقي سلامًا؟

- السلام على من يستحقُّ السلام، ما تظنِّين نفسك؟ هيَّا بدِّلي هذه (المسخرة)، وتعالَي لأسلِّمَ عليك.

- لن أغيِّرَ شيئًا، هذه هي (الموضة)، ثم سألتُه بدلال: ألا تُعجبك؟

- قلت لك: غيِّري هذه (المسخرة)، لا لم تعجبني (الموضة)، ولا من تلتزم بتعليمات هذه (الموضة)، والطفل؟ لماذا تكشفين جسدَهُ بهذا الشكل الفَج؟ ألا تعلمين أن القَيظَ في النهار سيؤذي جسده الغض، وكذلك برد الليل؟ ألبسيه، والبَسي ثيابًا كثياب البشر ريثما أعود.

أدار ظهره ومضى، بلحظة تبدَّلت مشاعري نحوه، وشعرت بأنِّي أكرهه، وبدأت أُعدُّ العُدَّة لمعركتي معه، ستكون حربًا مدوِّيةً يتناثر صداها في كلِّ المحافل النسائية، وتصل إلى وسائل الإعلام، سأحقِّق ما كنت أشتهي؛ لذلك لم أبدِّل ثيابي، ولا ثياب ولدي، ظللتُ حبيسة البيت أنتظر، والناس في شغل عنِّي وعن معاركي.

غاب حمدوش ولم يرجع، حين انفضَّت السهرة، وعاد كلُّ الناس إلى منازلهم ليناموا، جاء برفقة أخويَّ، وما زلت بذات الثياب أنتظر، دخلوا فوقفتُ لاستقبالهم، توقَّف أخي بكري في الباب مشدوهًا ينظر إليَّ.

- ما هذه (المسخرة)؟

- لباسٌ أرتديه من أجل عُرسك.

- وهل هذا لباسُ امرأة تحترم نفسها؟ هيا تستَّري.

- هكذا تلبَسُ بنات المدن، وأنا عشت عمري في المدينة.

- تكذبين، بناتُ المدينة المسلمات يلبَسنَ سابغ الجلابيب، فهل بدَّلت دينك أو أنك فقدت الحياء؟ هيَّا تستَّري.

هنا تدخَّل حمدوش، قال لبكري: لا تعكِّر مزاجَك من أجلها، فهي لا تستحقُّ، نحن جئنا لنحتفلَ بعرسك، دعها تلبَس ما تشاء، بشرط ألا نراها، لتَلبَس هذا داخل غرفتها المقفلة، ولا تخرج إلينا إلا محتشمة.

أمسك بكري بكتفي، ودفعني دفعًا إلى داخل غرفتي، وهو يشتُم ويلعن، دخلت يلفُّني الخِزيُ، لكنِّي كنت مسرورةً بعض الشيء، فزوجي كان لطيفًا مع بكري، لا بدَّ أنني استطعت إثارته، لا بدَّ أنه الآن يتحرَّق شوقًا إليَّ، سوف أستغلُّ هذا الشوق؛ لأُمليَ عليه شروطي، سأطلب منه أن يتركَ الحسكة ومن فيها، ويأتي للسكن معي في حلب، لا بدَّ أن أجدَ فرصة أكلِّمه فيها على انفراد.

دار الحديث بينهم قبل النوم حول العرس والعيادة، ثم أطفؤوا الأضواء ونسوني، ذهبت أمي للنوم عند أختي فضة مخليةً المكان للضيف، وبقيت ساهرةً وحدي، في الصباح دخل

حمدوش غرفتي، تناول ابني بين ذراعيه، قبَّله ثم أعاده إلى سريره، جلس على حافَة سريري تفصله عني مسافةُ ثلاث خطوات، بحثت في عينيه عن احتراق الشوق، فما وجدتُّ شيئًا، ويحَه! ألست زوجتَه؟ ألا يشتاق إليَّ بعد هذا الغياب؟ راح يحدِّثني بصوتٍ هامس، لكنَّه حازم ومخيف.

- لماذا فعلت ما فعلت بالأمس؟

- أجبني أنت بصراحة، أما أعجبتُك؟

- لا، لم تعجبيني، هذا ليس مظهرَ امرأة محترمة، هذا شأنُ فتيات باريس، ومن يمشي خلفهن مشيًا أعمى، ولكن الباريسيات حين يصلنَ إلى مثل سنِّك يحتشمن، ويتركنَ (الموضة) للشابَّات الصغيرات.

مرت فترة صمت، تفجَّر البركان في داخلي من جديد، حمدوش مثلهم، يراني عجوزًا، اللعنة عليه، لكنِّي مصرَّة على موقفي، رفعت رأسي بهدوء ونظرت إلى وجهه، أبحث من جديد عن الحريق الذي خمَّنته في الليلة الماضية، فما وجدت نارًا ولا رمادًا، كانت عيناه تنطقان بالحسرة، لم أيْئَس، بل هاجمته، دنَوتُ منه، وضعت كفِّي على كتفه، فأبعدها عنه بعنف.

- احترمي نفسَك يا امرأة، أنت في بيت أهلك، هذه الحركاتُ مكانها في بيتك، بل غرفتك.

- هذا اللباس قد يكون هندامي اليوميَّ في عملي الجديد.

- عملك الجديد! عندي في المدرسة؟

- لا، لقد وجدت وظيفةً في مديرية الثقافة بحلب، قلتها بدلٍّ؛ كي أغيظَه، لن أعودَ لمدرستك.

- كيف تُقدِمين على هذه الخطوة دون أن تُعلميني؟

- هكذا، أنا حرَّة، أقرِّر بشأن نفسي ما أريد.

توقَّعت أن يثورَ لقراري، أن يغضبَ، أن يضربَني، لكنه قابل قراري بالصمت، فرحت أكثر، يبدو أنه قد حزن لفراقي، والآن سأُهاجمه هجومي الثاني.

- لماذا لا تنتقل بعملك إلى حلب، فنعيش معًا حياةً جميلة مرفَّهة، يملؤها الحب.

ظلَّ صامتًا، مطرق الرأس يحدِّق في أصابع يديه، رفع رأسه، نظر مليًّا في وجهي الذي ما زال يحتفظ بقَدْر كبير من مساحيق الأمس، ثم عاد فأطرق.

- أنت حرَّة، أجل، أنت حرَّة فافعلي ما تشائين، لن أنقضَ لك قرارًا أبدًا، البَسي ما شئت من ثياب، وادَّهني بما شئت من أصباغ... صمت مطوَّلاً، ثم زفر زفرةً حارَّة وأضاف: خسارة، كنت أظنُّ أني أضيف إلى أسرتي رأسًا مفكِّرًا، كنت أحسبك امرأةً مثقَّفة خَبرَت الحياة، كنت أظنُّ أني أضفت إلى سكَّان

قريتنا وعشيرتنا معلِّمةً منهم، يهمُّها أمرهم، وتسعى للارتقاء بعلومهم؛ لتخرِّجَ من بين يديها أجيالاً متعلِّمة، كنت أظنُّك ستحرِصين على أبنائنا حرصك على أبنائك، وها أنت تظلمين طفلَك الوحيد، تكشفين جسدَهُ للبرد والحرِّ بأمر (الموضة)، وبدعوى التمدُّن والمدنية! ألم تُقارني بين بيوت المدينة المغلقة، وجوِّ القرية المكشوف للطبيعة، تظلمين ولدَك بسخافتك، وتمسُّكك بقشور الحضارة، فهل أنتظر منك حرصًا على أبناء القرية وأبنائي؟ أنت امرأةٌ تافهة لا تصلحين لشيء، بل تصلحين، تصلحين للوقوف في واجهة محالِّ بيع الألبسة الجاهزة، دميةً من الشمع تعرضُ على جسدها الخالي من الروح أنواعَ الثياب.

كان يتكلَّم، وكنت صامتةً أستمع لكلامه، لم أجد ما أردُّ به عليه، فاجأني بطريقة تفكيره، وحزنه، فاجأني بانطفاء عواطفه وخمود شهوته، بعد فترة من الصمت تابع حديثه.

- وقد لا تعلمين، مهنةُ عرض الأزياء لها مقاييسُ واعتباراتٌ لا تنطبق عليك في سنِّك هذه، متى ستنتبهين لنفسك، وتحسبين سنوات عمرك؟ أتعلمين أنك أكبرُ من زوجتي الكبرى فوزة بسنوات خمس؟ هذه غلطتي، سأتحمَّل وحدي تبعاتها، اسمعي يا وضحة، أنت منذ الآن طالق من عصمتي، سأُرسل لك مهرَك كاملاً، وورقتك الرسميَّة من المحكمة، لا يشرِّفني أن تكوني

زوجةً لي... خسارة.

غادر غرفتي ولم يلتفت، تركني غارقةً في ذهولي، وانضمَّ إلى أخويَّ وأمي يشترك في حديثهم كأنَّ شيئًا لم يكن، كأنه ما أحرقني ولا دمَّرَ روحي، طلاق؟ يعني أنا الآن مطلَّقة؟ أما كفاني ما عانيتُ من كلمة عانس؛ لأكونَ بعدها مطلَّقة؟ لماذا؟ من أجل هذا البنطال، وهذا القميص؟ ظللتُ جالسة في مكاني، أشعر أن عقلي قد توقَّف عن التفكير، وأن جسدي يخونني فلا يستجيب لإرادتي، ما عدتُّ قادرةً على تحريك يد ولا رجل، تجمَّدت عيناي وغرقتُ في الكآبة.

الناس من حولي مشغولون بالعرس، ولم ينتبه أحدٌ لغيابي الذي اعتادوه، فما كنت معهم في موقف من المواقف، استلقيتُ على سريري، وجَحَظَت عيناي باتجاه السقف، أنا امرأةٌ تافهة، فارغة؟ هكذا يراني حمدوش؟ لا أصلُح إلا دميةً لعرض الملابس؟ لماذا يقسو عليَّ كلَّ هذه القسوة؟ أما كان يجلس في غرفتي على الأرض؛ ليرقُبَ مبتهجًا طقوسي في إعداد زينتي؟ أما كان يتتبَّع بعينيه حركةَ أصابعي؛ ليبصرَ توزُّعَ المساحيق على صفحة وجهي؟ لماذا انقلب عليَّ هكذا؟ لماذا؟

جاءت أمي من بيت فضة مهرولة، أعدَّت لهم إفطارًا سريعًا، كانت تعمل وحدَها، لم تدعُني لمساعدتها، تناولوا إفطارهم ونسُوني، ثم غادروا البيتَ لاستكمال طقوس العرس، صوت

بكاء ولدي شدَّ انتباه أمي، فتحت بابَ غرفتي، ألقت عليَّ نظرتها العدوانية، ثم حملته بين ذراعيها وانصرفت، صافقةً الباب خلفها بقوَّة وغابت.

رُحت أضرب رأسي بقبضتي وأبكي، ثم أبكي، ولا أجد لروحي متنفَّسًا سوى البكاء، أأنا سخيفة تافهة؟ أصحيح أن ما أتمسَّك به هو القشور؟ تقول أختي فضة: تصالحي مع الله، تصالحي مع نفسك، أأنا في خصام مع الله؟ أأنا في خصام مع نفسي؟ كلُّ من حولي لا يعنيهم أمري، حتى النضال من أجل التحرُّر لم أنله؟ بلا معارك ولا جدال ولا كدَمات زرقاء، ألقى زوجي عليَّ محاضرته ثم طلَّقَني، وخرج ليحتفلَ بعرس أخي مع رجال القبيلة، ماذا أفعل؟ هل أقتل نفسي؟ تقول فضة: اتقي يومًا تواجهين فيه ربَّك وحيدة، خاليةً إلا من سجلِّ أعمالك، لا يشفع لك أبٌ ولا أخ ولا زوج، وهل طلبتُ شفاعتهم؟ تقول فضة: حدِّدي هدفك في الحياة، ثم انطلقي باتجاهه، ستجدين الحياةَ حلوةً لذيذة، ستتمتَّعين بكلِّ ساعة من عمرك وكلِّ دقيقة، حين تمشَين باتجاه هدفك، كفاك ضياعًا يا أختي.

الويلُ لفضة، دائمًا تنصب نفسها حكيمةً واعظة، من طلب منها ذلك؟ أنا أختُها الكبرى، أنا من يحقُّ لها تقديم النصح، وعلى الآخرين الطاعة، ولكن أيَّةُ نصيحة أقدِّمها لهم؟ هل تخوِّلني تجرِبتي في الحياة القيام بدور الناصح؟ لا... ما هو

هدفي؟ لا أدري، كلُّ ما أريده أن يقالَ عني: امرأة متحرِّرة، وعدت للبكاء.

صوت الطبول يدكُّ جمجمتي، أصوات الزَّغاريد تكهربُ أعصابي، الضجَّة تدنو، ثم تدنو، لا بدَّ أنهم يزفُّون الآن شمسة إلى بيتها، وأنا، نقطةٌ ضائعة على هامش الحياة، لا يكترث أحدٌ بغيابي ولا حضوري، لماذا؟ لأنهما سواء، ما كنت عنصرًا فاعلاً بينهم ولا منفعلاً، لست نقطةً على هامشهم، بل خارج دفاتر اهتمامهم.

أين مكاني؟ لا مكانَ لي، عناصر الحزب من رجال ونساء ودَّعوني بقهقهة عريضة في تلك الليلة المشؤومة، ليلة الاحتفال بذكرى تأسيس الحزب، وهم يقرعون الكؤوس، ويهتفون: في صحَّة الفلاحة، ما كنت بينهم إلا فلاحة، برغم كلِّ التنازلات التي قدَّمتُها، وبرغم استسلامي لمعظم إملاءات كاترين.

وهناك في مديرية الثقافة يقول لي المدير، كمن يخاطب طفلاً: اذهبي الآن يا وضحة. متى شعرتُ بوجودي الحقيقي؟ متى كان لي كِيانٌ أرضى عنه؟ لعلَّ فرصتي الوحيدةُ لبناء كِيانٍ لي يُرضيني كانت في بيت حمدوش، في قريته، لم تعاملني زوجتاه كضَرَّة سرقت منهما زوجهما، بل كانتا تقدِّمان لي خِدْماتهما بكلِّ احترام، وما خاطبتني واحدةٌ منهما باسمي مجرَّدًا، ولكن كانتا تخاطبانني بالآنسة، كانتا مُدركتَين فائدةَ هذه الآنسة للقرية

ولأبناء القرية، ومستقبل القرية، وكنت في عمًى عن كلِّ ذلك، مشغولةً بأوهامي.

عدت للبكاء، الظلام بدأ يتسرَّب إلى غرفتي، تنبَّهت، في أيِّ وقت أنا الآن؟ تلفتُّ حولي فما رأيت سوى بنطالي الضيِّق وقميصي الأحمر، ينتصبان أمام عينيَّ كلعنة مجسَّمة، رميتهما على الأرض، ورحت أدوسهما بقدمي، أفرِّغ قهري وغضبي على نسيجهما، كوَّرتهما ورميت بهما خلف الخزانة، ثم جلست أجترُّ أحزاني.

من أجل هذا البنطال طلَّقَني زوجي، هو لم يعترض على البنطال، بل على تمسُّكي بتوافه الحياة، وإصراري على سلوك المراهقات، يقول: احترمي سنَّك، وتقول فاطمة: أهلاً يا خالة، أنت أكبرنا سنًّا، وواجبٌ علينا احترامك. الظلمة تشتدُّ من حولي، تمحو الموجودات من أمام نظري، الليل يجتاح الكون، هدأت حركةُ الكائنات، وهدأت ضجَّةُ العرس، وأنا ما زلت منذ الصباح وحيدةً أبكي حظِّي، هل أبكي حظِّي، أو خَواء نفسي وخلوَّ حياتي من هدف أسعى إليه؟ بل كان ثمة هدف: امرأةٌ متحرِّرة، أما كان هدفي هو حيازةُ هذا اللقب؟ وهل كنت مقيَّدة؟ ممَّ أتحرَّر؟ ممَّن أتحرَّر؟ إخوتي؟ أمي؟ رجال القبيلة؟ زوجي؟ كلُّهم يقولون لي: أنت حرَّة، تصرَّفي بما ترينه مناسبًا، وما تستطيعين تحمُّلَ نتائجه وتبعاته، لم يعترضوني بشيء،

دخلت الحزب، خرجت منه، بل أُخرجت قسرًا، ذهبت إلى الحسكة، عدتُّ من الحسكة، تزوَّجت، وها أنا ذي الآن أطلَّق...

يا للهول! نعم لقد طُلِّقت، أنا الآن مطلَّقة منبوذة، سيُحاصرني الناس بسوء ظنونهم، بتقوُّلاتهم، ستتحاشى النساء صحبتي؛ تشاؤمًا بوضعي، أهذا ما كنت أريده؟ أهذه هي الحرِّية التي سعَيتُ إليها؟ لا، مؤكَّد أني ما سعيت لهذا، عُدتُّ لأضربَ رأسي بقبضتي، وأبكي من جديد.

تذكَّرتُ السيِّدة سميحة، التي كان الرفاقُ يذكرون اسمها بالتفخيم الساخر، ويتغامزون بشأن سيرتها ببذيء الكلام، سميحة تلك يراها الناسُ هائمةً في الشوارع، باكيةً بصوت مرتفع، ملوِّنةً وجهها بكلِّ ما لديها من ألوان المساحيق، وأنا من أجل هذه الألوان غدَوتُ مطلَّقة، يقول الرفاق عنها: إن حرمانها الجنسيَّ يدفعها للتلوُّن بهذه الألوان؛ علَّها تجتذب إليها من يُطفئ لظاها، أأكون مثلها؟ أيسرُّني أن يتحدَّثَ الرجال عنِّي بما تحدَّثوا عنها؟ ليتني أموت قبل ذلك، أأركض إلى حمدوش، فأركع بين يديه أُناشدُه العودةَ عن قراره؟ وهل يرضى؟ وإن رضي، هل أستطيع العيشَ كما يريد؟

انتهى العرس، الظلام والسكون يغمران البيتَ من حولي، وأنا ما زلتُ في مكاني، لا أريد إنارة الغرفة، سكت صوت

الطبول، وانتهت الضجَّة، أورقَ في قلبي أملٌ جديد، لعلَّ حمدوشًا يرجع الآن ويسترضيني، لعلَّه يرجع ويهدِّدني أو يؤنِّبُني أو يعاتبني، فأعود عن قراري، وأعود معه، وتذكَّرت ولدي، أخذته أمي منذ الصباح ولم ترجع حتى الآن، شعرت باحتقان في صدري وألم، تذكَّرت أني لم أُرضع ولدي طَوالَ هذا اليوم، سهم ناريٌّ شعرت به يخترق صدري، ويستقرُّ في قلبي، أين سامر؟ أضأت المصباح، فتحت بابَ غرفتي، سمعت أمي تفتح بابَ الدار، انتظرتها، دخلت يتبعها أخي سلمان وأختي فضة وزوجها، أين حمدوش؟ سألتهم باكية، أين حمدوش؟ مشى الجميع بصمت كأنهم عائدون من جنازة لا من عرس، دخلوا، ولم يجب أحدٌ على سؤالي حتى استَوَوا في مجلسهم.

بهدوء وحسرة قالت أمي: سافر حمدوش مع أقاربه إلى بلدهم، سافر وأخذ ولده معه، ثم عقَّبت: كان حمدوش نِعْمَ الصِّهر، ونِعْمَ الظَّهر، حمدوش سيِّد الرجال، بكرمه وأخلاقه وغَيرته على عشيرته، أجابها سلمان: ما خسرنا حمدوشًا، ولن نخسرَه، سيظلُّ حمدوش فردًا ممتازًا من أفراد قبيلتنا، له ما لنا وعليه ما علينا.

رمحٌ طويل اخترق كبدي، حمدوش لم يرجع معهم، حمدوش لم يندم على قراره، بل أخذ ولدي ومضى! صرخت في وجوههم: أريد ولدي، الويلُ لكم، كيف تحرمون أمًّا من

رضيعها؟ ألا تخافون الله؟ حضانة سامر حقٌّ لي، كيف تتصرَّفون في حقِّي دون علمي؟ تتكلَّمون عنِّي وعن مصيبتي أمامي، متجاهلين وجودي، أريد ولدي وإلا شكوتكم للشُّرطة، وأدخلتكم السجونَ جميعًا، أريد ولدي.

ما كنت أعلم أن لصوتي مثلَ هذه القوَّة، ما كنت أعرف أني قادرةٌ على الصُّراخ والسِّباب كما فعلت، كان صطَّام زوج أختي يجلس صامتًا، يحدِّق في خطوط البِساط بين يديه، انتظر حتى فرغتُ من الكلام وانخرطتُ في نشيج مُرٍّ، رفع رأسه بهدوء وقال: اسمعي يا ابنة عمِّي، وثار جنوني من جديد، لا أريد سماعَ أيِّ شيء، أريد سامرًا، صطَّام يعيش سعيدًا بين زوجته وولديه، لا يشعر باحتراق قلب الأم حين يُختَطَف منها رضيعها، ما عدت أقدر على لجم دموعي، وأنا التي لم يرَ أحدٌ دموعها من قبل، شعرت بأني ضعيفةٌ مَهينة، تجلِّلني المذلَّة، ماذا أريد؟ أريد ولدي ولا شيء سواه، أسكتني صطام؛ ليقول: إن حَضانة الطفل حقٌّ للطفل، لا لأحد من والديه، صحيحٌ أن الأمَّ أولى به في سنواته الأولى، وأقدر على رعايته، لكنَّكِ لست متفرِّغةً له، ولست مهتمَّةً بشأنه يا ابنة عمي، وكلُّنا شهود على هذا، وظيفتُك الجديدة سوف تستهلك ثلثي نهارك، هذا في الصيف، أما في الشتاء فلن تعودي إلى البيت قبل حلول الليل، ولا يُعقَل أن تصطحبي صبيًّا رضيعًا معك إلى مديرية الثقافة، دعيه يتربَّى

مع إخوته في بيت أبيه، زوجتا حمدوش لن تقصِّرا في رعايته.

- لا تتفلسفوا عليَّ بآرائكم، أريد ولدي، وأستطيع العنايةَ به، سأتركه...

- لا... لن تتركيه عندي، قاطعتني أمي صارخةً بصوت أقوى من صوتي: أنا في شغل عنك وعنه، هذا الطفل أمانةٌ في أيدينا، سوف نُسأل عنها يوم القيامة، وأنا امرأةٌ عجوز، لا قدرةَ لي على رعايته والعناية به، وأخاف الله.

- سأتركه عند أختي فضة، ترعاه مع أبنائها.

- ولن تتركيه عند فضة، ردَّت أمي بحزم: بعد أيام سوف تفتح المدارسُ أبوابها، وتترك فضة ولديها في رعاية جدَّتهما، هل تتحمَّل أم صطّام وِزرَ ولدك فوق أوزارها؟ ما فضلك على الناس؛ لتنظُري إلى كلِّ من حولك وكأنهم عبيدك؟

أُسقِطَ في يدي فعدتُّ للبكاء، ما عاد لديَّ ما أقوله، سحبتني فضة إلى غرفتي، وجلست بقربي تواسيني، صرختُ في وجهها: اخرُجي من هنا، لا أريد نصيحةَ أحد، خرجت فضة، ثم ذهبت برفقة زوجها إلى بيتها، فَطِنَت أمي إلى أنني لم أذُق زادًا طَوالَ هذا اليوم، جاءتني بكأس من اللبن، عانقتني وبكت، قالت: كان الله في عونك يا ابنتي، مُصابك كبير، ولا يشفيه إلا الصبر وكثرة الدعاء والتسبيح، وما بعد الصبر إلا الفرَج من عند الله، أخلصي النيَّة لله، وادعيه من أعماق قلبك يا ابنتي، قومي الآن،

اشرَبي هذا اللبن، ثم توضَّئي وصلِّي لله، اطلُبي منه العون، والله لا يردُّ من يطرُق بابه مستجيرًا، هيَّا، قومي الآن.

ضمَّتني إلى صدرها، فشعرت بالسَّكينة، ما أحوجَني إلى إنسان يُغدق عليَّ حنانه، وينقذني من عذابات نفسي! تناولت اللبن، ثم نفَّذت ما أمرتني به، كانت الصلاة ماءً طاهرًا غسلت قلبي، وأسلمتني إلى حالة من الرِّضا فنمت، وما كنت قد أغمضت عيني طَوالَ الليلة الفائتة، غطَّتني أمي بمُلاءة خفيفة، ثم أطفأت النور ونامت على فراش قُربَ سريري حتى الصباح.

حين ارتفع صوت المؤذِّن يدعو لصلاة الفجر من مسجد القرية: سبحان فالق الإصباح، صحوت، وكذلك صحت أمي، خرجت من غرفتي بهدوء؛ خشيةَ إيقاظي، فأمامها الكثيرُ من المهمَّات، العروسان ينامان في الغرفة الجديدة التي أُضيفت لمنزلنا، والمهنِّئون ينتظرون شروق الشمس؛ ليملؤوا الدارَ بهداياهم، وأنا في فراشي، أغطِّي وجهي ويجري من أمام خيالي شريطٌ طافح بالصُّوَر، فاجأني الدكتور فارس، يدخل غرفةَ مكتبي في مقرِّ الحزب؛ ليقولَ: لأنك شابَّة، ولأنك جميلة، ولأنك مطيعة، حين تفقدين أحدَ هذه العناصر لن تجدي مكانًا لك بينهم، سيرمون بك خارجًا، أتعتقدين أنك أولُ من جلست على هذا الكرسيِّ؟

أنا الآن فقدت الجمال، وذبُلَ فيَّ الشباب، حتى إنَّ زوجي

جعل يستنكر منِّي الزينةَ التي أعددتها من أجله، ويقول: ما تفعلينه بنفسك يليق بمراهقات الأرمن، لكنِّي أشعر ببعض الرِّضا؛ لأنني تمرَّدت على إرادة الرفاق هناك بتجاهلي كلَّ إيحاءاتهم لتحريري من أخلاقي، وزَجِّي في مثل مصير سميحة، ولأني تركتهم في تلك السهرة المشؤومة وخرجت بكرامتي، ورأيتُني مرة أخرى أمسك رأسي بقبضتي، وأبكي مستغيثةً بالله: يا رب، يا رب... وتنبَّهت لنفسي، ها أنا أستغيث بالله حين فقدت المغيث، يبدو أنني وجدتُّ الدرب الصحيح في الحياة.

انقضى الأسبوع الأول بعد عرس بكري، بيتنا خليَّةُ نحل لا يهدأ أزيزها، ضيوفٌ قادمون، ضيوفٌ مغادرون، الهدايا تملأ ساحةَ الدار، الكلُّ جاء يهنِّئ بزواج بكري، وعيادة سلمان، وأنا داخل غرفتي، في معزلٍ عنهم وعن أفراحهم، أفكِّر في نفسي وأُعيد التفكير، أين كنت؟ إلى أين وصلت؟ ما مستقبلي؟ كلُّ الإجابات عن أسئلتي في علم الغيب، وما بين يديَّ شيء يشي بها، ما لديَّ إلا الصبر.

الفصل السادس

انتهت المهلةُ التي منحني إيَّاها المدير، واليوم سأعرف مصيري هناك، ضاعت منِّي كلُّ طموحاتي، بردت همَّتي للشغل وللحياة، صحا سلمان باكرًا وصحَّاني، ذكَّرني بعملي الذي ما نسيته، أشار عليَّ بتجهيز نفسي ومرافقته إلى حلب، اخترت أكثرَ ثيابي حشمة، ووقفت أنتظره بوجهي الخالي من كلِّ زينة، أنا الآن مطلَّقَة، ولا أريد أن يُقالَ عني ما يُقالُ عن سميحة: (مجنونة باب الفرَج)، وأدهى من كلِّ هذا: أنا مجروحة الفؤاد ثَكْلى، من أين آتي بأسبابٍ تدفعني للوقوف أمام المرآة؟

دخلتُ مديرية الثقافة، توجَّهت فورًا إلى مكتب المدير، طلب منِّي الجلوس ريثما ينتهي من توقيع بعض الأوراق، ثم راح يشرح لي عن طبيعة عملي، وما يجب عليَّ سلوكه، قال: نحن نعلم أنك كنت لسنوات مديدة في حزب التقدُّم والحرِّية، وهذا الحزب كما تعلمين عمارة مبنيَّة من الورق المقوَّى، بمعنى أنه

حزبٌ شكلي، لا فاعل ولا منفعل في الحياة العامَّة؛ لذلك لا نخشى منك ولا من حزبك، لكنَّنا هنا في مؤسَّسة حكومية، تتبع الحزبَ الحاكم، فحاذري من نشر أفكار حزبك هنا، بين الموظفين أو روَّاد المركز الثقافي، ستكون من حولك عيونٌ وآذان ترصد كلَّ كلمة منك وكلَّ فعل، فاحفظي نفسك تسلمي.

خرجت من غرفته، ونزلت السلَّم على مهل، سألتُ عن مدير المكتبة، قدَّمت له نفسي، أعلمته أنني الموظفةُ الجديدة، وانتظرت توجيهاته، مدير المكتبة رجلٌ ستِّينيٌّ أشيب، عابس الوجه صموت، سألني بعد دقائقَ أمضاها في تأمُّل وجهي ولباسي: أأنت قريبةُ الدكتور فارس؟ هززت رأسي بالإيجاب، عاد فسألني: أأنت المطرودة من حزب التقدُّم والحرِّية؟ مرة أخرى أجبتُ بهزَّة رأسي. حسنًا، قال: نحن الآن نعيد ترتيبَ المكتبة، وسنُدخل كلَّ عناوينها في الحاسوب (الكمبيوتر)، عليك أنت - باعتبارك لا تُتقنين التعاملَ مع الحاسوب - نسخ العناوين في هذا السجلِّ مع أسماء مؤلِّفيها وفق أحرفها الهجائية، ابدَئي عملك الآن، سلَّمَني سجِلّاً كبيرًا، ومجموعة أقلام، ثم انصرف لعمله.

بدأت العمل، عسى أن يُخرجَني هذا الجهد من وُجومي، ربما يخرجني من حالة اليأس التي غرقت فيها إلى شحمتَي أذنيَّ، ظللت أكتب وأكتب، حتى أحسست بأصابع يُمناي

تتخشَّب وتعجِزُ عن المتابعة، رمَيتُ بالقلم جانبًا؛ لأعطيَ لنفسي استراحة، شعرت بحاجة إلى إنسان أكلِّمه ويكلِّمني، أو أستمع إليه وهو يتحدَّث إلى الآخرين، خرجت إلى البَهْو الكبير، ودلفت منه إلى الديوان، رحَّبت بي الموظفات: أهلاً بالخالة أم سامر، جئت في وقتك، نحن الآن نعدُّ القهوة، جلست بينهن، بحثت بعينيَّ عن فاطمة، أشعر أن غيرتي منها قد تلاشت تمامًا الآن، وحلَّ محلَّها شفقة، بل محبَّة، هذه الفتاةُ تعيش الآن مثلي حين كنت في مثل سنِّها، غافلةً عن الزمن الذي يجري سريعًا، سأقدِّم لها النصح.

ولكن، هل يحقُّ لمثلي تقديم النصح والإرشاد؟ هل أحكي لها عن تجرِبتي في الحياة وأقول لها: إنها سوف تندم حين تفقد الشبابَ والجمال؟ أولم ينصحني الدكتور فارس وما اكترثتُ لنصحه؟ ألم أحتقره وأحقد عليه حين قال لي ما قال؟ أما كنت مثلها أظنُّ أن الشباب والجمال خُلقا من أجلي، وسيدومان لي دوامَ حياتي؟ هل ستصدِّق فاطمة أن الخالة أم سامر كانت شابَّةً جميلة ذات يوم؟ وهل كنت أصدِّق في شبابي أن العجائز كنَّ شابَّات فيما مضى من الزمان؟ ليت فاطمة تجد لنفسها طريقًا واضحًا في الحياة؛ لتعيش سعيدةً كسعادة أختي فضة، مسكينة فاطمة، أيُّ مصير أسود ينتظرها؟ كيف أصوغُ نصيحتي لها؟ بأيِّ أسلوب أوصل لها خُلاصةَ تجرِبتي في الحياة؟ ألا يقولون في

الأمثال: اسأل المجرِّب، ولا تسأل الحكيم؟

شربت القهوة مع الموظفات في الديوان بصمت، كنت ذاهلةً طَوالَ الوقت أخاطب نفسي، وما سمعت شيئًا من أحاديثهن، عدتُّ إلى عملي، أنَّبَني مدير المكتبة، وقال: إنه لن يسمحَ بخروجي من هنا إلا بإذنه، لم ألتفت إليه، جلست في مكاني؛ لأُتابعَ عملي، عناوين كتب، أسماء كتَّابها، تاريخ إصدارها، أنسخُها من مصادرها على دفتري الكبير، يُدهشني حجم الكتب التي بين يديَّ، متى وكيف استطاع هؤلاء الكتَّاب إنجازها؟ أفي شبابهم أم في كهولتهم؟ أما شغلهم ما كان يشغلني؟ وأذكر الدكتور فارسًا، الذي أنجز وما يزال يُنجز الكثير من الكتب، أراها هنا، مصطفَّة أمامي على الرُّفوف، تهزأ بي، تشمَتُ، فأتغافل عنها، وأنشغل بعملي؛ علَّني أنسى واقعي.

انتهى الأسبوع الأول وما رجعت إلى الديوان، عدتُّ إلى القرية مساءً برفقة أخي سلمان، كما نعود كلَّ يوم، مساء الخميس ونهار الجمعة يقضيه الناس عادةً في الراحة من أعمالهم، لكنَّ أخي سلمان أمضى وقته في عيادته، يستقبل المرضى من أبناء القرية والقرى المجاورة، عاتبتُه: لِمَ يُرهق نفسَه في العمل؟ ألا يكفي هؤلاء المرضى دوامُه المسائيُّ في العيادة كلَّ يوم؟ ألا يحقُّ له يومُ راحة في الأسبوع؟

أجابني ببسمة وادعة جعلتني أشعر بعظمة مشاعره النبيلة: يا

أختي، إن المرض لا يعرف حسابات الأيام، وأنا طبيب، مهنتي هي تخفيفُ الألم عن الناس، ومُداواة أوجاعهم، هل أتركهم لأمراضهم وأستريح؟ ولو أرحتُ جسدي كما تشيرين، فهل يرتاحُ ضميري وأنا مغلقٌ بابي في وجوه المتألِّمين؟

مضى يوم الجمعة في ضيق و(توتُّر)، كنت أُحصي الساعات؛ انتظارًا ليوم السبت؛ حيث أعود للعمل، فأُرجئ التفكيرَ بسامر إلى الليل، وأغرق بين غُبار الكتب، فلا يرى أحدٌ أنني مطلَّقة، ما وجدت شيئًا أشغل به نهاري، حين استيقظت في الضحى كانت أمي قد أنجزت كلَّ أعمال البيت، وزارت أختي فضة، ثم لحقت بسلمانَ في عيادته، تساعده وتساعد مرضاه، كأنها ممرِّضة محترفة.

رُحت أدور بين الجدران كعُصفور في قفص، بيوتنا في القرية لا نوافذَ لها، إلا كُوًى صغيرة تعلو عن الأرض بمقدار نصف ذراع، تتَّسع لكُوز الماء وإبريق الشاي مع ملحقاته، جلست أرقُب الدربَ من خلالها، فما راقني شيء، قمت إلى خزانة أخي سلمان، أبحث عن كتاب أملأ به فراغَ وقتي، بين الكتب عثرت على مظروف مغلق، على ظهره كُتب اسم حمدوش، فتحتُه، فإذا به يغصُّ بالأوراق النقدية، تغلِّفُها ورقةٌ مطبوعة مختومة، فتحتها، إنها صَكُّ طلاقي، وهذه النقود هي مهري الذي أرسله لي حمدوش، أعدتُّ الظرفَ إلى مكانه، وعدت إلى

الكُوَّة أرقُب الدرب وقد فاضت عيناي بالدموع، بهذه النقود اشتريتُ شقائي، بهذه النقود بعتُ ولدي، اللعنة على أموال الأرض كلِّها.

عادت أمي برفقة سلمان إلى البيت حين كان المؤذِّن يدعو لصلاة الجمعة، توضَّأ سلمان وذهب إلى المسجد، في حين شرعت أمي في إعداد طعام الغداء؛ لتتناولَهُ مع سلمان بعد صلاته، وسيعودان من جديد إلى العيادة لأبقى وحدي.

فكَّرت في شيء أعمله، أهل القرية انسلختُ عنهم منذ زمن طويل، كبِرَ فيه الصغار، وشاخ الشباب، ما عدتُّ أعرف الوجوهَ هنا ولا الأسماء، صُوَيحباتي اللاتي كنَّ يزُرنني قبل رحيلنا إلى المدينة تزوَّجن منذ أمدٍ بعيد، معظمهُنَّ صرنَ الآن جدَّات، وما من شيء يجمعني بإحداهنَّ ولا حديث، تذكَّرت الصلاة، توضَّأت، ثم فرشت سَجَّادة أمي، فكَّرت فيما سأقرؤه في صلاتي، أنا لا أحفظ من القرآن الكريم سوى ما مرَّ معي في مقرَّرات المدرسة، ولقد نسيتُ معظمَه؛ لطول العهد والبعد، جئت بالمصحف، أغمضت عينيَّ بخشوع وفتحته على مهل، سأقرأ منه أيةَ صفحة تنفتح أمامي بالمصادفة، ﴿وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٢٦﴾، وتوقَّفتُ عن القراءة، هذه الآيةُ تصف حالتي بدقَّة، لقد أهلكت نفسي، وخسرت ولدي بابتعادي عن تعاليم الله، وما كنتُ أشعر! لكنَّ

الأمل بالله كبير أن يُحدثَ بعد ذلك أمرًا لا أعرفه، لعلَّه يرحمني، فيُعيدني إلى سكينة النفس، ويعيد إليَّ ولدي، فلأقرأ ما قبلها: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

أغلقت دَفَّتَي المصحف ثم فتحتُه من جديد، فانفتح على سورة الطلاق، نعم أنا الآن مطلَّقة، فلأقرأ: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾، أغلقتُ المصحف، وشردتُّ في تفكيري وقهري، رحت أستغفر الله وأدعوه بقلب ضارع أن يهديَني إلى سبيلٍ يُرضيه ويرضيني، لقد تعدَّيت حدودَ الله فظلمت نفسي، لم يظلمني أحد، بل ظلمت نفسي، وظلمت ولدي.

غادرت فراشي صباحَ السبت مع استيقاظ أمي، صلَّيت الفجر، ورُحت أساعدها في إعداد وجبة الفطور، رتَّبت غرفتي، وجلست إلى المائدة أشارك أمي وأخي سلمان الطعام، ما كنت قبل اليوم أشارك أحدًا من أهل بيتي طعامًا ولا مجلسًا، كنت طَوالَ الوقت أعيش وحدي، ولنفسي فقط، ما كنت في ماضي أيامي فردًا من أفراد هذه الأسرة المتماسكة المتعاونة المتحابَّة، بل كنت قوقعةً مدسوسة في جسدها، تتَّخذُ من بيتها مأوًى، لكنَّها تعيش سجينةَ أفكارها وأنانيَّتها، في عُزلة عن الأسرة وما يجري فيها، اعتادَ الجميع وضعي هذا، فعاشوا حياتهم متجاهلين وجودي، قرَّرت اليوم أن أكسرَ قوقعتي وألتحمَ بهم،

أتوحَّد بنسيجهم؛ عساني أن أجدَ سكينةَ الروح في محبَّتهم.

دخلت مديرية الثقافة وأنا أفكِّر في فاطمة، سأتحدَّث إليها بهدوء، سأوجِّه لها النصيحة بأسلوب ناعم لطيف لا يثير نفورَها، كما أثار نفوري نصحُ الدكتور فارس ونصح أخي بكري، سأحكي لها قبسًا من حياتي وحياة أختي فضة، عساها تقارن بين مصيرينا، وتختار لنفسها الطريقَ السويَّ القويم، سأحاول ألا أغضبَها، لكنِّي لن أتركَها للضياع، لن أتركَها للخَواء الذي يقتلني كلَّ يوم آلافَ المرات، دخلت المكتبة ورُحت أعمل وأعمل، حتى تيبَّست أصابعي القابضة على القلم، تذكَّرت فاطمة، لا بدَّ أنها تشرب الآن القهوةَ مع زميلاتها، استأذنت مديرَ المكتبة وذهبت إليهن.

كما توقَّعت، كانت الموظفات يشربنَ القهوة، ويثرثرن، سكبت لي إحداهنَّ فِنجانًا وناولتني إياه، مرحِّبة بي: أهلاً بالخالة أم سامر، استجبت لها على مضض، جلست معهن أشرب، وأستمع إلى أحاديثهن التي كانت تدور، مثلما دارت أحاديثُنا هناك، عن (الموضة) والأبراج، عن الممثلات والمسلسلات، لكنها تزيد عنها بأحلام المستقبل، كلُّ فتاة منهنَّ تحلم بزوج غني، يريحها من همِّ الوظيفة، وينفق بسخاء على ثيابها ونزهاتها وزينتها، كلُّ منهنَّ تريده وسيمًا تتباهى به على بنات الجيران، كنت طَوالَ الوقت صامتة، أقارن بين أحلامهنَّ

وأحلامي، مضى شبابي ولم أحلُم بزوج، كنت أعدُّ الزواج قيدًا وسجنًا، وأنا من يصفني كلُّ المحيطين بي في العمل بالمتمرِّدة، نعم، لقد كنت متمرِّدة، ولكن على أيِّ شيء تمرَّدت؟ أيَّ نصر أحرزت؟ لا شيء، حين التحقت بحزب التقدُّم والحرِّية، ما تمرَّدت على أحد، عرض عليَّ الأستاذ محرز، وتبعته مسلوبةَ الإرادة، أمام إغراء المنصب والمرتَّب الشهري، لم يعترضني أحدٌ لأتمرَّدَ عليه، وافقت أمي، وسكت إخوتي، وفي عملي لم أتمرَّد على أحد، بل استسلمت لتوجيهات كاترين، مُغمضةَ العينين، ألبستني من الثياب والأفكار ما تشاء، زيَّنتني كما تشاء، وتبعت تعاليمها ببلاهة، أجل، كنت أقول ما يريدون، وأفعل ما تريده كاترين!

اثنان فقط اعترضا على مسيرتي: أخي بكري، والدكتور فارس، كلاهما كان يراني دميةً بلاستيكية، بين أيدي حَفْنَة من العابثين، الرافعين شعارات لا يؤمنون بها ولا بجدواها، المنتفعين من أموال تأتيهم بلا عناء، يمثِّلون على مسرح الحياة السياسية دور (الكومبارس)، كلاهما - بكري والدكتور فارس - كان يرى بعين بصيرته أنِّي سائرةٌ إلى الهاوية، وأنا بغبائي كنت أحلُم بمنصب وزاري، لا أرى لي قدوةً في الحياة سوى الأستاذ محرز، أقول قوله وأدور حوله، لكنه تخلَّى عنِّي بعد تلك الحفلة المشؤومة، بل سخر منِّي حين يئس من دفعي إلى مصير السيِّدة

سميحة، تلك العجوز المصبغة، التي استقبلوها بالتصفيق والرقص، وقرعوا من أجلها الكؤوس، ثم عادوا ليقرعوا كؤوسهم من جديد، هازئين بي، هاتفين بصَخَب مجنون: في صحَّة الفلاحة.

شربت قهوتي مع البنات، ووقفت أودِّعهن، سألتهن عن فاطمة؛ لأني ما رأيتها معهن، أجابتني إحداهن بأن فاطمة في إجازة مدَّتها أسبوع، وستعود في السبت القادم.

وانتظرت...

طالت أيامُ الأسبوع على أعصابي، أشعر الآن بأنِّي أحبُّ حمدوشًا أكثر من أيِّ شخص في حياتي، وأُكبره إذ صبر على رُعونتي كلَّ هذا الصبر، ثم طلَّقني بهدوء ليلةَ عرس أخي، لم يترك مجالاً للفضائح وثرثرة الناس، لم يرفع صوته؛ لتتسرَّبَ مشكلتنا إلى الجيران، أخذ ولدَهُ بصمت وغادرني، ونِعْمَ ما فعل، فلا وقت لديَّ للاهتمام بولدي، ولا يليق بحمدوش - وهو الرجلُ الشهم - أن يتركَ ابنه لتربِّيه أمي أو أختي فضة وحماتها، هو رجلٌ حقيقي، وأنا ما اعتدت التعاملَ إلا مع أشباه الرجال، مع المتملِّقين المتزلِّفين المنافقين، التاركين زوجاتهم في بيوتهم، والراكضين بحثًا عن الفتيات الجميلات الخارجات عن قوانين الأسرة والمجتمع، والمنتشرات في كلِّ الدروب.

في كلِّ يوم أعيد على ذاكرتي ما سأقوله لفاطمة، وما أتوقَّعه من ردودها، لن أيْئَسَ من محاولات ثنيها عن طريقها الذي تسلكه، وإقناعها ببُطلانه، أمضيت نهاري في عمل دؤوب، حتى إذا رجعت إلى البيت، اشتغلت بما تشتغل به النساء في البيوت، وتعجَّبت من نفسي، كلُّ هذا العمل كانت تقوم به أمي وأختي فضة، وأنا بعيدةٌ عنهما وعن هموم البيت، منشغلةٌ بنفسي؟ صرت أكنس وأطبخ وأنظِّف المواعين، كانت أمي في شغل عنِّي وعن بيتها، لقد اتخذت عيادةَ سلمان مأوًى لها، تنظِّفها، ترتِّبها، تجمع حولها عددًا من عجائز القرية، تستقبل المرضى في غياب سلمان وفي حضوره، تقدِّم النصحَ للأمَّهات الشابَّات، تمنحهنَّ من حنانها وخُلاصة تجرِبتها، كأنها أمٌّ للجميع، حتى صارت النساء من كلِّ القرى يقصدن العيادةَ قائلات: إنها عيادة الحكيمة أم بكري، صارت أمي أكثرَ قوةً في وجودها من الطبيب ذاته، تمكُث في العيادة كلَّ يوم، حتى إذا انصرف آخرُ مريض في المساء، وأُغلقت العيادة، تمرُّ بأختي فضة، تتفقَّدها، ثم تعود لبيتها؛ لتنامَ ملءَ جفنيها، تكلؤها السعادة؛ استعدادًا ليوم عمل جديد.

انتهت أيام الأسبوع، أمضيت نهارَ الجمعة في اضطراب وانفعال، غدًا سألقى فاطمة، أتُراني أحببتُها؟ أتراني كرهتُها؟ أما زلت أغار منها؟ أسئلةٌ كانت تحملني وتدور بي، أدور معها

كزوبعة الغُبار في الأرض العَراء، وأذكر كلامَ أختي: حدِّدي هدفك في الحياة، ثم سيري باتجاهه، سأقوله لفاطمة، كنت أرفضُه من فضة؛ لأنني أختُها الكبيرة، لكن الوضع هنا مختلف، النصيحة تُسدى من كبيرة خبيرة ذات تجرِبة، من الخالة أم سامر إلى الآنسة الصغيرة فاطمة، التي تدرُج في عامها الثاني من الدراسة الجامعية، قطعت الطريقَ بين موقف سيارات القرية في ساحة الشعَّار ودوار قاضي عسكر مهرولة، لم أنتظر سيارات النقل الداخلي التي تأتي دائمًا مزدحمةً بركَّابها، وصلت تعبةً لاهثة، ركبت سيارة أجرة صغيرة توصلني إلى ما بعد منتصف الطريق، نزلت في باب الفرج، قطعت شارع التلل إلى العزيزية مهرولةً مرة أخرى، استوقفني صوتٌ ينادي باسمي: التفتُّ أبحث عن مصدر الصوت.

كانت سوزان تمشي مسرعةً تريد اللَّحاقَ بمدرستها، تمسك بيُمناها يدَ طفل في حدود الخامسة من عمره، وفي اليُسرى يدَ طفل آخرَ في سنته الثالثة، وقفت أمامها لا أكاد أعرفها إلا من زُرقة عينيها، وجهها صار الآن أكثرَ اتساعًا، وأكثر جمالاً، عانقتني بحرارة وسألتني عن حالي، هالها التغيُّر الواضح في مظهري ولباسي، قالت: إنهما ولداها، ستوصلهما إلى روضة الأطفال قبل ذهابها إلى المدرسة، أما الثالث، فتتركه في رعاية جدَّته حتى تعود، كان الإرهاق واضحًا على وجهها وحركاتها،

وانتفاخُ بطنها يشير إلى ولد رابع يستقرُّ في أحشائها، لكن السعادة والاطمئنان لا يخفيهما تعبٌ ولا إرهاق، ثرثرت كعادتها، سألتني عن حالي، أجبتها بخجل: وأنا أيضًا تزوَّجت وأنجبت ولدًا واحدًا، ودَّعَتني على عجل، ثم انصرفت لتكملَ طريقها قبل أن تعلمَ شيئًا عن حالي، وما حالي؟ هل أقول لسوزان: إني ما استطعتُ القيام بأعباء ولد واحد؟ هل أقول لها: إني أخفقت في زواجي، وأنا الآن مطلَّقة ثكلى، ولدي يعيش بعيدًا عنِّي في رعاية زوجتَي أبيه، وأنا هنا، أعمل في ظُلمة غرفة صغيرة تابعة للمكتبة؟ لا.. لن أقولَ، بل سأحاول تصحيحَ أخطائي بنفسي، واسترداد زوجي وولدي، مضت سوزان في طريقها، وتوقَّفتُ أرقُبها حتى غابت في الزِّحام، ثم تابعت مسيري، وصلت إلى مديرية الثقافة مع دقَّات الساعة الثامنة والنصف، لم أدخل المكتبةَ كدأبي كلَّ يوم، ولكنِّي توجَّهت إلى الدِّيوان من فوري.

بحثت بين الموظفات بلهفة عن بنطالٍ يلتصق بجسد لابسته، بحثت عن شعرٍ مسترسل فوق قميص أحمرَ فما وجدت، بل وجدت قامةً جديدة تلبَسُ ثوبًا سابغًا، وتحجُبُ شعرَها بحجاب صفيق، يحيط بوجه لا أثرَ للزينة فيه، حدَّقت في الوجه أستكشف صاحبته فما عرفتُها، دنوت أكثر، كانت عبارات التهنئة والمباركة تسيل غدقًا من أفواه الموظفات، وأصابعهنَّ

تمتدُّ بلطف حينًا وبعنف أحيانًا إلى جسد الفتاة، تحاول قرصها لتصيبهنَّ العدوى، انتبهت الفتاة لوجودي، فالتفتت إليَّ مرحِّبة: أهلاً بالخالة أم سامر، هذا صوت فاطمة، يا إلهي! ماذا جرى لفاطمة؟ لماذا بدَّلت مظهرَها بهذا الشكل المعاكس تمامًا لما كانت عليه؟ سألتني: ألا تهنِّئينني فقد خُطبت؟ دنوت منها مأخوذةً بغرابة الموقف، هنَّأتها كما أرادت، وأشرتُ إلى لباسها، أجابتني قبل أن أسأل: هكذا يريدُ خاطبي.

يا الله، خاطبُها؟ وأنا ما كان لي خاطبٌ يردعني عمَّا أنا فيه، بل ما كنت أريد خاطبًا ولا بعلاً يقيِّد حرِّيتي، ويزجُّ بي في بيت الزوجيَّة الذي منح سوزانَ كلَّ هذه السعادة وهذا البهاء، والذي تخلَّت من أجله فاطمة عن كلِّ ما كنت أعدُّه تجسيدًا للحرِّية والتحرُّر! رفضت بيتَ الزوجيَّة الذي سيحرمني من سماع عبارات الغزَل المطربة، يجود بها كلُّ وقح مرَّ بمكتبي أو مررت بمكتبه، وسيحرمني من المقابلات الإذاعية والتلفزية، التي تطيرُ بي فوق آفاق الأرض وفي مَهَبِّ الريح، تنفخني أسئلةُ المذيعين والمذيعات، فأطير وأغفُل عن نفسي وعن واقعي، أتحدَّث بثقة، وأيَّة ثقة؟ كنت أومن بأني الفتاةُ العصرية المثقَّفة، وما كانت ثقافتي سوى إملاءاتهم، كنت الوجهَ الذي لا يغيب في كلِّ الاحتفالات التي يشارك فيها حزبنا، وحين حاول زوجي ردِّي إلى واقع الحياة، عددتُّ كلامه ظلمًا لي وانتهاكًا لحرِّيتي...

تركتهن ودخلت المكتبة، فتحت سجلاتي؛ لأبدأ العمل، لكنِّي ما بدأت، كانت أفكاري تتصارع كعواصف يومٍ آذاريٍّ مُغبَر، مدير المكتبة لا يدخل غرفتي إلا فيما ندَر، أدرت ظهري للباب، وتركت لقهري العِنان، أأنا مؤهَّلة لنصح فاطمة؟ ما أحوجَني إلى فاطمة وابنة فاطمة التي لم تولد بعد؛ لتُسديَ إليَّ النصيحة، سالت دموعي، لكنِّي سرعان ما تنبَّهت لنفسي، لا يليق بمثلي أن يراها أحدٌ وهي تبكي، لا يليق بسنوات عمري أن أُظهرَ هزيمتي أمام هؤلاء الشابَّات الصغيرات، وبدأت العمل.

مثل كلِّ يوم بدأت العمل، وما توقَّفت حتى تيبَّست أصابعي، رميت القلم، وإذا بفاطمة تدخل عليَّ، تدعوني لتناول القهوة مع الحلوى التي جاءت بها من بيتها؛ احتفالاً بخِطبتها، طلبتُ منها الجلوس، كان الفرح يشعُّ من عينيها، ومن جسدها الفتيِّ الذي ما توقَّف عن الحركة.

- ماذا يعمل خاطبُك يا فاطمة؟

- موظَّف في مديرية التأمينات.

- أهو وسيم؟

- بل هو شابٌّ عادي.

- أهو ثري؟

- هو موظف، لا يملك سوى مرتَّبه، قالته ضاحكة.

- وكيف أقنعك بهذا اللباس؟

- خاطبي شابٌّ متديِّن، قال لي: إننا سنُحشَر يوم القيامة فُرادى، لا يشفع هنالك أبٌ ولا أخ ولا زوج، بل ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨﴾. وقال لي: سوف تُسألينَ يوم القيامة عن عمُرك فيما أفنيتِه، فبماذا تجيبين؟ هل تقولين: أمضَيتُ شبابي في اصطياد نظرات شهوانية من رجال يمشون في الشوارع؟ هل تقولين: إني كنت أُثير الشهوات وأمضي؟ أقنعني خاطبي، فألبَسَني ما ترين، ثم أهدى إليَّ مجموعةً من الكتب، طلب منِّي قراءتها جميعًا؛ لنتدارسَها حين يأتيني زائرًا، قبل أن يتمَّ الزواج.

- أيَّة كتب يا فاطمة؟

- كتب في الفقه الإسلامي، وفي السيرة النبوية، ومجموعة من الأحاديث الشريفة، لكنَّ أول هدية كانت كتيِّبًا صغيرًا عنوانه: «إلى كل فتاة تؤمن بالله».

مرَّت لحظاتٌ من الصَّمت، كانت فاطمة تعبث بخاتم الخِطبة في بِنْصَرِها اليُمنى، وتتأمَّل عناوينَ الكتب على الرفوف أمامها، وكنت أفكِّر فيما قالت وما فعلت.

- هل تصدِّقين يا خالة أم سامر؟ أنا ما كنت مقتنعةً بذاك اللباس الذي كنت ألبَسُه، لكنِّي نشأت وكلُّ الفتيات من حولي يلبَسنَ مثله، وأنا لا أختلف عنهنَّ بشيء، والآن جاء من يبصِّرني ويرشدني إلى الطريق الصحيح، فالحمد لله على هذه

النِّعمة.

فاطمة تحمَدُ الله على هذه النِّعمة، وأنا رفَستُ النِّعمةَ كما تقول أمي، تخلَّيت عن زوجي وولدي؛ تمسُّكًا بهذه الثياب، تقول أمي: إن للسعادة ذيلاً أملس، ما كلُّ من وصل للسعادة استطاع التمسُّكَ بها، وأنا أمسكت ذيلَ السعادة، فانزلق من يدي.

نهضت فاطمة من مجلسها، وأمسكت بيدي، هيَّا لنشرب القهوة، رافقتُها ولم يرافقني عقلي، بل هامَ في فضاءات لا يُدركها وعيي، شربت القهوة، وأكلت قطعةَ الحلوى، وأنا ذاهلةٌ عن كلِّ من في مجلسي، مشدودةٌ إلى حديث فاطمةَ مع زميلاتها، أكلت فاطمة، وقامت لتغسلَ يديها، لم تستعمل (الكولونيا) التي كانت تستعملها من قبل، بل قطعةً من الصابون ومنشفة عادية، قالت: إن خاطبها نبَّهها على تجنُّب روائح العطر خارج بيتها.

علَّقت إحدى البنات: من البداية أمركما واضح، من منكما الحاكم ومن المحكوم؟ ضحكت الأخريات، سألتها إحداهنَّ عن العمل الوظيفي، وهل ستستمرُّ فيه بعد زواجها؟ قالت فاطمة: إنها تؤمن بأن الأمومةَ ورعاية الأبناء هما المهمَّة الأساسيَّة للمرأة في الحياة، وأنها واجبٌ مقدَّس لا ينبغي الإخلالُ به، وقالت: إنها هي وخاطبها متَّفقان على أن تستمرَّ

في وظيفتها حتى تُرزقَ بأول الأولاد، ثم تترك العمل لتتفرَّغَ لتربية أولادها.

من أين لفاطمةَ كلُّ هذا الوعي؟ في أيَّة بيئة عاشت؟ وكيف عشتُ أنا؟ فاطمة تترك وظيفتها راضيةً بل سعيدة؛ لتتفرَّغَ لأولادها الذين لم يأتوا بعد، وأنا فرطت بولدي، رضيت الانفصالَ عن زوجي من أجل ماذا؟ من أجل العمل في نسخ عناوين كتب المكتبة المركزية على السجلات؟ من أجل أن أظلَّ قابضةً على القلم حتى تفقدَ أصابعي الإحساس؟ أنسخ ما فكَّر به الآخرون وكتبوه، وعقلي متوقِّفٌ عن التفكير، سجينُ جمالٍ ذَبُلَ وشبابٍ ولَّى؟ من أجل جلسة كهذه بين فتيات في عمر أولادي، لو كان لي أولاد!

أشعر بينهنَّ كأني نكتةٌ سوداء في رداء أبيض، أحمل طلاقي على كاهلي، أحمل انتمائي إلى حزبي، لعنة يحاصرني بها المدير، فيحشُرني في هذه الغرفة المظلمة؛ لأعملَ بعيدًا عن كلِّ داخل إلى هذه المديرية وكلِّ خارج، وما يفتأ ينبِّهُني، بل يحذِّرُني مرة تلو أخرى من نشر تعاليم حزبي بين الموظفين، ماذا جنَيتُ بحقِّ نفسي؟

عدت مساء إلى قريتي، صورة فاطمةَ بلباسها الجديد كابوسٌ يجثِمُ على صدري، لا أستطيع منه خلاصًا، غرقتُ في أعمال البيت، لكنَّها لم تسلخني من أفكاري، فكَّرت بالبحث عن

رفيقات لي هنا، ما كان لي هنا رفيقاتٌ في طفولتي، بل مجموعةٌ من البنات يأتينَ بصحبة أمهاتهن لزيارة أمي، أجلس بينهن؛ لأتباهى عليهنَّ بذهابي إلى المدرسة، معتقدةً بل مؤمنة بأنِّي أفضلهنَّ حظًّا، وأوفرهنَّ عقلاً وجمالاً، ما بنيت مع واحدة منهنَّ علاقةً ترقى إلى مستوى الصداقة، كلهنَّ مشغولاتٌ الآن بالأولاد والأحفاد، وأنا وحيدةٌ تخلَّى عنِّي الزوج، وأخذ منِّي ولدي.

فكَّرت بزيارة أختي فضة، أغلقت البابَ خلفي ومشَيتُ خطوات، وما لبثت أن تراجعت، لا أريد رؤيةَ الشفقة في عينيها، لا أريد رؤيةَ سعادتها وأنا في لُجَّة شقائي، قفلت عائدةً من حيثُ أتيت، فتحت كتابًا كنت قد استعرته من المكتبة التي أعمل فيها، عنوانه: «العلم يدعو للإيمان»، ما أحوجَني إلى الإيمان؛ ليملأَ روحي بالسَّكينة والنقاء، ويغسلَ عنها أدرانَ النَّدَم والخَواء! ما أحوجَني لطريق نيِّر، أسير فيه مطمئنَّة إلى عدالة نهايته، وبدأتُ القراءة.

أختي فضة عندها كلُّ ما أبحث عنه، وما يزال الكِبْر يمنعني من الإنصات إليها، أو زيارتها، والدُّمية التي أهديتها لها في طفولتها، والتي تستقرُّ فوق خزانة ثيابها تخيفني، ترعبني، تصفعني بكلِّ ما قاله الدكتور فارس، وما قاله أخي بكري، وما قاله زوجي حمدوش حين طلَّقَني، تذكِّرني بأني دميةٌ مثلها،

فارغة جَوفاء، ناصلةُ اللون متَّسخة الثياب، عافتها العيون، ورمتها الأيدي العابثة، ما تزال الدميةُ كما كانت يوم شرائها، جاحظةَ العيون، تنظُر ببلاهة ولا ترى شيئًا، لكنِّي الآن رأيت، وفهمت، وندمت... بل قتلني الندم.

الفصل السابع

مرَّت أيام، تلتها شهورٌ وسنوات، وأنا جامدةٌ في مكاني، أتأرجَحُ مثل نَوَّاس الساعة، خطوة للأمام، خطوة للخلف، والزمنُ ينسحب من فوق رأسي في صُندوق زجاجيٍّ لا يدركه نظري، تطحنه عقاربُ الوقت العسير، عالمي محصورٌ بين أوهامي، أبحث بين دَفَّات الكتب عمَّا يمنحني الطُّمَأنينة بهمَّة لا تفتُر، عِفتُ الزينة، عِفتُ المرايا، أسرِّح شعري بيدي كلَّ صباح، ثم أضفره وأخفيه تحت الوِشاح، أرتدي ثيابي غافلةً عن تناسُق ألوانها، غافلةً عن مُلاءمتها لجسدي، ما عدتُّ أجد في الحياة ما يشدُّني للحياة.

ما طال مُكوث فاطمة بيننا، سُرعان ما تزوَّجت، وظهرت عليها علاماتُ الحمل، طلبت إجازةَ الأمومة قبل ولادتها بشهرين، وأتبعتها باستقالة من العمل، تزوَّجت الأخرَيات، تبدَّل طاقَم العمل مرَّات، ما عدتُّ أدخل الديوان، ولا عدتُّ أعرف

من جاء ومن غادر، لا أحدَ يعنيني أمرُه ولا أمري يعني أحدًا، وجدت في المطالعة مهربًا من التفكير بواقعي فلُذت بها، ضعت بين صفحات الكتب، ولا أريد منها عودة.

مثلما ينتشر الضَّباب في صباح ربيعيٍّ بارد، أمواجٌ تتلو أمواجًا تتلوها أمواج، كذلك جاءت سيرة معيوف؛ لتغمرَ كلَّ المرئيَّات والمسموعات في أحاديث أهل قريتنا، غاب معيوف منذ عِقْد من السِّنين، انقطعت أخبارُه ولم يبقَ شيء يُذكَر به إلا امرأةٌ خرقاء حمقاء من أهل المدينة، ترود القريةَ كلَّ بضعة شهور، بثياب متَّسخة وشعر يتناثر رماديًّا منبوشًا من تحت وشاحها، مكشوفةَ الساقين على عادة أهل المدن، تجوب دروبَ القرية وأزقَّتها، تسأل الكبارَ والصِّغار عن ولدها رسلان، تدخل مَضْيَفَة المختار، والمدرسة، ثم تعود بالخيبة، تنتحبُ بأعلى صوتها، وتنوح شاتمةً رسلان ووالدَ رسلان، يركض خلفها بعضُ الصِّبية، يهتفون: مجنونة... مجنونة، ترجمُهم بالحجارة، ثم تركب الحافلةَ عائدةً من حيثُ جاءت.

أمواج الحديث الضبابيِّ تنطلق دائمًا من بيت صبحي، يقول صبحي: إنه رآه، وتحدَّث إليه، يقول: إنه حصل على شهادة دراسيَّة لم يحصل على مثلها أحدٌ في قريتنا، وإنه صار مديرًا كبيرًا، له سيارة خاصَّة وسائق، ينفق الأموال ببذخ من لم يتعب

في جَني أمواله، يُدلي بتصريحاته في مَضْيَفَة أبيه التي تمتلئ كلَّ خميس حتى عَتَبَتِها، والكلُّ قادم ليسمعَ ويعرف آخرَ أخبار معيوف، الكلُّ يعلِّق الآمال الكبيرة على دعم يناله من معيوف في مؤسَّسته التي يُديرها، والتي لم يكتشف صبحي كُنْهَها حتى الآن!

فجأة علا غبارُ ثرثرة عظيم، غطَّى على كلِّ أخبار القرية وكلِّ حكاياتها، جاء معيوف... لماذا جاء؟ أمواجُ الكلام تغمُر كلَّ دروب القرية، تدخل كالعاصفة الترابية من أدقِّ الثقوب في النوافذ والأبواب والجُدران، تترك غبارها في كلِّ مَظِنَّة، وأنا ما كانت أبوابي ونوافذي يومًا محكمةَ الإغلاق لتردَّ عني تدفُّقَ الغبار، ما يعنيني من شأن معيوف؟ يعنيني الكثير، أعادتني سيرةُ معيوف إلى ذكريات وصور أحاول بكلِّ جهدي طمسَها في وجداني، لماذا جاء الآن؟ لماذا حرَّك الجمرَ في رمادي الغافي؟ لماذا أيقظ ذكرياتي، وردَّني إلى عصري الذهبي؛ حيث كنت... وكنت... وكانت لي صولةٌ في كلِّ مَيدان وجولة؟

وتنبَّهت لنفسي كمَن يستفيق من إغماءة طالت ساعاتُها، معيوف هذا ابن رجل من رجال قريةٍ بعيدة عن قريتنا، وامرأة تنتمي إلى حيٍّ يقع في العالم السُّفلي لمدينة حلب، في ذلك الحيِّ يمشي الرجالُ مطأطئي الرؤوس غاضِّي البصر، صامتين، في حين تزعق النساء بأصواتهنَّ الثاقبة في الشُّرفات والشوارع،

في الأسواق وأبواب البنايات، درِّية والدة رسلان، الذي ربَّاه الحاجُّ كسَّار، وأطلق عليه اسم معيوف بعدما عافَهُ أبواه، جاءت مكتبي تسأل عن صديقتها وداد، ما كانت وداد فتاةً طموحًا، كان همُّها الوحيد هو البحث عن زوج يخرجها من تلك الحارة، عملت معنا مدَّةً من الزمن، وحين وجدت الزوج عافت الدنيا وتبعته، لزمت بيتَها وانقطعت عنَّا أخبارها، ما بقيَ لها بيننا شأنٌ يُذكَر، وحين يأتي اسمُها، يتناولها الرفاق بالسُّخرية والتعليقات اللاذعة، تنالها وتنال زوجها.

أم رسلان جاءت تسأل عن وداد، استقبلتُها مثلما أستقبل كلَّ زائرات مكتبي، شرحت لها تعاليمَ حزبنا ونظرياته، أفهمتها أن هدفنا الأول هو البحثُ عن الحرِّية، سألتني: أأنت متزوِّجة؟ أجبت بحدَّة كمَن ينفي عنه تهمةً ظالمة: لا... لست متزوِّجة، ولن أتزوَّجَ، الزواج بيتٌ وسجن وقيد، كنسٌ وطبخ وتربية أطفال، ما لي وللأطفال؟ أنا هنا سيِّدة نفسي، حرَّة متمرِّدة، لا يحبسني زوجٌ ولا ولد، ولا أخضع لحكم أحد سوى نفسي، أطلعتُها على الصحف التي نشرت صوري، أسمعتها تسجيلات من المقابلات التي أُجريت معي، ثم سألتها: أأترك هذا العزَّ وهذا الجاه، وأحبس نفسي في قمقم الزواج؟ إن هذا لحماقة.

فكَّرت المرأة مليًّا في أمر نفسها، ثم سألتني: هل أستطيع اللحاقَ بك، والعمل مثلما تعملين حين أترك زوجي؟ زيَّنتُ لها

الحرية التي أومن بها وأعيشها، فرشت لها الدَّربَ إلى العمل في الحزب بالورد والريحان، دعوتُ الرفاق للترحيب بها، فصدَّقت كلَّ ما قلت وما قالوا، حكت لنا الكثيرَ عن ظلم زوجها لها، أولى المظالم أنه يريدُ إجبارها على ارتداء الثياب الطويلة مثل نساء قريته، ويريد حجبها عن مجالس الرجال، بل يمنعُها من السفر وحدَها، ولا يريد لصوتها أن يعلوَ في أزقَّة القرية وحاراتها، ولا يسمح لها بارتياد الأسواق، صارخًا في كلِّ مرة: ألا ترَين أنني أجلب لك ولبيتك ما يكفيك ويزيد؟ هل طلبت منِّي شيئًا وقصَّرت؟ لكن ارتياد الأسواق متعة، وهو يريد حرمانها من التمتُّع بالحياة.

بعد شهر عادت إلينا مطلَّقة، متنازلة عن حَضانة ابنها رسلان؛ لتبحثَ عن منصب مثل منصبي، وجاه مثل جاهي، استقبلها الرفاق موظفةً عادية بين الموظفات؛ وذلك لخلوِّ يدها من شهادة دراسيَّة، وضآلة حصَّة جسدها من الشباب والجمال، مرتَّبها لم يَرُق لها، والمكان الذي خصَّصوه لها لم يعجبها، تركت حزبنا وراحت تشتغل في معمل للنسيج، لم تلبث فيه طويلاً، بعدما صار طموحُها يلامس السحاب، تنقَّلت بين عدد من المصانع، ثم سافرت إلى دمشق؛ لتبحثَ عن المجد هناك.

سكنت دُرِّية في حيٍّ معظم سكَّانه من الغرباء، عملت في محلٍّ مشبوه واجهتُه تزيين النساء، وسرعان ما داهمت شرطةُ

الآداب ذلك المكان، واقتادت كلَّ العاملات فيه إلى السِّجن، ووصلت أخبارُها إلى زوجها الذي ما انقطع أملُه بعودتها إليه وإلى ولده، فاحت رائحةُ الفضيحة في حيِّها، وفي قرية زوجها، فقرَّر الرجل أن يتخلَّى عن ولده، ويدفعَهُ ليتربَّى كاللقيط، في حَضانة العمِّ كسَّار، الذي أطلق عليه اسم (معيوف).

هذا الصبيُّ عاش في قريتنا منطويًا على نفسه، يأبى صبيانُ القرية مشاركته في ألعابهم، يذهب إلى المدرسة وحيدًا، ويعود منها ليمكُثَ في منزل العمِّ كسَّار حتى الصباح التالي، مكتفيًا من طفولته بألعاب يلعبها وحدَه، وحكايات يقصُّها عليه ذلك العجوز، يسلِّيه ويتسلَّى به، ماتت زوجة كسَّار، وتزوَّج أخرى، لم تتقبَّل الجديدةُ وجود معيوف، فغادر القريةَ يافعًا، وغابت أخبارُه.

غبارُ الكلام يتناثر في فضاء القرية، تلعب به التيَّارات المتناقضة، تعلو به وتهبط، تشرِّق به وتغرِّب، تجمعه ثم تذروه، معيوف يعمل قاضيًا في المحكمة، معيوف يعمل مديرًا لشركة كبيرة، تمدُّ فروعها في الدول الأجنبية، معيوف يملك مصنعًا كبيرًا للنسيج، يعمل تحت يديه مئاتُ العمال والعاملات، معيوف مدرِّس في كلية الآداب، بل في كلية الطب، معيوف ثريٌّ كبير، سيارته الفخمة تدلُّ عليه، بل سرعته في تبديل سياراته، وكلُّها من الأنواع الغالية الثمن التي لا تدخل البلدَ إلا

نادرًا، معيوف يأتي إلى القرية في أوقات متباعدة كالغيث، سيارته محمَّلةٌ دائمًا بالهبات، فواكه وملابس، أحذية ومؤن، دفاتر لتلاميذ المدارس، وألعاب للأطفال، هباتُه تغمر كلَّ بيت في القرية وكلَّ خيمة للرُّعاة في أطرافها، ويخصُّ بيت المختار بأثمنها، معيوف وفيٌّ كريم، لم تضِع تربية القرية فيه سدى، معيوف عفيفٌ وقور، لا يطرف نظره إلى فتيات القرية ونسائها، معيوف... معيوف...

وأخيرًا: هطل مطرُ الحقيقة ليغسلَ غبار الشائعات، سيارة جيب عسكرية توقَّفَت أمام مَضْيَفَة المختار، نزل منها أفرادُ دورية مسلَّحة، انتشروا أمام الباب وعلى مفارق الطرق، كبيرُهم دخل مَضْيَفَة المختار، وقبل أن يلقيَ تحيَّته اختبأ معيوف خلفَ الباب الموارب، ثم خرج بخفَّةٍ فلم يلحَظْه الشرطي، تسلَّل إلى زريبة الغنم، وفرَّ من هناك؛ ليختفيَ في الحقول بين أعواد الذُّرة.

ألقى الشرطيُّ تحيَّته، وسأل عن رجل يُدعى رسلان، فكَّر المختار كما فكَّر الحاضرون، ما في قريتنا رجلٌ يسمَّى رسلان، وتذكَّر أحدهم وقد لاحظ اختفاءَ معيوف: معيوف كان معي في المدرسة، وكان اسمُه في سجلات الإدارة رسلان، أيكون معيوفٌ هو موضوعَ البحث؟ سأل المختار الشرطي: بأيِّ جرم تطلبون رسلان؟

جرم؟ بل جرائم، نصب واحتيال، انتحال شخصيَّات رسميَّة،

سلب بالعُنف، سرقة محالَّ لبيع الفواكه والملابس والأحذية، تهريب المخدِّرات وتعاطيها، و... و... و... صاح به المختار: على هونك يا رجل، لو عرفناه كذلك ما استقبلناه بيننا، كان يحكي لنا عن طلابه في الجامعة، وكنَّا نصدِّقه، التفتَ المختار فلم يجد معيوفًا، انتظره فما عاد، خرج من المَضْيَفَة إلى ما وراء حقول الذُّرة، فما وجد لسيارته أثرًا، اختفى معيوف.

اختفى معيوف، وثارت زوابعُ جديدةٌ من الكلام، دخل غبارُها من الأبواب والنوافذ ومن شقوق الجدران، وتراكم على ضميري، الويلُ لي، لقد تسبَّبت في طلاق أم رسلان حين سقيتُها أوهام التحرُّر، وتسبَّبت في بؤسه؛ إذ رماه أبوه كمَن يرمي عنه ثوبَ الجَرَب، صار رسلان لصًّا، مجرمًا، أيصيرُ ولدي إلى مصيرٍ مشابهٍ لهذا الشقي؟ الويلُ لي ماذا جنَيتُ على نفسي؟ ماذا جنَيتُ على ولدي؟ أريد ولدي... أريد ولدي.

تركت مكانَ عملي، وقصدت الدكتور فارسًا في بيته، لم أستأذن أحدًا، لم أُخبر أحدًا بما نويته، فرشت على راحتَي الدكتور فارس ندمي وتوبتي، رجوتُه ان يذهبَ إلى حمدوش؛ ليسعى بالصُّلح بيننا، أريد ولدي، وليكن ما يكون.

جئتك متأخِّرة يا دكتور فارس، لكنِّي جئت، صدَّقت الآن كلامك، صدَّقت نصيحتك، حقًّا إن قوانين تحرُّر المرأة ما وُجدت إلا من أجل الشابَّة الجميلة، لكنها لا تخدُمها، بل تحطِّمها وتُسلمها للضَّياع مثلي، وحين تضيع لا تضيع وحدَها، بل يضيع أولادُها، وينتهون إلى مثل معيوف، الآن صحوتُ يا دكتور، أرجوك، ضع كلَّ نفوذك في سبيل إنقاذ ولدي، ساعدني، كن معي، اذهب إلى حمدوش، انقُل له رجائي، لا تنتظر أن يسألَكَ عن أسبابه، ولا تستمع إليه إذ يُملي عليك شروطه، أنا سمَّيت ابني سامرًا، لست متمسِّكةً بهذا الاسم الآن، ليُطلق عليه أبوه ما شاء من الأسماء والألقاب، لن أعترض، أنا راضيةٌ بكلِّ الشروط ما دامت في طاعة الله، وراضيةٌ بأيِّ مستوًى من العيش ما دُمت سأنقذ ولدي.

تمَّت